المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

ديسمبر 2021

439

نحوَ الجَمَال

رواية

تأليف: دافيد فوينكينوس

ترجمة: د. محمود المقداد

مراجعة: د. منتجب صقر

نَحْوَ الجَمَال

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

نَحْوَ الجَمَال

رواية

تـألـيـف: دافيد فوينكينوس
تـرجـمـة: د. محمود المقداد
مـراجـعـة: د. منتجب صقر

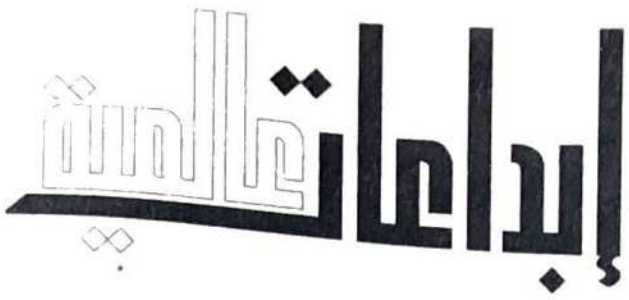

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

كامل سليمان العبدالجليل

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

أ. د. عيسى محمد الأنصاري

د. زبيدة علي أشكناني

د. ليلى عثمان فضل

د. علي عجيل العنزي

د. عبير البالول

د. سعاد عبدالله العنزي

مدير التحرير: محمد هشام المغربي

سكرتير التحرير: دلال المسلَّم

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamiya@gmail.com

ISBN: 978-99906-0-690-4

نحو الجمال

رواية

نوال الأصلي

Vers La Beauté

By: David Foenkinos

© Editions GALLIMARD, 2018

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2021م
إبداعات عالمية - العدد 439

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1923 - 1990)

الفهرس

مقدمة المترجم 7

القسم الأول 19

القسم الثاني 75

القسم الثالث 117

القسم الرابع 197

الخاتمة 211

مقدمة المترجم

-1-

هذه الرواية، المنشورة في دار (غالِّيمار) Gallimard بباريس بتاريخ 2018/2/20، هي الرواية الثالثة التي تنشر في سلسلة (إبداعات عالمية) للكاتب الفرنسي (دافيد فوينكينوس) David Foenkinos، بعد رواية (الرِّقة) La Délicatesse، المنشورة في العدد (404)، ديسمبر سنة 2014، من ترجمة الأستاذ كامل عويِّد العامري، وتقع في (202) صفحة، ورواية (إني أتعافى) Je vais mieux، المنشورة من ترجمتي في العدد (407)، يوليو سنة 2015، وتقع في (380) صفحة. وكنت قد مهدت لتلك الترجمة بمقدمة تعريفية شاملة للعمل وصاحبه.

-2-

تناولنا في مقدمة تلك الترجمة جملة أمور تتعلق بما يأتي:

أولا- سيرة هذا الكاتب.

ثانيا- أبرز تأثُّراته، ونضيف إليها هنا توضيحا بسيطا بشأن رواية (جميلة السيِّد) La Belle du Seigneur لكاتبها (ألبير كوهين) Albert Cohen التي كانت الرواية التي غيَّرت مجرى حياته عندما قرأها، وهو يُقِرُّ بأنها ملهمته وإمامه في الكتابة، ويعترف بأنها نالت الحظوة الأولى في عدد مرات قراءتها على ضخامتها؛ فقد قرأها لأول

مرة في سن العشرين، ومرة ثانية في سن الثلاثين، ومرة ثالثة في سن الأربعين. ويبدو أنها لا تزال تمارس تأثيرها فيه حتى اليوم.

ثالثا- أبرز سماته الأسلوبية التي لاحظنا أنها لا تزال مستمرة في الرواية الراهنة، وهذا تأكيد لمقولة (بوفُّون) Buffon (1788م) العالم والكاتب الفرنسي: (الأسلوب هو الإنسان)، يعني أن أسلوب الإنسان في كتابته وكلامه، وحتى في مشيته وحركاته، وفي أكله ونومه، وفي كل شأن من شؤونه، يكون واحدا ثابتا لا يكاد يتغير من حيث الجوهر، منذ أن تطبَّع عليه وترسَّخ في نفسه، وكأنه برمجة على المدى البعيد. ولعلَّ أبرز شاهد محسوس لتأثره بـ(كوهين) تقسيمه الرواية الراهنة أربعة أقسام وخاتمة، وتكوينه القسم الواحد من ترقيمات متسلسلة ومستقلة بنفسِها في كل قسم.

رابعا- الجوائز التشجيعية التي حصل المؤلِّف عليها تقديرا لأعماله الإبداعية المختلفة عبر مسيرته الكتابية، وهي كثيرة ومتنوعة.

ولذا يمكن الرجوع إلى تلك المقدمة للاطلاع على هذه الجوانب الأربعة من صورة هذا الكاتب الأدبية، كي لا نكرِّر هنا تناولها من غير طائل.

-3-

سُئل الكاتب أن يلخِّص روايته الراهنة في ثلاث كلمات، فقال: قطيعة، تدمير، انتقام. ولكني أرى أن هذا التلخيص مخِلٌّ جدا بتصوير مضمون الرواية، ولا يعبر عن كثير من جوانبها الإيجابية، علما أن النقاد الأدبيين والصحافيين الذين قرؤوها وكتبوا عنها انقسموا فيما بينهم إلى فريقين:

الأول شديد الإعجاب بها وبما طرحت من مواضيع وأفكار.

والثاني اتَّهم الكاتب بالانحدار عن مستوى إبداعاته السابقة وتراجع عنه، إلى درجة وصف روايته بأنها سطحية superficiel، وساذجة naïf.

وذكر الكاتب نفسُه طُرفة غريبة جرت معه ذات مرة في (صالون الكِتاب) في باريس Le Salon du livre، حين كان يوقِّع أحد كتبه، وهي أن امرأة وقفت في الصف مدة ساعتين إلى أن وصل دورها إليه فقالت له: (أنا لا أحب كتبك!)، ومضت. ولا شك في أن مثل هذه الأحكام التي تصدر عن مجمل الناس، إطراء أو قدحا، إنما تعتمد في المحصلة على المخزون المعرفي للأشخاص ولأذواقهم العامة، وهذه مختلفة متفاوتة ومتباينة، لأن الطبيعة العقلية للإنسان لم تتفق على شيء منذ عهد آدم عليه السلام إلى يومنا هذا.

-4-

كان الكاتب غزير الإنتاج، متنوع المجالات، وهو يذكر لنا أنه قرَّر إثر عملية جراحية له في القلب، وكان في السادسة عشرة من عمره، أن يكون كاتبا.. فكان كذلك بالفعل. وقد صدر له بعد هذه الرواية، وهي الرواية الرابعة عشرة من حيث ترتيب رواياته، رواية أخرى بعنوان (أختان) Deux sœurs في 2019/2/2، وفي دار (غالِّيمار) نفسِها.

-5-

كان (فوينكينوس) يعلِّق أحيانا في الهوامش على شيء ورد في المتن، وكنا بدورنا نقوم -خدمة للقارئ العربي الذي تصعب عليه متابعة إشارات الكاتب التي يعرفها القارئ الفرنسي بحكم ثقافته الخاصة بلغته وأدبه- بصنع بعض الهوامش، وكنا نميز هوامشنا من هوامش المؤلِّف بأنْ وضعنا في آخر هوامشنا بين قوسين كلمة (المترجم) داكنة، وأبقينا هوامشه مطلقة.

-6-

كان كثيرٌ من أعمال هذا الكاتب قد تُرجِم إلى نحو أربعين لغة حية في العالم، وهذا يدلُّ على نوع من الشعبية التي حصل عليها بين

القراء على أوسع نطاق. وأما أعداد النسخ المسحوبة من طبعة كل رواية من رواياته ومن أعماله الأخرى فلا تكاد تُصدَّق قياسا على ما يطبع في بلادنا العربية من روايات لكبار كتّابنا ممن لا تقل أهميتهم أبدا عن أهمية كبار الكتّاب الغربيين بأي حال من الأحوال، وهذه الأهمية ليست بالضرورة أن تكون هي المقياس، وإنما سبب هذا الفارق الكبير أمور خمسة نتناولها هنا استطرادا للفائدة:

الأول أن أمتنا تتميز بأن الفقير فيها يعجز عن شراء الكتب لوجود ضرورات وأولويات أهم، إلا من شذ عن هذه القاعدة، وهم قلة نادرة. وأما الغني في الأمة فلا يرغب في القراءة نظرا لشعوره بعدم الحاجة إليها، لتوافر المال الذي يضمن له حياة رغيدة مرفهة، وتكون له أولويات أخرى تشغله عن القراءة أو المطالعة حتى في مجال عمله أو تخصصه، وكأن الغاية من الحياة هي ممارسة الغرائز الطبيعية عند الإنسان فقط، إلا قلة قليلة منهم كان الكِتَاب صديقهم الذي لا يستغنون عنه لِذاته أو في سبيل الإفادة منه في أعمالهم.

والثاني أن أمتنا لم تستعمر بلادا لا تغيب عنها الشمس كبريطانيا، ومن بعدها فرنسا، على سبيل المثال، لتكون لغتنا كلغتي هاتين الدولتين لغة للبلاد المستعمَرة المعتمَدة فيها في ميدان الإدارة والتعليم والثقافة، في أفريقيا وآسيا.

والثالث إهمال العرب العمل الدؤوب على نشر لغتهم بطريقة منهجية منذ بداية انتشار العرب بالفتوح إلى يومنا هذا، بخلاف بريطانيا وفرنسا اللتين تفانتا في هذا المجال. فكان انتشار العربية عفويا وتلقائيا، عن طريق التفشي بالجوار أو عن طريق الحامل المهم وهو الإسلام.

والرابع لكون العرب غير منتجين على المستوى العلمي ومتقوقعين على أنفسهم في المجال الأدبي، أو لنقل محاصرين عموما من قبل

أصحاب اللغات الحية الأخرى المزاحمين لهم، وعلى الرغم من ذلك جاء تصنيف العربية في المرتبة السادسة في العالم بين اللغات الحية والحضارية، بحسب معايير الأمم المتحدة.

والخامس ضعف حركة الترجمة، في العصر العربي الحديث، من العربية إلى اللغات الأخرى لقلة اهتمام العالم بما لدى العرب، خلافا لإقبال الغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على ترجمة المؤلفات العربية في مجال المعارف العلمية خاصة إلى اللاتينية، وترجمتها في عصر النهضة الأوروبية منذ أواخر القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر إلى لغاتهم القومية.

ولذا فإن الكاتب في الغرب يعيش في وفرة وراحة تبعثه على المزيد من الإنتاج والإبداع، وربما اغتنى من كتاب واحد، فكيف لو كان غزير الإنتاج؟ أما كاتبنا العربي فدخْل أعماله يعد رديفا أو ثانويا بعد دخله من وظيفة أو عمل حر لا علاقة له بالفكر ولا الثقافة، ولذا يبقى طيلة حياته في ضيق ولو نُشِر له فيها مئة كتاب. وإذا ذكرنا مجال الترجمة وجدنا أن أي كتاب، في أي مجال، يصدر في الغرب باللغتين الإنجليزية والفرنسية على وجه الخصوص، سرعان ما يوزع بلغته في كل البلدان التي تكون هاتان اللغتان أصلية فيها (كالإنجليزية: في بريطانيا والولايات المتحدة وكندا وجنوب أفريقيا وأستراليا) أو تكون فيها من مخلفات الاستعمار (كالهند وباكستان ونيجيريا، إلخ). وسرعان ما يترجم إلى لغات كثيرة في العالم أيضا.

-7-

أما الرواية الراهنة لـ(فوينكينوس) فقد أرادها أن تكون دعوة مفتوحة للاهتمام بالفنون التشكيلية، وإغراء بمتابعتها ومتابعة حيوات فنانيها وإبداعاتهم عبر العصور السالفة، وفي عصرنا الراهن،

وعلى رأسها فن (الرسم) la peinture، ويذكر أسباب ذلك على المستوى الفردي. ولكننا نشير هنا إلى أسباب كانت على مستوى الأمم: فقد بدأت أوروبا في بناء نهضتها الشهيرة على بعث الفنون والآداب الإغريقية والرومانية من زمن الوثنية، وبدأ العرب نهضتهم الحضارية في القرنين الثامن والتاسع للميلاد (أي في القرنين الثاني والثالث للهجرة) بجمع تراثهم الأدبي خاصة.

وبلغ إغراء الكاتب بـ(فن الرسم) إلى حد الذهاب بشأن (أنطوان دوريس)، بطل الرواية، إلى أنه لم يجد سوى دواء واحد، لكي يبقى على قيد الحياة، وهو الالتفات نحو الجمال في لوحات الفنانين.

فـ (أنطوان دوريس) هذا كان قد حصل على درجة علمية عالية بتقديمه أطروحة درس فيها حياة الفنان التشكيلي المصوِّر (موديلياني)، اليهودي الإيطالي الذي تعرضت أسرته وهو صغير للاضطهاد، فهاجر إلى فرنسا وهو في السادسة عشرة من عمره واستقر به المقام في باريس، وتفتحت مواهبه الفنية في وسطها الفني، وكان من أنداد (بيكاسو) ومخالطيه ومنافسيه الأقوياء في مطلع القرن العشرين.

وكان طموح (أنطوان) أن يكون محاضرا في (المدرسة الوطنية للفنون الجميلة) في مدينة (ليون) الفرنسية، وهي أشبه بمعهد عال لهذه الفنون، فكان فيها أستاذا لـ (تاريخ الفن) تحديدا، بحكم تخصصه بإنتاج الفنان (موديلياني)، واطلاعه على حيوات غيره من الفنانين عبر التاريخ وعلى أعمالهم.

ونجد القسم الأول من الرواية يتحدَّث لنا عن هروب غامض، وشبه سري، لهذا الأستاذ من العمل في ذلك المعهد، من غير سبب واضح، على الطريقة الكافكوية، وتحت غطاء ادَّعاه وهو تفرغه لكتابة رواية، ورغبته في الانقطاع عن العالم الخارجي تماما لذلك، وهو ادعاء

لم يصدقه أحد من معارفه وبخاصة أخته (إيليونورا)، الحريصة على مصلحته وسلامته، وزوجته التي انفصلت عنه حديثا، بعد عِشْرةٍ دامت سبع سنوات. وخلال هذا الغياب قطع اتصالاته بكل معارفه، وسعى إلى وظيفة حارسِ صالةٍ بسيطٍ في متحف (أورسيه) الشهير في باريس، يجلس على كرسي طيلة دوام المتحف ليراقب الزوار ويحول بينهم وبين أي اعتداء أو تجاوز منهم على اللوحات المعروضة، ونال ما أراد وسط دهشة (ماتيلدا ماتِّل) مديرة الموارد البشرية المسؤولة عن التوظيف في المتحف، نظرا لتواضع هذه الوظيفة قياسا على كونه بروفسورا في صرح فني عريق في (ليون)، وأقصى ما كان الزوار يسألونه عنه بمختلف لغاتهم هو الحمامات (التواليتات W.C.) في المتحف، وقد أتقن الجواب بجملة واحدة بها جميعا. وكان يتحاشى الدخول في أي علاقة مع أحد، أيا كانت، خلال وجوده في باريس، لا مع زملائه في المتحف، ولا مع جيرانه في السكن المتواضع الذي يقيم فيه. وغلب عليه الصمت وعدم الكلام مع أحد في نوع من (النقاهة من الكلام)، وهذا ما أثار حوله الشكوك والرِّيَب. وظلّت أخته تحاول الاتصال به والبحث عنه إلى أن فاجأته وهو جالس على كرسيه في صالته بالمتحف. ولم يكن أحد يعرف الصدمة التي دفعته إلى هذا الهروب، وهل كان يتوارى من شيء أو تحت ضغط شعور ما بالذنب حتى يلجأ للشفاء إلى (الصمت) و(العزلة) و(الجمال)؟

كانت أقصى سعادة له في المتحف تأمُّلَ لوحة (جان هيبوتِرن) عشيقة (موديلياني) وملهمته التي رسمها في أكثر من لوحة، وللمصادفة كان المتحف قد خصص فترة في صالته لعرض لوحاته، فكان يقف ساعات أمام تلك اللوحة ويناجيها بتمتمات وكأنها حية أمامه. إلا أن هذا الحارس كان يتدخل في شروح دليل لمجموعة نسائية بشأن حياة

(موديلياني) ولوحاته، فكانت النتيجة فصلَه من العمل، وعودتَه إلى (ليون) في سيارة (ماتيلدا) مديرة الموارد البشرية التي دخل معها في علاقة استلطاف وإعجاب، فأوصلته إلى (ليون)، واستفتح صباحه معها بزيارة مقبرة المدينة والوقوف على قبر محدَّد لـ(كاميليا بِرُّوتان)، التي يتَّضِح من تاريخ مولدها ووفاتها أنها كانت في الثامنة عشرة من العمر. ثم يعود إلى عمله في (الفنون الجميلة).

وأما القسم الثاني فيتناول تفانيه في التدريس وتعميق اطلاعاته ومعارفه في الفنون التشكيلية، وبخاصة فن الرسم، وكان مثار إعجاب طلابه من الجنسين، فقد كان يجد نفسَه في التدريس والثقافة وفي طلابه هؤلاء، وقد عوضه ذلك عن كل شيء في الحياة تقريبا. كما يتناول هذا القسم مشكلة انفصال زوجته (لويزا) عنه بإرادتها لأسباب كانت قد صارحته بها، غير أنه كان في قرارة نفسه يشعر بطعنة عاطفية في قلبه ورجولته، وكان يشك في أنها عثرت على رجل غيره أفضل منه، فيشعر بالغيرة الشديدة والفضول للتعرُّف عليه، ولمعرفة بأي شيء هو أحسن منه، ومن خلال عمله في (الفنون الجميلة) يقيم علاقة حميمة، ولكن مؤقتة ومن غير قناعة ولا نية في الارتباط، مع إحدى الموظفات الإداريات، وينتهي الأمر بينهما إلى الجفاء.

وأما القسم الثالث، فيعود بنا الكاتب فيه إلى تناول حقبة زمنية جرت قبل أحداث الفصل الأول فيما يعرف باسترجاع الأحداث (فلاش باك) flash back. ليروي لنا سيرة (كاميليا) تلك الفتاة الشابة، ما بين السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة، ابتداء بذكر أسرتها، فكانت وحيدة والديها المدللة، المفعمة بالحياة والنشاط والتفاؤل، والمتفوقة في ثانويتها، وكانت ميالة إلى العزلة والصمت، بحكم عمل أبويها،

وكيف اكتشف أستاذ الفنون موهبتها من خلال تقرير كتبته له عن لوحة أحد الفنانين في متحف بمدينة (ليون) خلال رحلة مدرسية إليه، فاستيقظ في نفسها حب الرسم والتصوير، ومرت بفترة ولع بزيارة المتاحف الفنية حتى في باريس في العطل والإجازات بدلا من قضاء الوقت في ربوع الطبيعة في منطقة (بروتاني) وغيرها. ثم اقتربت أكثر من فن الرسم بشراء الكتب وزيارة المكتبات العامة والإكثار من القراءة والمطالعات في هذا المجال لاكتساب معرفة متينة به، ولما رأت أمُّها إعجابها بهذا الفن طلبت منها أن ترسم بنفسِها، فأقبلت على شراء أدواته، وأخذت موهبتها تتجسد في لوحات جميلة سرعان ما أخذت منحى شبه احترافي، وعملت على امتلاك تقنيات هذا الفن عن طريق بعض المتخصصين بتدريسها. وفجأة يلاحظ والداها انكماش ابنتهما وتقوقعها على نفسها وإصابتها بالاكتئاب الشديد والتوقف عن ممارسة الرسم، وامتنعت من الذهاب إلى المدرسة، وتراجع تحصيلها ورسبت في سنتها الدراسية، ولم يعرف أحد ماذا أصابها حتى جرى هذا التحول السلبي في حياتها، وهي لم تنطق بشيء عن أسباب ذلك. وجربا كل أنواع الكشوف الطبية للوصول إلى الشفاء بلا جدوى، لأنها كانت تجمع في النهاية على أنها سليمة الجسد تماما وأنها تخلو من أي مرض، إلى أن زارت طبيبة نفسية وأخذت أمورها تتحسن فأعادت سنتها الدراسية، ثم بدأت تعود نسبيا إلى طبيعتها، ونالت الثانوية العامة، ودخلت في معهد (الفنون الجميلة)، وكانت تميل إلى الصمت والبعد عن العلاقة مع الزملاء، وكانت شديدة الإعجاب بأستاذها (أنطوان دوريس) وقد عارضت نظرية له في إحدى المحاضرات، ثم اعتذرت منه ونشأت بينهما علاقة إعجاب وتميز نظرا لتمتعها بموهبة فنانة حقيقية وكاملة من بين كل

زملائها، وقد حرضها تقدير أستاذها لها على المزيد من الإبداع في الاستديو الذي كان والداها استأجراه لها بالقرب من المعهد لتعيش فيه وتمارس هوايتها المفضلة. وقد دعت كاميليا مرة أستاذها إلى أن يزورها ميدانيا في ورشة المعهد أمام زملائها الآخرين، ففعل، فنظر إلى بورتريه ذاتي لها مليا، وأثنى عليها فيه، ثم دعاها إلى شرب القهوة في مقهى قريب، وازداد إعجاب كل منهما بالآخر. وبعد مدة صحح الأستاذ تقارير الطلاب عن بعض الفنانين، وكانت ورقة (كاميليا) عن الفنان النرويجي (مونك)، ولكنها انتقلت في منتصف الموضوع إلى الحديث عن (دالي)، فكتب ملحوظة كان في آخرها (خارج المطلوب)، وسلمها ورقتها في اليوم التالي، وفي اليوم نفسه حدث شيء في المعهد من خلال رحلة قام بها مجموعة من طلبة الثانوية مع أستاذهم. وفي صباح اليوم التالي غابت (كاميليا) عن محاضرته الصباحية، فسأل أمانة السر عن عنوانها ورقم جوّالها، واتصل بها مرارا بلا جواب، فانشغل باله عليها انشغالا بالغا، واعتقد أن السبب هو ملحوظته على ورقتها التي بدت وكأنها خيانة لها وغدر بها بعد كل ما أبداه من إعجاب بها وبموهبتها وإبداعها وأعمالها.

أما في القسم الرابع فيتبين له وقوع كارثة بطالبته، ويظن نفسه المسبب بها، لملحوظته القاسية، مع علمه بهشاشة وضعها النفسي، وينتابه شعور شديد بالذنب. ويكمل في هذا القسم من حيث انتهى حديثه في القسم الثاني، فيزور والدة كاميليا في البيت لتعزيتها، وتتكشف له حقائق مذهلة تبيِّن له أنْ لا علاقة له بتلك الكارثة. ويقرِّر بينه وبين نفسه أن يخلِّد ذكرى (كاميليا) بإقامة حفل تكريمي لها في المعهد.

وتأتي خاتمة الرواية لتبين لنا اكتشاف عشرات اللوحات الرائعة المخزنة في صندوق في غرفتها ببيت أهلها.. فيقرِّر تغيير وجهة تكريم ذكراها،

بإقامة معرض للوحاتها في صالة فخمة في (ليون) يكون هو مديرا له، حتى يخلِّد ذكراها تخليدا أوسع وأعظم من خلال أعمالها التي نالت إعجاب جميع الزوار الذين كانوا يترددون على الصالة أكثر من مرة حتى يستوعبوا طريقتها المتفردة في الرسم كما وصفها أستاذها.. وقد سعد والداها بذلك، وكان هذا المعرض أعظم تعزية لهما عن فقد ابنتهما الوحيدة.

-8-

الجدير بالذكر هنا أننا اضطررنا إلى أن نثبت في سياق الحديث عن بعض الفنانين أو بعض اللوحات صورا لهم أو لها، ليطلع القارئ العربي العام على المراد، بدلا من أن يبقى ذلك الحديث مجرَّدا، وبهذا يمكن لهذه الصور واللوحات أن توضحه وتعطيه تجسيده الواقعي.

-9-

لقد كانت رسالة هذه الرواية، من وجهة نظري الشخصية، مزدوجة: الأولى- بث الوعي بين الناس بشأن بعض الانحرافات الأخلاقية والأخطاء السلوكية التي يرتكبها بعضهم بحق بعض في الحياة الاجتماعية، وتكون عاقبتها كارثية ووخيمة وغير مُشرِّفة لإنسانية الإنسان، بل تكون مهينة للكرامة البشرية.

والثانية- الترويج لفن الرسم والدعوة إلى نشر الاهتمام والوعي بهذا المجال من الفنون الجميلة التي تزين حياة الإنسان، وتملأ روحه بعبق الجمال وسحره وتزيد الإنسان راحة نفسية وطمأنينة وتفاؤلا، ولذا نجد للمؤلِّف في تصريحاته، وفيما أثبته في روايته، وفيما كتبه النقاد عن الرواية، كثيرا من الأقوال التي تصبّ في هذا الاتجاه، من مثل:

- الجمال يتغلَّب على الخوف.
- الجمال يُريح.
- معرفة الجمال تزيد المرء قوة.
- أدركت (كاميليا) قُدرةَ الجمال على لَأْمِ الجِراح.
- غاية العمل الفني الوحيدة هي أن يغمرك بأمواج الجمال؛ فتُنسَى الأحزان مع (بوتِّيتشِلِّي)، وتَخِفّ المخاوف مع (رامبرانت)، وتتقلَّص الهموم مع (شاغال).
- وضع (أنطوان) نفسَه بين اللوحات ليُشفَى من صدمة.
- الجمال هو العلاج الأخير للألم.
- الجمال هو الذي سينقِذ العالَم.

-10-

في نهاية المطاف، أرجو أن يستمتع القارئ العربي بهذه الرواية، وأن يستخلص منها الدروس والعِبَر المفيدة في السلوك والأخلاق وطرائق التفكير، وأن تبعثه على حب الجمال في الأشياء واحترام الفنون التي تجمِّل الحياة من حولنا، وتزينها بكل ما يزيدنا تفاؤلا وإنسانية ورقّة.. والله الموفِّق والمعين.

د.محمود المقداد

دمشق في: الأربعاء 10 رمضان 1440هـ

الموافق لـ 15 مايو 2019م

القسم الأول

(1)

كان مُتحَـفُ (أورسـيه) Orsay[1] في (باريـس) محطَّـة قديمـة. وبـذا يخلـع المـاضي عـلى الحـاضر هنـا أثـرا غـير عـادي. فـما بـين لوحـات (مانيـه) Manet[2] ولوحـات (مونيـه) Monet[3] يمكـن للمـرء أن يـدع نفسـه تذهـب إلى تخيُّـلِ القطـارات تصـل إلى وسـط هـذه اللوحـات. إنهـا الآن سـفريات أخـرى. ربمـا لمـح بعـضُ الـزوّار (أنطـوانَ دوريـس)Antoine Duris في ذلـك اليـوم، جامـدا في الفِنـاء. ويبـدو كأنـه سـقط مـن السـماء، وهـو مذهـول لكونـه هنـاك. والذهـول هـو الكلمـة التـي يمكـن أن تصـف تمامـا شـعوره في هـذه اللحظـة.

(2)

وصـل (أنطـوان) قبـل موعـده بكثـير مـع مسـؤولة المـوارد البشريـة.

---

(1) متحف (أورسيه): كان يوما ما محطة مركزية في (باريس) لانطلاق القطارات إلى أنحاء فرنسا واستقبالها، غير أن الفرنسيين حولوه ببعض اللمسات الراقية والتصاميم إلى متحف سياحي رائع، حتى أصبح اليوم من المعالم المهمة في العاصمة إلى جانب غيره من المتاحف والمعالم الشهيرة فيها. يحتوي على مجموعة من لوحات المذهب الانطباعي في الفن التشكيلي، إلى جانب احتوائه على ثمرات كل الإبداع الفني في العالم الغربي من سنة 1848 إلى سنة 1914، كما يحتوي على مجموعات تمثِّل جميع أشكال التعبير من فن الرسم الزيتي إلى فن العمارة، مرورا بفن النحت، وفنون التصميم، إلخ. ويشمل نحو ستين سنة من تاريخ الفن: من (الواقعية) le réalisme إلى مدرسة (لو بون-آفين) le pont-Aven، ومن (الانطباعية) l'impressionnisme إلى (التنقيطية) le pointillisme. وأما سقف المتحف فكان من الزجاج والمعدِن، ومساحته نحو 35.000م2، ويقع هذا المتحف على الضفة اليمنى لنهر (السين). (المترجم).

(2) مانيه: (إدوار - Édourd): مصور تشكيلي فرنسي (1832-1883)، كان رائدا للمذهب الانطباعي في الفن، من أشهر لوحاته (غداء على العُشب) le Déjeuner sur l'herbe و(أوليمبيا) Olympia. (المترجم).

(3) مونيه (كلود - Claude): مصور تشكيلي فرنسي (1840-1926)، من المدرسة الانطباعية، من لوحاته (انطباع) و(الشمس المشرقة). (المترجم).

لقد كان عقله كلُّه منصبا، منذ بضعة أيام، على هذا اللقاء. وكان المتحف هو المكان الذي كان يريد أن يكون فيه. توجَّه بخطا هادئة نحو مدخل الموظَّفين. وكانت (ماتيلد ماتِّل) Mathilde Mattel، قد بيَّنت له، بالهاتف الجوّال، ألا يسلك مدخل الزوّار. أوقفه حارِسٌ قائلا:

- هل لديك بطاقة؟

قال:

- لا، ينتظرني أحدهم.

- من ينتظرك؟

- ...

- من ينتظرك؟

- عفوا.. عندي موعدٌ مع السيدة (ماتِّل).

- حسنا.. سأدعك تتوجَّه إلى الاستقبال.

- ...

وبعد بضعة أمتار، كرَّر سبب زيارته. ثم دقَّقت امرأة شابة في مفكِّرة سوداء كبيرة، قائلة:

- أنت (دوريس).

- نعم.

- هل يمكنني أن أطلب بطاقة هويتك؟

- ...

هذا غير معقول. مَنْ يرغب في أن يدَّعي أنه هو؟ نفَّذ الطلب بإذعان، مُصاحِبا حركتَه بابتسامةِ تفهُّمٍ ليغُطي على انزعاجَه. يبدو أن مقابلة التوظيف بدأت آنفا مع الحارس ثم مع عاملة مقسم الهاتف. لقد كان منذ أول تحية كفؤا. لم يكن المرء يتغاضى عن أقل شكر تقريبي.

وبعد أن تحقَّقت المرأة الشابة من أنه كان حقا (أنطوان دوريس)،

أشارت المرأة الشابة إلى الطريق الذي سيتبعه. كان عليه أن يجتاز ممر وجد في آخره مِصعَدا. وكانت قد أضافت قولها: (الأمر سهل، لا يمكنك أن تَضِلَّ). كان (أنطوان) يعتقد أنه، مع هذا النوع من الجُمَل، سوف يضلّ حتما.

وفي وسط الممر، لم يعد يعرف حقا ما ينبغي له أن يفعل. ومن الجانب الآخر من الكُوَّة الزجاجية، لمح لوحة لـ(غوستاف كوربيه) Gustave Courbet[4] يبقى الجَمَال خيرَ ملجأ من عدَم اليقين. ولقد كان يكافح، منذ أسابيع، كي لا يضمحِلّ. وكان يشعر بأن لديه قليلا من القُوَى، وقد تطلَّب منه الاستجوابان، اللذان كان قد خضع لهما، جهدا بالغا. مع أن الأمر لم يكن يتعلق بغير التفوُّهِ ببعض الكلمات، والإجابةِ عن أسئلةٍ ليس فيها أدنى خُدعَة. وكان قد عاد إلى مرحلةٍ ابتدائية من فَهْم العالَم، مستسلما لاجتياحات مخاوف غير معقولة. وكان كلَّ يوم يشعر أكثر بنتائج ما كان قد عاشه. فهل سيكون قادرا فقط على اجتياز هذه المقابلة مع السيدة (ماتِّل)؟

وفي المصعد الذي أدَّى به إلى الدَّوْر الثاني، ألقَى خلسة نظرة على المرآة فوجد نفسَه هزيلا. وليس في هذا الأمر ما يُدهِش، فقد كان يأكُل قليلا، وينسى أحيانا أن يتعشَّى أو يتغدَّى، ولم يكن كرشُه ليظهر. كان بإمكانه أن يتجاوز عِدَّة وجباتٍ من غير أن يشعر بأدنَى قرقرة في المعدة، وكأن جسده يتكون منذ الآن من مناطِقَ مُخدَّرةٍ. وكان عقلُه وحده يدفعه إلى التفكير: (أنطوان، عليك أن تأكل). إن البشر عند الوجع فريقان: فريقُ أولئك الذين يقاومون بالجسد وفريقُ أولئك الذين يقاومون بالعقل. فهم إما هؤلاء وإما أولئك، ونادرا ما يجتمعان في فريق واحد.

(4) غوستاف كوربيه: أحد كبار المصورين التشكيليين الفرنسيين في القرن التاسع عشر (1819-1877)، تأثّر في البداية بـ (دولاكروا) Delacroix و(الرومانتية)، ثم تطور نحو (الواقعية)، وانضم إلى (كومُّونة باريس) الثورية. من أبرز لوحاته (جنازة في أورمان) و(مشغل مصوِّر تشكيلي) و(أصل العالم). (المترجم).

وعند خروجه من المِصعَد، استقبلته امرأةٌ. كانت (ماتيلد ماتِّل) تنتظر مواعيدها في مكتبها في العادة، ولكنها قرَّرت، بالنسبة لـ(أنطوان دوريس)، أن تخرج لاستقباله. فقد كانت مستعجلة جدا لتعرف عنه أكثر بشأن دوافعِه.

سألته فورا لتتأكد:

- هل أنت (أنطوان دوريس)؟

- نعم. هل تريدين بطاقة هويتي؟

- لا، لا. لماذا؟

- لقد طلبوها مني تحت.

- إنها حالة طوارئ. هكذا هو الأمر.

- أنا لا أرى تماما من يمكن أن يحرِّض على عمل إرهابي ضد (إدارة الموارد البشرية) DRH[5] في متحف (أورسيه).

قالت وهي تبتسم:

- لا أحد يدري أبدا.

كان من الممكن أن يعتبر هذا الموقف طريفا أو فكاهيا، لكن (أنطوان) تعامل معه ببرود. أشارت (ماتيلد) بحركة من يدها إلى جهة مكتبها. واندفعا عندئذ في ممرٍّ طويل وضيِّق لم يصادِفا فيه أحدا. فكَّر وهو يتبعها في أن هذه المرأة لابد أنها كانت تملّ في حياتها من استقبال موظفي المستقبل في ساعةٍ لا يبدو أن بقية الموظفين قد وصلوا فيها بعدُ. يجب عدم البحث عن أدنى منطِق في منطقية أفكار (أنطوان).

اقترحت عليه (ماتيلد)، في مكتبها، مرة شرب الشاي، ومرة شرب القهوة، جملة مكررة غير موجودة في النص الأصلي، وهذا ما كان

(5) وهي اختصار لـ (la Direction des Ressources Humaines). (المترجم).

يرغب فيه حقا، ولكنه فضَّل أن يقول: لا شكرا، لا شكرا، لا شكرا. ولذا بدأت بالقول:

- عليَّ أن أقول لك إنني متفاجئة جدا وأنا أتلقى سيرتك الذاتية[6] CV

- لماذا؟

- لماذا؟ أتسألني لماذا؟ أنت أستاذٌ مُحاضِرٌ..

- ...

- ولديك أيضا شهرةٌ أكيدة. ولقد سبق لي أن اطلعت على أحد مقالاتِك، كما يبدو لي. وأنت الآن تلتَمِس وظيفة.. لتصبح حارس صالة.

- نعم.

- ألا يبدو لك ذلك غريبا؟

- على وجه الخصوص.. لا.

باحت (ماتيلد) بُعَيْد بعضِ الوقت قائلة:

- لقد سمحتُ لنفسي أن أتَّصِل بالـ[7] ENSBA .

- ...

- فأكدوا لي أنك قرَّرتَ أن تترك وظيفتك بين عشية وضُحاها هكذا.. من غير أدنَى سبب.

- ...

- أوَلم تَعُدْ تُطيق التدريس؟

- ...

- هل أصابك.. ما يشبه الاكتئاب؟ يمكنني أن أتفهم ذلك. فاستنفاد الطاقة[8] أمر شائع أكثر فأكثر.

---

(6) وهذا اختصار للكلمتين اللاتينيتين (Curriculum Vitæ). (المترجم).

(7) وهذا يعني (المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة في ليون)، وهو اختصار للكلمات الفرنسية (L'École Nationale Supérieure des Beaux-Arts de Lyon). (المترجم).

(8) ذكر المؤلِّف الكلمتين بالإنجليزية: le burn-out. (المترجم).

- لا، لا. كنتُ أريد التوقُّف. هذا ما في الأمر. وسأعود إليه بالتأكيد فيما بعد، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- اسمعيني سيِّدتي، إنني ألتمِس وظيفة وأريد أن أعرف إن كانت لي فرصةٌ للحصول عليها.

- ألا تشعر بأنك أعلى كفاءة؟

- إنني أحبُّ الفن. لقد دَرَستُه، ودَرَّستُه، موافِقٌ، ولكن لديَّ رغبةٌ بكل بساطةٍ في أن أجلِس في صالةٍ وسطَ لوحات.

- هذه مهنةٌ غير مريحة. فلسوف تُطرح عليك أسئلةٌ كلَّ الوقت. ثم إن في (أورسيه)، هنا، كثيرا من السُّيّاح. ويجب أن يكون المرء دوما مُتيقِّظا .

- جربيني إن كان لديك شكوك.

- إنني في حاجة إلى أُناسٍ، لأننا سنبدأ الأسبوع القادم بعرضٍ تاريخي كبير لأعمال الفنان (موديلياني) Modigliani[9] . وسيجذب ذلك الجماهير. هذا هو الحدَث.

- يجيء هذا في وقتِه.

- لماذا؟

- لقد كتبتُ أطروحتي عنه.

لم تُجِب (ماتيلد) بشيء. واعتقد (أنطوان) أن هذا الكشف سيلعب لصالحه. ولكن على العكس، يبدو أنها زادت، في نظر مديرة (إدارة الموارد البشرية)، استغرابا لتصرُّفه. ما الذي جاء يفعلُه هنا عالِمٌ

(9) موديلياني: هو (آميديو كليمنته 1884) (Amedeo Clemente- 1920)، مصوِّر تشكيلي ونحّات يهودي من أصل إيطالي، ولد في مدينة (ليفورنو) Livorno بمقاطعة (توسكانا) Toscana عمل عموما في فرنسا بعد أن هاجر إلى باريس سنة 1906، والتقى فيها فناني زمانه، وأشهرهم (بيكاسُّو). وقد عُرِف بتصوير (البورتريهات) و(العُراة) بأسلوب حديث. توفِّي ودُفِن في باريس. لقيت أعمالُه جماهرية واسعة بعد وفاته، من لوحاته (بورتريه لبيكاسو سنة 1915) و(العارية النائمة على مِخَدَّة زرقاء) ومجموعة (جانّ هيبوتِرن). (المترجم).

مثلُه؟ هل كان يستطيع أن يقول لها الحقيقة؟ إنه مِثْلُ حيوانٍ مذعورٍ، وكانت فكرة اللجوء وحدها إلى متحفٍ تبدو له قادرة على إنقاذه.

(3)

في أقل من يوم، ألغى كل اشتراكاته، وردَّ مفاتيح شقَّتِه. فقال له مالِكُها: (هنالك شهران من سابِقِ الإخطار، سيِّد «دوريس».. ولا يمكنك الرحيل هكذا. وعليَّ أن أعود). وأضاف الرجلُ بعض الجمل بشأن الحزن المفرِط. فقطع (أنطوان) حواره الداخلي وقال: (لا تقلَقْ، لسوف أدفع لك الشهرين). وكان قد استأجر شاحنة صغيرة حمَّلها جميعَ صناديقه. وبشكل أساسي صناديق كُتُبِه. وكان قد قرأ مقالا عن يابانيين غادروا هذه الحياة هكذا بين عشية وضُحاها. وكانوا يطلقون عليهم اسم (المتلاشين). وكانت هذه الكلمة الرائعة تخفي مأساة هذه الحالة تقريبا. وكان الأمر يتعلَّق غالبا بأُناسٍ فقدوا عملهم، ولم يتمكَّنوا من تحمُّل سقوطَهم الاجتماعي في مجتمع قائمٍ على المظاهر. فالهرب (وأن يصبح) شحاذا أهونُ من مواجهة نظرة امرأةٍ، أو أسرةٍ، أو نظرة جيرانٍ. ولم يكن هذا الأمر يُرى في حالة (أنطوان)، الذي كان على (قمة مسيرته المهنية)، فهو مدرِّسٌ ممتاز ومحترَم. وفي كل سنة، كان عشرات الطلاب والطالبات يحلمون في إنجاز بحوثِهم معه. إذن ما الأمر؟ لقد كانت هنالك هذه القطيعة مع (لويز) Louise، ولكن مرور الأشهر دَمَل هذا الجرح العاطفي: والمعاناة في الحب تحصل مع كل الناس. ثم إن المرء لا يهمل حياته لوقت طويل.

كان (أنطوان) قد نقل جميع صناديقه وبعضَ الأثاث الذي يملكه في مستودع في مدينة (ليون). واستقل القطار إلى (باريس)، مع حقيبة بسيطة. وكان قد نام، في الأماسي الأولى، في فندقِ نجمتين قرب المحطة، وقبل أن يجد (استديو) للأجرة في حيٍّ شعبي في العاصمة. لم يضع اسمه على صندوق الرسائل، ولم يوقِّع أي اشتراك. وكان الغاز والكهرباء

باسم المالك. ولا أحد يستطيع العثور عليه. ولقد كان أقرباؤه قلقين بجلاء. ولكي يُطمئنَهم، أو بالأحرى لِيَدَعوه بسلام، أرسل إليهم رسالة جماعية، يقول فيها:

أعزائي جميعا

أنا آسف بعُمقٍ للقلق الذي يمكن أن أكون قد سببتُه لكم. فلقد كانت الأيام الأخيرة ناشِطة جدا حتى إني لم أستطع الردَّ على رسائِلكم. فاطمئنوا، كلُّ شيء على ما يُرام. فلقد قرَّرتُ فجأة الانطلاقَ في رحلة طويلة. فأنتم تعلمون أنني أحلم بكتابة رواية منذ زمن بعيد، وهكذا أخذتُ سنة راحة وذهبت. وأعلم أنه كان بإمكاني القيام بحفلة توديع، غير أن كلَّ شيء جرى بسرعة كبيرة. وبالنسبة لمشروعي، فلا تلوموني. ولسوف أنقطع عن العالم. لن يكون لديَّ هاتف. ولسوف أبعث إليكم أحيانا رسائل بريد إلكتروني.

أُحبُّكم

أنطوان

تلقَّى من بعضهم إجاباتِ إعجابٍ، وحكم عليه آخرون بأنه مجنون قليلا. ولكنه كان في الأصل عَزَبا، بلا أطفال، وربما كان هذا هو الوقت للوصول إلى حلمِه. وخلص كثير من أصدقائه إلى تفهُّمِه. قرأ إجاباتهم، من غير رد. أختُه (إيلوينور) Eléonore وحدها لم تصدِّق هذه الرسالة. فقد كانت مقرَّبة جدا منه كي تقبل بأنه استطاع الرحيل هكذا، حتَّى من غير أن يتعشَّى معها للمرة الأخيرة. وحتَّى من غير أن يمر ليعانق بنتَ أخته التي كان يحب اللعب معها. إن بعض الأشياء تبدو غير منطقية. وقد ألحت عليه بالرسائل قائلة: (أرجوك. قل لي أين أنت. اذكر لي ما ليس على ما يُرام. إنني أختُك، وأنا هنا، من فضلِك لا تتركني هكذا. لا تتركني في الصمت..). لا شيء يمكن فعله. وليس هنالك أي جواب. لقد جرَّبت كلَّ شيء، فغيَّرت لهجتَها، وقالت: (لا يمكنك أن

تفعل بي هذا. فهو أمر رديء. وأنا لا أصدق أن الأمر لأجل رواية!). وأكثرت من الرسائل. ولكن (أنطوان) لم يفتح هاتفه الجوّال. وفتحه مرّة وحيدة وقرأ شكاوى أخته التي لا حصر لها. ولم يكن لديه للكتابة سوى بضع كلمات، على الأقل ليُطَمئنَها. ولماذا لم يتوصَّل إلى أن يُكلِّمَها؟ وبقي جامدا أمام الشاشة لأكثر من ساعة. هذا مستحيل. واجتاحه نوعٌ من الخجل. الخجل الذي يمنعك من التصرُّف.

وفي النهاية، نجح في الرد عليها بقوله: (إنني في حاجة لهذا الوقت من أجلي. وسأزوِّدك بالأخبار عما قريب، ولكن توقفي عن القلق. قبّلي لي (جوزيفين) Joséphine: أخوكِ أنطوان). ثم أغلق حالا جوّاله خوفا من أن تتصل به بعد قراءة الرسالة. وكمجرِمٍ يخشى أن يُكتَشَف، قرَّر أن يخرِج شريحة الـ(SIM)[10] ويضعها في دُرجٍ. فلا يستطيع أحد الوصول إليه. وقد أراحت قراءةُ هذه الرسالة (إيليونور). وفهِمت مباشرة أن كل شيء كان خطأ، وأن ذلك كان قد تطلَّب منه جهدا ضخما لإنشاء بضع الكلمات المهذَّبة هذه. ولم يكن هذا لِيُغيِّر من قلقِها شيئا. ومن الواضح أنه لم يكن بخير. وكانت قد فوجئت بأنه وقَّع بـ(أخوكِ أنطوان). فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يستعمل فيها هذه الصيغة، كما لو أنه كان يرغب في إعادة تحديد علاقتهما ليكون متأكدا منها. لقد كانت تجهل ما كانت عليه حياته، ولماذا كان يتصرف هكذا، ولكنها كانت تعلَم أنها لن تتخلَّى عنه. وبعيدا عن طمأنتِها، كانت هذه الرسالة تريحها بفكرة أنها يجب أن تعثر عليه بأسرع وقت ممكن. ولكنها تحتاج إلى الوقت والطاقة، وستتوصَّل إليه بطريقة غير منتظرة.

---

(10) حروف مختصرة للكلمات الإنجليزية التالية: Subscriber Identity Module أي (وحدة هوية المشترِك) في شركة خدمة الهواتف الجوالة، وهي تخزن الأرقام وسائر المعلومات المتعلقة بهذا المشترك. (**المترجم**).

(4)

عندما خرج (أنطوان) من سكنه صادف جارا له. وهو رجل غير واضح العمر، وضائع بين الأربعين والستين سنة. وقد حدَّق فيه هذا الأخير قبل أن يسأله: (أنت جديدٌ هنا؟ وحللت مكان (تيبو) Thibault؟). تلعثم (أنطوان) بـ: نعم. ثم أعلن أنه مستعجِلٌ جدا لمنع أي تمادٍ في الأسئلة. هل من الضروري أن نُسأل دائما مَنْ نكون، وماذا نعمل، ولماذا نعيش هنا لا في مكان آخر؟ ومنذ أن تملَّص، تبيَّن لـ(أنطوان) أن الحياة الاجتماعية لن تتوقف أبدا، وأنه كان مستحيلا تقريبا أن يمرَّ بين القَطَرات البشرية.

وعلى الأقل، لن يلاحظه أحد في عمله. فحارس المتحف لا وجود له. والناس يتجوَّلون أمامه وعيونهم مثبَّتةٌ على اللوحة القريبة. وهذه مهنة غريبة (رائعة) ليكون المرء وحيدا وسْط جمهور. أعلنت له (ماتيلد ماتِّل)، منذ نهاية مقابلتهما، بأنه سوف يبدأ العمل يوم الاثنين التالي. وعند عتبة مكتبها أضافت قولها: (إنني لا أفهم أسبابَك، ولكن على كل حال، يمكننا أن نقدِّر أن ذلك كان فرصة لنا لنراك في متحفنا). وكان صوتها حارا جدا. وبالنسبة لـ(أنطوان)، المنقطع عن الناس، كانت هي الشخص الوحيد الذي كانت له محادثة حقيقية معه منذ أكثر من أسبوع.

ولقد كان اسم هذه السيدة قد نال لديه دفعة واحدة أهمية لا حدَّ لها. وفي الأيام التالية، كان يفكِّر فيها عدة مرات، كما يركِّز المرء في الليل على نقطةٍ مضيئة. هل كانت متزوِّجة؟ هل لديها أطفال؟ كيف أصبحت مديرة للموارد البشرية في متحف (أورسيه)؟ هل تحبُّ أفلام (بازوليني) Pasolini[11]، وكُتُبَ

(11) بازوليني: (بيير باولو - Pier Paolo)، مخرج سينمائي وكاتب إيطالي من أفلامه (أوديب ملكا)، وتشمل أعماله الأدبية قصائد وقصصا ودراسات. (المترجم).

(غوغـول) Gogol[12]، ومُرتجـلات les impromptus (شـوبيرت) Schubert[13]؟ وبتركـه نفسَـه ينحـرف نحـو هـذه الرغبـة في المعرفـة، كان (أنطـوان) يتقبَّـل أنـه ليـس ميِّتـا. فحـب الاطِّـلاع يُحـدِّد عالَـمَ الأحيـاء وعالَـمَ الأمـوات.

كان (أنطـوان) جالسـا عـلى كرسـيِّه، ببِزَّتِـه المحتشـمة. فقـد عُـيِّن في واحـدة مـن الصـالات المخصَّصـة لمعـرِض (موديليـاني). وبالضبـط أمـام بورتريـه (جـان هيبوتِـرن) Jeanne Hébuterne. يـا لَلمصادفـة الغريبـة؛ إنـه يعـرف معرفـة جيـدة جـدا حيـاة هـذه المـرأة، ومصيرَهـا المأسَـاوِيّ. وكان الجمهـور غفـيرا جـدا في هـذا اليـوم الأول، فلـم يكـن يتوصّـل إلى مراقبـة اللوحـة بهـدوء. فـكان المـرء يندفـع لرؤيـة هـذا العـرض التاريخـي لفنـان. بِـمَ كان الفنـان يفكِّـر؟ كان (أنطـوان) دومـا مأخـوذا بالحيـوات الناجحـة بعـد فـوات الأوان. المجـد، والاعـتراف، والمـال، كل ذلـك يـأتي، ولكـن في وقـت متأخِّـرٍ جـدا. إنهـم يُكافئـون كومـة عظـام. ويبـدو هـذا أمـرا فاسـدا تقريبـا، هـذه الإثـارة بعـد الوفـاة، حينـما يعـرف المـرء أنـواع الآلام والإذلال لهـذا الفنـان. فهـل نرغـب في أن نعيـش أجمـل قصـة حـب بعـد الوفـاة؟ و(جـان).. أجـل، المسـكينة (جـان). هـل بإمكانهـا أن تتصـوَّر أن النـاس تتزاحـم لرؤيـة وجههـا الحبيـس إلى الأبـد ضمـنَ إطـار؟ وأخـيرا، رؤيتهـا ولمحهـا. لم يكـن (أنطـوان) ليفهـم حقيقـة الفائـدة مـن تأمُّـل اللوحـات في ظـروفٍ كهـذه. بالتأكيـد، تكـون هـذه فرصـة للوصـول إلى الجـمال، ولكـن أي معنـى لهـذه المراقبـة في وسـط جمهـور، وهـو مضغـوط ومتضايـق، وتُشـوِّش عليـه تعليقـاتُ المشـاهدين الآخريـن؟ وكان يحـاول أن يسـمع كلَّ مـا يُقـال. بعـض الأقـوال كانـت مضيئـة، وهنالـك رجـال

(12) غوغول: (نيكولاي - Nikolaï)، كاتب روسي (1809-1852)، من مؤلفاته (النفوس الميتة). (المترجم).

(13) شوبيرت: (فرانتز - Franz) مؤلّف موسيقي نمساوي (1797-1828)، ومرتجلاته معزوفات ثمانٍ على البيانو. (المترجم).

ونساء كانوا حقا مبلبلين بشأن اكتشاف لوحات (موديلياني) هذه، وكان آخرون نكبَة عليها. ومن وضعه الجالِس، راح يجول في مساحة علم الاجتماع البشري. فبعض الناس لم يكونوا يقولون: (زرتُ متحف أورسيه)، بل: (قمتُ بأورسيه)، وهذا فعلٌ ينمُّ على نوع من الضرورة الاجتماعية، وهو عمليا قائمةُ جولات. وهؤلاء السيّاح لم يكونوا يتردَّدون في استعمال التعبير نفسِه بشأن البلدان، فيقولون: (قمت باليابان في الصيف الأخير..). وهكذا، يقوم المرء بالأماكن الآن. وعندما يذهب المرء إلى (كراكوفيا) Cracovie[14] فإنه يقوم بـ(أوشفيتز) Auschwitz[15].

كانت أفكار (أنطوان) لاذعة بلا شك، ولكنه على الأقل كان يفكِّر، وهذا يخرجه من منطقة الخمول التي كان يعيش فيها منذ بعض الوقت. وبفضل هذا الجمهور المتواصل، كان يهرب من نفسِه. لقد توالت الساعات بسرعة جنونية، بخلاف الأيام الأخيرة التي كانت كل دقيقة فيها ترتدي ثوبا أبديا. لقد كان طالبا في الفنون الجميلة، ثم مدرِّسا، وقد أمضى حياتَه في المتاحف. وحتى هنا، في (أورسيه)، إنه يتذكَّر أنه بعد الظهر دائما ما كان يجوبُ الصالات. ولم يكن يتخيَّلُ قَطُّ أن يعود بعد سنوات إليها بصفة حارس. وقد زوَّده ذلك برؤية أخرى تماما عن وظيفة المتحف. وإن شُرُودَه الحالي كان يُتيح له بالتأكيد أن يُثرِي فَهمَه لعالَم الفن. ولكن هل كان ذلك مهِمًّا؟ وهل سيعود يوما ما إلى (ليون) ويستأنِف حياتَه؟ ما من شيء مؤكَّد على الأقل.

وبينما كان ينحرِف نحو شكوك وجودية، اقترب منه زميله (ألان) Alain، كان يحرس الجهة الأخرى من الصالة. وكان يوجِّه إليه في هذا

(14) كراكوفيا: مدينة في جنوب (بولونيا).

(15) أوشفيتز: مكان في (بولونيا) كان أكبر معسكر للتطهير العرقي النازي لليهود، يُقال إن نحو مليون يهودي أبيدوا فيه بين سنتي 1940و1945. (المترجم).

اليـوم، عـدة مـراتٍ، إشـاراتٍ وديـة صغـيرة. وكان (أنطـوان) يـرد عليهـا بابتسـامة خفيفـة. كان يقِـف عـلى رجليـه بـين العابريـن مـن ذات العمـل.

بدأ القول وهو يتأفَّف:

- يا لَه من يوم، أليس كذلك؟ هذا جنون..

- نعم.

- إنني سعيد لاستراحتي.

- ...

- بحـقٍّ، أنـا أقـول لـك مـا أفكِّـر فيـه. لقـد وصلـتُ هـذا الصبـاح، فقلتُ لنفـسي: لـن يكـون هنالـك أنـاسٌ كـثُرٌ للمجـيء لرؤيـة هـذا المعـرِض. إننـي لم أكـن أعـرف (موديليـاني). وبصراحـة، تحيـة للرجل.

- ...

- أترغـب بالذهـاب لـشرب البـيرة، بعـد العمـل؟ ولنغسـل رأسـينا، فهـذا سينعشـنا.

- ...

كان هـذا نموذجـا أوليـا للـمأزِق الاجتماعـي. إن قال لا فسـيعتبره البعض شـخصا غـير مرغـوب. ولسـوف يرمقونـه، ويتكلَّمـون ويحكمون عليـه. وكان هـو يرغـب في أن يتجنَّـب بـأي ثَمَـنٍ إحـداث أمـواجٍ. والتناقـض الظاهـري لا يُحتَمَـل، وحتـى لا يجلِـب المـرءُ لنفسِـه النسـيان فـإنَّ مـن الأفضـل أن يختلـط بالآخريـن. وسـيكون المخـرَجُ الوحيـد هـو الاختـلاقَ المبـاشِر لعُـذرٍ: كموعِـدٍ مُهـمٍّ أو أسرةٍ يسـتقبِلها في بيتـه.

ولكـن هـذا يتطلَّـب تفاعليـة مؤكَّـدَة، وفنـا غريزيـا للتهـرُّب. وهـذا مـا لم يُوهَـب لـ(أنطـوان). كلـما تأخـر بالإجابـة، صعـب عليـه التهـرب. وبينـما كان لا يحلـم إلا بالعـودة إلى البيـت، انتهـى بـه الأمـر إلى القـول: (فِكـرةٌ جيـدة جـدا).

وبعـد سـاعتين، كان الرجـلان عـلى طاولـة شُرب في أحـد (البـارات). كان

(أنطوان) يشرب بيرة مع شخص مجهول تماما. لم يكن شيء يبدو له طبيعيا. حتى إن طعم البيرة نفسَه في حلقه كان غريبا[16]. كان الرجل يتكلَّم بلا توقُّف، وكان هذا هو الجانبَ الطيِّبَ في الحالة الراهنة. لم يأخذ (أنطوان) على عاتقِه أدنَى موضوع في الحديث. وكان يتأمَّل وجهَ مخاطِبِه، وكان ذلك يمنعه من الاندماج في كلامه. فبعض الأشخاص يصعب عليهم النظر والإصغاء في الوقت نفسِه، ويدخل (أنطوان) ضمن هذا الصنف. كان (ألان) ضخما جدا وكأنما اقتُلِع من كتلة صخرية. وعلى الرغم من جانبه الفظ، فإن مظهره لم يكن غليظا، ويمكن القول أيضا إنه كان مُرهَفا. وكان المرء يشعر أنه إنسانٌ يسعى إلى أن يكون مهذَّبا، ولكنه كان يفتقِر إلى ما يُسمِّيه الناس عادة الجاذبية. ومن غير أن يكون سَمِجا، كان وجهُه يُشبِه رواية لا يرغب المرء في أن يُقلِّب صفحاتِها.

وقد قال بعد مُدَّة:

- هيئتُك مختلفةٌ عن الآخرين.

ردَّ (أنطوان)، وهو قلقٌ قلقا خفيفا من فكرة أن يستطيع أن يميِّزه من الناس:

- آه حسنا.

- لك هيئة غائب. فأنت هنا من غير أن تكون هنا.

- ...

- لقد نظرتُ إليك عدة مراتٍ هذا اليوم، ورأيت أنك دوما تحتاج إلى وقت كي تتفاعل مع إشاراتي الصغيرة.

- آه..

- يبدو أنك حالِمٌ جدا، هذا كلُّ شيء. لاحِظْ، ليس هنالك معايير لممارسة هذه المهنة. وهذا ما هو حسنٌ فيها. وهنالك خليط من الكل: طلاب فنون، فنانون، وكذلك موظَّفون لا يعبؤون بفن الرسم.

(16) يقال كأي شراب آخر يُخفَّف لِيُعَدَّ بيرة، وهذا نوع من السائل المغشوش.

وهـؤلاء موظَّفـو كـرسي. وأنـا جـزء منهـم تقريبـا. فقـد كنـت أولا حارِسـا ليليـا في مِـرآبٍ. وكنـت أرى السـيارات تمـرّ، ولم أصنـع لهـا شـيئا. وحسَـنَةُ اللوحـات أنهـا لا تتحـرّك.

- ...

في هـذه اللحظـة أطلـق ألان العنـان لمونولـوج طويـل. وهـو نـوع مـن الحديـث الـذي ربمـا لا يـزال مسـتمرا الآن. ويشـعر المـرء بأنـه كان راغِبـا في أن يعـوِّض عـن نهـار مـضى وهـو جالـس فيـه بصمـت. وشرَع في ذكـر امرأتِـه (أوديـت) Odette أو (هنرييـت) Henriette، ولم ينجـح (أنطـوان) في التقـاط الاسـم مـن دَرْجِ الـكلام. منـذ أن عمِـل في (أورسـيه)، كان (ألان) يشـعر تمامـا بأنهـا أكـثر إعجابـا. وهـذا مـا جعلـه سـعيدا. وأضـاف قائـلا: (وفي النهايـة، يسـعى المـرء بـلا انقطـاع إلى الاهتـمام بمـن يُحِـبّ..). ولكـن صوتـه اصطبـغ فجـأة بـشيء مـن الكآبـة. هنالـك شِـعْرٌ ربمـا كان يختفـي في فجـوات هـذه الهيئـة الفظـة. وفي هـذه اللحظـة تـاه (أنطـوان) تمامـا، وفجـأة اسـتولى عليـه شـعورٌ هذَيـانيّ. لمـاذا راقبـه هـذا الرجـل في هـذا اليـوم عـدة مـرات؟ مـاذا يريـد منـه؟ وربمـا لم يـأتِ لـيراه بالمصادفـة. إن لديـه فكـرة وراء رأسِـه. وكان (أنطـوان) يشـك في أن أحـدا يبحـث عنـه للعثـور عليـه. لا، لا، هـذه فرضيـة عبثيـة. فقـد كان (ألان) يعمـل في المتحـف قبلـه. ولم يكـن هـذا معقـولا. ولكـن مـع ذلـك، كان يُلِـحّ كي يذهبـا لـشُرب كأسٍ. كان (أنطـوان) يشـعر بأنـه قـد فقـد توازنـه. وبـدأ يشـك بـكل لحظـة حقيقيـة، حتـى الأكـثر تفاهـة.

كان يرغـب الآن في الانطـلاق، وقطـع الوقـت بفظاظـة. ولكـن هـذا كان مسـتحيلا، فدومـا كانـت عبثيـةُ الواجـب تَظهَـر اجتماعيـة كِفايـة لئـلا يلاحظهـا. فبينـما يجتاحـه خـوفٌ لا يمكـن السـيطرة عليـه، كان يحـاول أن يبتسِـم هنـا أو هنـاك، وكان ذلـك يحـدث في أوقـاتٍ لا تنسـجِم مطلقـا مـع كلام (ألان). وفي آخـر الوقـت، انتهـى الأمـرُ إلى أن كاشـفه قائـلا:

- اعذرني. إنني أزعجك بأموري. وإنني أرى جيدا أنك لا تستمع.
- آه لا.. أنت لا تزعجني مطلقا.
- إن أردت، يمكنني أن أروي لك أشياء أغرب.
- ...
- هل تعلم ماذا سُئل زميلٌ لنا في (اللوفر) Louvre[17] يوما؟
- لا.
- أين الـ(جوكوندا) La Joconda[18] لـ(ليوناردو دي كابريو) Leonardo DiCaprio[19]؟
- ...
- (جوكونـدا).. دي كابريـو! هنالـك ظواهـر مقدَّسـة. هـذا أمـرٌ مضحك، أليـس كذلك؟

وافقَه (أنطوان) بصوتٍ حزين قائلا:

- بلى..

وافترقـا بعـد قليـل. كان (أنطـوان) فزعـا، وهـو عائـد إلى بيتِـه، مـن فكـرة أن يصبـح هـذا الخـروج البسـيط بدايـة شَرَكٍ. كان قـد قَبِـل بذلـك رغبـة في حُسْـنِ التـصرُّف، ولكنـه لـن يتوقَّـف أبـدا. ومـن الواضـح أن (ألان) كان مـن النـوع الـذي يُعِـدّ العَشـاءات في بيتِـه لـكي يُقَـدِّم زوجتَـه. وحتـما سـيجيء وقـتٌ تُطـرح فيـه عليـه بعـض الأسـئلة، بـل كثـيرٌ مـن الأسـئلة. وسـيغرق في مـأزق رهيـب. وقـد تعـيَّن عليـه فـورا اختـلاقُ شيءٍ مـا، ربمـا يكـون مرضـا خطـيرا أو والـدا عـلى وشـك المـوت، وكان ضروريـا، عـلى أي

---

(17) اللوفر: كان مقرا ملكيا قديما، في باريس، ثم أصبح متحفا وطنيا شهيرا. (المترجم).

(18) الجوكوندا: هي اللوحة الشهيرة جدا عالميا (الموناليزا) للعبقري الإيطالي (ليوناردو دا فنتشي) (1452-1519) Leonardo da Vinci. (المترجم).

(19) ليوناردو دي كابريو: ممثّل ومنتج أفلام أمريكي، ولد سنة 1974، وكان بطل فيلم الـ(تايتانيك) Titanic، وهو اسم السفينة الفخمة التي غرقت بركابها سنة 1912 في شمالي المحيط الأطلسي باصطدامها برأس جبل جليدي عائم منفصل عن القطب الشمالي المتجمد، وأحدث إنتاجه ضجة واسعة في العالم. (المترجم).

حال، التفكيرُ في أعذار أعلى. ولا يمكن أن يرتجل المرء تجنُّبَ الآخرين هكذا.

(5) و(6)

في صبيحة الغد، وصل (أنطوان) مبكِّرا قليلا. وانتظر أمام بوابات الأمن حتى وصول الحرَس. إن ذهاب المرء إلى المتحف يشبه الدخول إلى طائرة. فهو يضع مفاتيحَه في علبة بلاستيكية صغيرة، ويمر من تحت باب معدني ومن غير أن يُحدِث رنينا. كان (أنطوان) يشعر بالارتياح، ولكن الحارس سأله:

- وهاتفُك الجوّال؟ أين هو؟

- ليس لديّ جوّال.

حدَّق الرجل في (أنطوان) تحديقةَ شكٍّ. كيف يمكن ألا يكون مع المرء جوّال؟.. حقا إن حرّاس الصالة غريبون، لقد كانوا يعيشون في الماضي من غير أن يتبيَّنوا أن العالَم كانَ يتطوَّر. وقد روى فورا هذا الخبر لزميله الذي علق بقوله: (هذا لا يُدهِشُني. فلهذا الدليل المتحفي رأسُ شخصٍ لا يرغب فيه أحد!). وضحِكا استهزاء من هذا الرد، ومن فكرة الرغبة في أن يكونوا منهم.

قال (أنطوان) لنفسِه: يجب من الآن أن يأخذ جوَّاله معه، حتى لو كان غيرَ مُفعَّلٍ. وهذا أفضل كي يمر من غير لفت الانتباه. وكان قد تقدَّم في فنِّ التخفِّي. وعندما وصل إلى صالتِه، وجد نفسَه وحيدا. وهذا وقت للراحة قبل الاجتياح. اقترب من بورتريه (جانّ هيبوتِرن). أيُّ امتيازٍ أن يكون المرء وجها لوجهٍ مع رائعة من فن الرسم. همَس ببعض الكلمات وهو مضطرِبٌ. لم يسمع (ماتيلد ماتِّل) تتقدَّم. فبقيت لحظة تراقب هذا الموظَّف المذهول أمام إطار، إنها عدوى عدم الحركة. وانتهى بها الأمر إلى أن سألته بهدوء:

- أنتَ تُكلِّم اللوحة؟

ردّ متلعثما وهو يستدير:

- لا.. مطلقا.

قالت وهي تبتسم:

- أنـت تفعـل مـا تريـد في حياتِـك الخاصـة. يـتراءى لي أن هـذا لا يعنينـي.

- ...

- كنت أريد أن أعرف كيف انقضى يومُك الأوَّل.

- جيد جدا، كما أعتقد.

- سـيكون هـذا الأسـبوع مزدحِـما، ومـن ثـم سـيحلّ الهـدوء قليـلا. لقـد سُـجِّل للارتيـاد أمـسِ رقـم قيـاسيّ. لقـد جلبـتَ لنـا الحـظّ.

- ...

- ليس من السهل التكلُّمُ معك. فأنت تترك فراغاتٍ دوما.

- عفوا. لم أكن أدري بِـمَ أجيب.

- طيِّب، أتمنَّى لك نهارا سعيدا.

ردّ (أنطوان) قائلا:

- شكراً، ولك أيضا..

غـير أنهـا لم تكـن هنـاك لتسـمعه. فقـد كانـت تمـشي بسرعـة كبـيرة، أو أنـه هـو الـذي أضـاع الوقـت كي يـردّ.

لم تكـن هـذه المـرأة مخطئـة. فقـد كان يجـب عليـه أن يكـون أكـثر تفاعـلا بقليـل. لقـد كانـت لطيفـة، وجـاءت لتطَّلِـع عـلى أخبـاره، ولكنـه بقـي هنـا معلَّقـا في الفـراغ. وكان يبـدو لـه مسـتحيلا أن ينطلـق أسرع مـن ذلـك. فقـد كان يعيـش مـا يمكـن أن يُسَـمَّى (إعـادةَ تربيـةٍ اجتماعيـةٍ). فالأمـر ليـس رُكبَـة مختلَّـة ولا سـاقا مكسـورة يشوِّشـانه، ولكنـه مثـلُ كسـرٍ للـردّ السريـع. فعندمـا كان يكلِّمـه أحدهـم، كان يعجـز عـن الجـواب. فالكلـمات تأخـذ منـه وقتـا لتتكـوَّن في عقلـه، وهـي مـتردِّدةٌ وغـير موفَّقـة،

حائرةٌ وهزيلة، ويصل ذلك إلى جُمَلٍ لا يُطاق سَماعُها تقريبا أو يصل بصراحة إلى فراغات. وهو الذي كان يتكلَّم من قبلُ طَوالَ ساعاتٍ أمام طُلّابِه يجتاز نقاهة من الكلام. وهو الذي كان ينطلِق واقفا أمام جمهور يتشرّب حكاياته، يشعر الحاضر أن كل كلمة ينطق بها مصيبة لا يمكن التغلُّب عليها. فهل سيكون بإمكانه يوما ما أن يفسِّر للمقرَّبين إليه ما كان يعاني منه؟ ولم تكن عنده أيُّ فكرةٍ عن مدَّة خُمُودِه. فهي دوما زمنٌ ذاتي، لا يخضع للرغبة ولا للإرادة. فالجسَدُ كان يسيطر وحده على مملكتِه، مملكة العواطف ومُدَّة الأحزان.

وانقضى النهار بإيقاع مطابق لنهار أمس. وكان دورُه يقوم على مراقبة الزوَّار لئلا يقتربوا كثيرا من اللوحات الزيتية. وقد تلقَّى هذا الدرس من طالبٍ ثانوي كان قد صب شراب الـ(كوكا) Coca على إحدى الروائع في متحف في الولايات المتحدة، وقد كلَّف ذلك شركة التأمين ملايينَ من الدولارات.

ويجب استباق ذلك بأن يكون المرء يَقِظا. ولم يكن أغلبُ السيّاح يتوجَّهون إليه إلا ليسألوه عن (التواليتات)، وأحيانا كان يشير، عشرات المرات، إلى مكانها حتى من غير انتظار أن يُطرَح عليه السؤال، ويقول: (التواليتات تقع في المدخل الرئيسي). وهي جملة كان ينطقها غالبا بالإنجليزية، وعما قليل سيتعلمها بعدة لغاتٍ ليكون موظَّفا جيِّدا، على النحو التالي:

بالإنجليزية:

Toilets are located at the main entrance

وبالألمانية:

Die Toiletten sind am Haupteingang

وبالإسبانية:

Los baños se encuentran en la entrada principal

وبالصينية:

厕所位于正门

وباليابانية:

トイレは正面玄関にあります

وبالروسية:

дахов огоНвалг у ыНежолопсар ытелауТ

وبالإيطالية:

Il bagno si trova presso l'ingresso pricipale

وبالعربية:

يوجد مِرحاضٌ بالقرب من المدخل الرئيسي

كان هـذا هـو الاهتـمام الرئيـسي لـ(أنطـوان): أن يقـوم بعملـه عـلى خـير وجـه. وكل مـن يكـون مكتئبـا اكتئابـا يسـيرا جـدا يعـرف هـذه الحالـة التـي يتركَّـز فيهـا العقـل بطريقـة مفرِطـة عـلى مهمَّـةٍ ملموسـة. يمكـن تضميـد جـرحٍ نفـسي بتكـرار حركـة ميكانيكيـة، كـما لـو كان الفعـل البسـيط للانفعـال، المسـتوعَب بطريقـة سـاخرة، كان يتيـح إعـادة دمـج النـاس النافعـين. كان (أنطـوان) قـد قـرَّر أن ينقـل كرسـيَّه قليـلا، مـن غـير أن يطلـب الإذن بذلـك، ليراقـب عـلى راحتـه وجـه (جـان هيبوتِـرن)، عـلى الرغـم مـن وجـود الجمهـور، وهكـذا تمكَّـن مـن تأمُّلهـا عـدَّة سـاعاتٍ كلَّ يـوم.

وكان يحـب أن يُكلِّمهـا ويتخيَّـل أن علاقـة قـد نُسِـجَت بينهـما. وفي الليـل، كانـت تـزوره أحيانـا في أحلامـه، لتحـدِّق بدورهـا في وجهـه.

كان هـذا الأمـر يشـكِّل، بطريقـة مـا، حـوارَ نظـرات. كان (أنطـوان) يتسـاءل إذا مـا كان أمـرا محزنـا أن تُحبَـس هكـذا في إطـار. وبعـد كل ذلـك يؤمـن بعضهـم بالتناسـخ أو التقمُّـص، فهـل سـيكون غـيرَ مناسـبٍ أن تكـون لوحـةٌ قـادرة عـلى أن تحمـل فيهـا ذبذبـات مـن الشـخص المرسـوم؟ وهـذا الأمـر كان حتـما جـزءا مـن (جـان) التـي كانـت هنـاك.

صورة (جان هيبوتِرن) الحقيقية زوجة موديلياني الفرنسية

لقـد تحـدَّث المؤرِّخـون كثـيرا عـن جمالهـا، عـن هـذا الوجـه الـذي بلبل (موديليـاني). هـو الـذي كان معتـادا عـلى تصويـر فتيـاتٍ جميـلات، وغالبـا عاريـات، تـم اختراقـه مـن قبـل هـذه اللطافـة التـي لا مثيـل لهـا. لقـد كانـت ملهمـة فنِّـه، وامـرأة حياتـه، تلـك المـرأة التـي لم يرسـمها عاريـة قـطّ. كان لـ(جـان) هيئـة نجمـة أثيريـة، وفُتُـورٌ محسـوس في النظـرة، ووجه ذو كآبـة لا حـد لهـا. وسـتخطف (أنطـوانَ) قـوَّةُ هـذه اللوحـة أكـثر فأكـثر، وبمـرور الأيـام. لقـد جعلتـه (جـان) يحلِّـق سـاعاتٍ. وكان يتابـع الـكلام معهـا أحيانـا، وكأنهـا موضـع ثقتِـه. فجلـب هـذا الأمـر لـه الخـير. فـكلٌّ

يبحث عن طريقه الخاص إلى السلوى. هل يمكن للمرء أن يعالج نفسَه بالبوح إلى لوحة؟ إن المرء ليتحدَّث كثيرا عن فن العِلاج، وعن الإبداع من أجل التعبير عن انحراف المزاج، ومن أجل أن يُفهَم عِبرَ حُدُوسِ الإلهام. غير أن هذا كان مختلِفا. فتأمُّل الجمال، عند (أنطوان)، تغطيةٌ للقُبح. (ولطالما كان الأمر كذلك). ولذا كان عندما يشعر بسوء كان يذهب للتنزُّه في متحف. تبقى الروعة السلاح الأفضل ضد الهشاشة.

إحدى لوحات موديلياني من مجموعة (جان هيبوتِرن)

وبعد بضعة أيام، وقع حدَثٌ غيَّر قليلا مجرَى الأشياء. فقد جاء دليلٌ متحفي طويلٌ ونحيف يُدعى، بحسب شارتِه، (فابيان) Fabien، وأخذ يروي سيرة (موديلياني). لم تكن هذه هي المرة الأولى التي كان (أنطوان) يرى فيها هذا الفتى الذي لا يملك صلابة كبيرة، ولكن يبدو أنه كان يقوم بعمله بوعي مِهنيٍّ حقيقي. كان يصحب عموما مجاميع من نحو عشرة أشخاص، وكانت تتكون في أغلب الأوقات من

نساء مُسِنّات، عُضواتٍ في (أصدقاء المتاحف). وربما كانت اشتراكاتهنّ تعطيهن الحق في اصطحاب دليل، وقد كُنَّ يَظهَرنَ سعيداتٍ بوجود (فابيان) هذا الذي كان يملك، لدى هؤلاء المستمعات المستولى عليهنَّ مُسَبَّقا، هالة لكونه شابا.

كان (أنطوان) يعرف نَضارة (فابيان)، لقد كان نموذجا لطالبٍ، في الفنون الجميلة، يجني قليلا من المال لمصروف الجيب بالعمل دليلا. الحق يُقال إن (أنطوان) كان قد أخطأ، فـ(فابيان) كان في الثلاثين من العمر ولديه خبرةُ دليل متحفي. وهذه المهنة لم تكن عنده عملا إلى جانب حياته الدراسية. إن إحساس (أنطوان) بالرجال والنساء الذين يقابلهم أصبح غيرَ دقيق أكثرَ فأكثر. كان من الأفضل استجماع أفكاره بشأن الوقائع؛ كان الدليلُ المتحفي يستعرِض عناصر سيرة حياة المصوِّر. فقد أطال الكلام بشأن طفولته المضطرِبة بسبب المرَض، ولكنه أنهى الحديث عن علاقاتِه المعقدة مع (بيكاسُّو) Picasso[20] ببضع جُمَل. وكانت صلته بالنساء حتى الآن مفصَّلة أكثر قليلا. وكأنما كان (فابيان) يشعر بالسرور وهو يتخيَّل نفسَه أيضا يصوِّر فتياتٍ شاباتٍ عاريات. وأخيرا روى لهن احتضار الفنّان. وفي هذه الساعة الصباحية أيضا، كان المتحف يستقبل قليلا من الزائرين. لم يكن أنطوان يستطيع الحفاظ على اليقظة المحكمة بشأن منطقته كلها، وقد سمعه حينئذٍ يقول:

- وقد حقنوه إبرة لتسكين الوجع، ولكنه مات بعد بضع ساعات.

فكان ذلك صدمة للوسط الفني كله. وقد حضر جنازته أكثر من ألف شخص.

قالت امرأة عجوز بصوت حالِمٍ تقريبا:

---

(20) بيكاسُّو: بابلو1881) ((Pablo-1973) رسّام مصوِّر ونحّات graveur ومَثّال إسباني، كان تأثيره في الفن الحديث تأثيرا رئيسيا عن طريق التوالي المذهل للأساليب المختلفة جدا والمبتكرة. كان أحد مبدعي (التكعيبية) le cubisme. من لوحاته الشهيرة (آنسات آفينيون) Les Demoiselles d'Avignon و(غيرنيكا) .Geurnica (المترجم).

- آ.. نعم، كذلك.

- ثـمَّ إن كلّ النـاس كانـوا يتحدَّثـون عـن مأسـاتِه بالتأكيـد. وقـد انتحـرت (جـانّ هيبوتِـرن) فـور عِلْمهـا بمـوت زوجهـا، وذلـك بإلقـاء نفسـها مـن الـدور الخامـس، وكانـت حاملا آنـذاك بطفلِهـما الثـاني..

فقال عددٌ منهنّ بصوت واحِدٍ مُشفِقٍ:

- أوه، هذا فظيع..

توجَّـه (أنطـوان) نحـو المجموعـة، وبقـي لحظـة بـلا حَـرَاك. فحدَّقـوا بـه. وانتهـى بـه الأمـر إلى التدخُّـل قائـلا:

- المعـذرة عـلى تعطيلكـم.. ولكـن الحـقّ يُقـال، إن (جـانّ) لم تنتحـر فـور عِلْمهـا بمـوت (موديليـاني)، وإنمـا قتلـت نفسـها في اليـوم التـالي. وقـد كان هنالـك وقـت لعمـل شيء مـا رائـعٍ أولا.

فسألت إحدى النساء:

- آ.. حسنا.. ماذا فعلت؟

- اختلت بجثمانه، ثم قصَّت خصلة من شعرها، ووضعتها عليه..

فقالت سيِّدة منبهرة من ذلك وهي تفكِّر في هذا التصرُّف الأخير:

- هذا أمرٌ جميل جدا بالفعل.

كان (فابيـان) يبـدو، وهـو يتراجـع قليـلا، مصدومـا بعمـقٍ مـن التطفُّـل المفاجـئ لحـارسِ صالـةٍ عـلى مملكتِـه. وفي الوقـت الـذي كان عـددٌ مـن أعضـاء مجموعتـه يجـدون مجـيء حـارسٍ هكـذا ليشـاركه في معارفـه أمـرا ظريفـا تمامـا، عـاش (فابيـان) الحـدَث وكأنـه توريـطٌ لـه في عملـه. وقـد شـكر (أنطـوانَ) لإسـهامِه وهـو يرشـقه بنظـرةٍ غاضبـة، وتابـع زيارتـه نحـو الصالـة التاليـة.

عـاد (أنطـوان) إلى كرسـيِّه، ونـسي بسرعـة الحادثة. فقـد تحـرَّك باندفاعٍ، بهـذه الطاقـة التـي تدفعنـا إلى العمـل بخـلاف مـا نكـون عليـه. فهـو، الـذي أصبـح نفـورا مـن المجتمـع، عـبَّر عـن نفسِـه أمـام هـذه المجموعـة

بيسر. ولكن ذلك كان استطرادا قصيرا. فقد تمالك طبيعته التعِسة، ثم انقضى النهار كجميع النهارات الأخرى. ومن الجانب الآخر للصالة، أرسل إليه (ألان) نظراتٍ غريبة. فهل كان يستنكر تصرُّفَه؟ لقد كانت الحقيقةُ غيرَ ذلك تماما، فـ(أوديت) أو (هنرييت)، زوجتُه، كانت قد قرَّرت هَجرَه. وقد أعلنت له ذلك ببرود قبل يومين تقريبا، وبالضبط قبل الخلود إلى النوم، قائلة: (ألان، يجب أن أكلِّمَك)، ولم يكن القول، بين زوجين إن عليهما أن يتكلَّما، علامة جيِّدة قط. غير أنه لم يلمَح الخطر مباشرة، فقد كان يعرِف ميل زوجته إلى تحليل هذا الأمر أو ذاك، وقد كانت أميرة حقيقية للاستجواب، وكانت تعلم تماما أنه، في هذه اللحظات، يفضِّل التخلِّي عن أي نشاط وعن الاستماع. ومع ذلك، كانت نظرته مختلفة هذه المرة. ولما قرأ في عينيها قنبلة عاطفية مختبئة في عمق قزحيتيهما، كان ينتظر الأسوأ حتى قبل أن تنطق الكلمة الأولى. وانتهى بها المطاف إلى أن تعترف بالعلاقة التي كانت تربطها مع أحد زملائه القدامى، ويدعى (بِرتران دوفاسُّور) Bertrand Devasseur، المدير المشارك لموقف السيارات. وبيَّنت له أنها ستذهب للعيش معه في (ديجون) Dijon، حيث اقتُرِحت عليها ترقيةٌ مهمَّة. ولم يكن (ألان) يملك القدرة حتى على الرد عليها وانهار بصمت. ولن يتكلَّم لأحدٍ عن العالَم المُخرَّب الذي كان يحمله في داخله بعد الآن.

(8)

في المساء نفسِه، استُدعِيَ (أنطوان) إلى مكتب (ماتيلد ماتِّل)؛ فهل ارتكب خطأ ما؟ هل نَقَل أحدُهم من (الفنون الجميلة) في (ليون) معلومة ما؟ كان يشعر، وهو يتابع الممر الذي لا نهاية له، بقطرات العرق تترقرق على صُدغيه. والحقُّ يُقال، مع ذلك، إنه لم يكن يتعرَّق. وإنما كان ذلك ببساطةٍ شعورا يبدو حقيقيا بما لا يُصدَّق.

وصل أخيرا أمام المكتب، وطرق الباب بهدوء. فأمرته بالدخول.

كان صوتها أبرد بوضوح من المعتاد. قالت له:

- اجلس.

- ...

- حسنا، لن أطيل عليك. إن (فراسِّيو) Frassieux يشكوك.

- مَنْ هذا؟

- إنه أحد أدلّائنا: (فابيان فراسِّيو)، وهو الذي يهتمّ بجمعية (أصدقاء متحفِ أورسيه)، وقد قال لي إنك قاطعتَه أثناء عملِه، وقد عَدَّ ذلك إهانة له أمام مجموعتِه.

- ...

- فهل هذا صحيح؟

- ولكن.. على الإطلاق..

- هل تدخَّلتَ: نعم أو لا؟

- نعم. بسرعة خاطفة. لتوضيح نقطة تاريخية.

- كان بإمكانك أن تقول له ذلك على انفراد، لا أمام الناس كلهم.

- لم أكن أفكِّر أن ذلك سيكون أمرا سيِّئا.

كرَّرت (ماتيلد) رافعة صوتَها:

- أنت لم تفكِّر في أن ذلك سيكون أمرا سيِّئا! ولكنك لا تُصَدَّق! تخيَّل للحظةٍ أنك كنت بصدد إلقاء محاضرة في مدرَّجٍ أو قاعة صفّ، وأن أحدهم دخل، وقاطعَكَ ليشرح للطلاب عنصرا يمكن أن تكون نَسِيتَه.. فهل يُرضيكَ ذلك؟

ردّ (أنطوان):

- لا.. هذا صحيح.

- هذا هو الأمر. لقد استاء (فابيان) جدا من ذلك. وهكذا أصبح الوضعُ معقَّدا. فهو لا يرغب في رؤيتِك. مجموعاتنا كلها تقدره جدا. وهذا عنصرٌ جوهريّ. وقد تكلَّم بشأنه إلى الإدارة، وكل الناس يُؤيِّدونه

بالتأكيد. وأنا منزعجة جدا.. لأنني أنا مَن اختارَك..

- ...

- إنها غلطتي. لم يكن عليَّ أن أستخدم قطُّ واحِدا كان قد عمِل أطروحة عن (موديلياني).

- أنا آسِفٌ.. ولسوف أعتذر.

- في الحقيقة، هذا إجباري. وسنرى إن كان ذلك يكفي لتهدِئته، ولا أضمن لك شيئا.

- ...

أضافت (ماتيلد)، أمام وجه (أنطوان) المغتمّ، وهي أقل تشَدُّدا، قولها: (أنتَ.. أنت حقا فريد من نوعك). لم يرعَوِ (أنطوان) عن أن يكون أخرَق جدا. معها حقٌّ: لم يكن ليُحِبّ مطلقا أن يتعرَّض لمثل هذه الإهانة. لقد تفهَّم تماما ردَّة فِعل الدليل. ولكن ماذا سيفعل إن لم يتمكَّن من البقاء في المتحف؟ هل يجد مكانا آخر؟ ولكن ستكون القصة نفسها. سيُسأل لماذا كان قد ترك (الفنون الجميلة) في (ليون). ولم يكن يرغب في أن يُسوِّغ ذلك. في النهاية لقد أخطأ باللجوء إلى وسَطٍ قريبٍ جدا من وسَطِه. لقد كان عليه أن يعمل كصبيٍّ في مقهى، أو حارِسا ليليا في فندُقٍ. ثم ترك نفسه للذهاب إلى مونولوج داخليّ. كانت (ماتيلد) تراقبه بصمت. كم من الوقت سيبقى هكذا من غير أن يقول شيئا؟ فمنذ أن عمِلتْ في (أورسيه) قابلت نماذِج محترَمة، ولكنها لم تكن تملك مع (أنطوان) أي علامة. إن كل تصرُّفاتِه كانت تنمُّ على أنه لا نظيرَ لها.

كانت (ماتيلد)، في قرارة نفسها، تسخر من الوضع. فحارسُ صالة يتدخَّل أثناء جولةٍ برفقة دليل، هذا أمر مثيرٌ للضحك. وعلى أي حال، كان ذلك عملا أخرَقَ لا يستحقّ الفَصْلَ. وستتوسَّط هي لدى (فابيان) ليشجِّع الحارسَ ذا الاندفاعات المعرفية الواسعة. هل

هـذا فقـط هـو ردٌّ فعـل (إدارة المـوارد البشريـة) عـلى نـزاع مِهَنِـيٍّ؟ ربما لا. فهـي لا تريـد لـه أن يرحـل. كانـت تُقـدِّر تميُّـزَه، وكانـت تعشـق أن تـراه يتكلَّـم إلى اللوحـات صباحـا. وكانـت، منـذ لقائهـما الأول، مضطربـة. وكانـت منـذ زمـن طويـل جـدا لم تعـد تملـك إحساسـا لأحـد مـا. هنالـك رجـالٌ أنيقـون وأذكيـاء كانـوا قـد تركوهـا غـير مباليـة بهـم. فاعتقـدت أن ميلهـا إلى الآخريـن قـد انكسَر. وكان هنالـك شيء مـا يزعزعهـا.

وقـد حكمـت عليـه بأنـه أمـر غـير متوقَّـع، ولكـن ليـس بطريقـة عنيفة أو قاسـية. ومـا كان غـير متوقـع كان لطيفـا. ولم تكـن هـي تعلـم، معـه، مـا كان سـيجري. ولم يكـن ذلـك سـوى البدايـة.

لقـد غـادرا المكتـب معـا. وقـد بـدا لـ(أنطـوان) الممـر الموصـل إلى المصعـد أقـصر منـه عنـد المجـيء.

كان المتحـف قـد أغلِـق للتـو. وفيـما عـدا الحـراس الليليـين لم يُصادِفـا أحـدا. وبـدلا مـن الذهـاب إلى المخـرَج، قـادت (ماتيلـد) (أنطـوانَ) نحـو صالـة. وكانـت تريـد أن تريَـه شـيئا مـا. وقـد مـرا أمـام كُـوَّة زجاجيـة كبـيرة. وكان بإمـكان المـرء ليـلا أن يـرَى نهـر (السـين) la Seine، والمراكـب الصغـيرة les Bateaux-Mouches فيـه، ويـرَى أبعـد مـن ذلـك بقليـل الـدولاب الكبـير المضـاء، وسـاحة الـ(كونكـورد) la Concorde.

وكانـت هـذه نقطـةَ رصـدٍ للمدينـة السـاحرة سـحرا مطلقـا. وكان انطبـاع (أنطـوان) بـأن هـذه هـي المـرة الأولى التـي ينظـر فيهـا حقـا إلى (باريـس) منـذ أن عـاد ليعيـش فيهـا.

وفي صالـة غارقـة في شـبه عتمـة، وقفـت (ماتيلـد) أمـام صـورة لفتـاة شـابة، وقالـت:

- ربمـا حصـل لي أنـا أيضـا أن أتكلَّـم إلى عمـل فنـي. فأنـا آتي إلى هنـا مسـاء أحيانـا.. فقـط لأرى (مـود) Maud. وهـو الاسـم الأول، وهـذا كلُّ مـا أعرفـه عنهـا.

- ...

اقترب (أنطوان) من الماثِلة[21] التي كان وجهها ضائعا بين الزهور. وقرأ اسم المصوِّرة التي لم يكن يعرفها: (جوليا مارغاريت كاميرون) Julia Margaret Cameron[22] (1879-1815).

صورة مرسومة لـ (ج. م. كاميرون)

استأنفت (ماتليد) تقول:

- لقد اخترعتُ لها حيوات. وأحاول أن أتخيَّلها. وفي الحقيقة، هنا تكمن فائدة الصورة. هي من الواقع، ولكن بإمكان المرء أن يبتكر كل شيء.

(21) الماثلة: الفتاة أو المرأة التي تجلس أمام فنان ليرسمها، أي تمثُل أمامه (الموديل). (المترجم).

(22) ج. م. كاميرون: مصورة بريطانية، اشتهرت بتصوير (بورتريهات) مشاهير زمانها في العصر الفيكتوري، وقد جعلت من الفوتوغرافيا فنا أو شبه علم، مارست التصوير بعد أن أهديت إليها كاميرا سنة 1864، واستمرت في عملها إحدى عشرة سنة إلى سنة 1875. كان لها تأثيرها في المصورين المحدَثين، وقد أثبتنا آنفا صورة شخصية مرسومة لها. (المترجم).

(آنِّي) Annie أول صورة ناجحة التقطتها (ج. م. كاميرون) سنة 1864

وجد (أنطوان) هذه الفرضية جميلة جدا. إن ربط هذه اللحظة بما جرى في المكتب يبدو له أمرا مستبعدا. وبعد بضع دقائق، تركا هذه المجهولة في إطارها.. وألقى (أنطوان)، وهما ينطلقان، نظرة أخيرة عليها ولم يُحِسّ إلا بلمعة إعياء.

(9)

عند الخروج من المتحف، بقيا صامتينِ في الفِناء. وأخيرا، اقترحت عليه (ماتيلد) قائلة:

- عليَّ الذهابُ إلى افتتاح معرض لوحات، إن كنتَ ترغب في مرافقتي..

أجاب (أنطوان) بصورة آلية:

- لا أستطيع. فأمي مريضة جدا.

- آ.. عفوا، لم أكن أعلم. أنا آسِفة.

- ...

كان (أنطوان) قد أعدَّ هذا الجواب لـ(ألان) في حالة اقتراحه عليه ثانية الذهاب معه لشرب كأس. أعدَّه لـ(ألان) أو لأي شخص غيره لا

يهم. لقد كان هذا ردا سريعا جيِّدا جدا ودقيقا جدا. وابتعد، ولكن بعد بضع ثوانٍ، نَدِم على رفضه اقتراحها. لقد اطمأنّ إلى هذه المرأة. فاستدار، ولحِق بها. وقال:

- اعذريني، إنني أرغب في الذهاب معك أخيرا.

- وأمُّك؟

- ليست مريضة. إنها بحالة جيدة. وستتحسَّن أيضا.

- أصبح من الصعب عليّ أن أتابعك.

- لقد كان ذلك مجرَّد عُذرٍ في حالة ما إذا.. لأن الناس يقترحون مواعيد بلا انقطاع.. ويتكلَّمون، دائما يتكلَّمون.. وأحيانا، يكون للمرء مجرَّدُ رغبةٍ في أن يبقى وحيدا..

أمعن (أنطوان) قليلا في شرحه. وفقد صوتُه شدَّتَه فيه، وعلى الرغم من عدم تمكُّن (ماتيلد) من تمييز ما كان يقوله، فقد كانت ترى أنْ لا أهمية لأن تفهم أو لا تفهم هذا الرجل. وكانت سعيدة بأن يأتي معها.

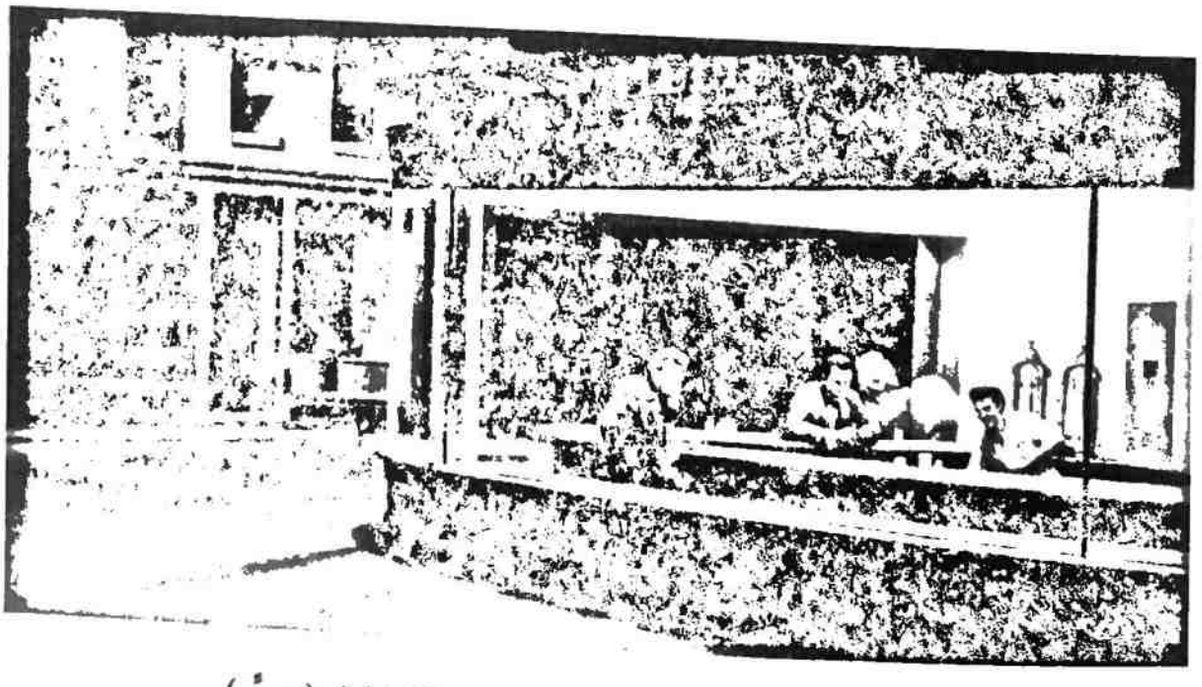

لوحة البار الأمريكي الأصلية (صقور الليل) لـ(هوبُر)

دخـلا صالـة عـرض (غالـيري) باريسـية، وأخـذا يتأمَّـلان مجموعـة مدهشـة مـن اللوحـات. لقـد أعـاد الفنـان إنتـاج لوحـاتٍ شـهيرة، ولكنهـا خاليـة مـن أشـخاصها. فيجـد المـرء مثـلا بينهـا لوحـة تمثِّـل نوعـا مـن جـدار ذي لـونٍ بُنِّـيٍّ فاتـح عنوانهـا (الجوكونـدا بـلا جوكونـدا). وأيضـا لوحـة (بـارٍ) أمريـكي فـارغ تمثِّـل لوحـة شـهيرة لـ(هوبِّـر) Hopper[23] مـن غـير أشـخاصه[24]. وكان الأكـثر جاذبيـة هـذه الزوبعـة مـن الألـوان التـي يُفـتَرَض أن تمثِّـل لوحـة (الصرخـة) Le Cri لـ(مونـك) Munch[25] ولكـن

(23) هوبِّر: (إدوارد - 1882) (Edward-1967) فنان تشكيلي أمريكي (رسام مصوِّر بالألوان الزيتية والمائية، ونحّات)، ولد في ضواحي (نيويورك) وتوفي في مدينة (نيويورك)، وكان قد تلقى دراسة الفن فيها، زار (باريس) ثلاث مرات لاستكمال تكوينه الفني ما بين سنتي 1906 و1910، زار خلالها بعض البلدان الأوروبية، وأقام معظمها في (باريس) والتقى فنانيها الأحياء، واطلع على أعمال الراحلين. كان يمارس فنه في مشغل له في (نيويورك)، ويُعدّ أيقونة الفن الأمريكي في القرن العشرين. وهو أحد ممثلي الواقعية الأمريكية، لأنه كان يرسم الحياة اليومية العادية للطبقات المتوسطة. كان في أول أمره، وقبل أن يتخصَّص بالمناظر الأمريكية، يرسم مشاهد باريسية، وأصبح شاهدا متيقِّظا للتغيُّرات الاجتماعية في الولايات المتحدة. وكان معظم شخوصه في الغالب وحيدين ومكتئبين. **(المترجم)**.

(24) على الأغلب فإن لوحة (هوبر) الأصلية تلك هي المسماة (صقور الليل) **Nighthawks**، ويظهر فيها البهو في الليل، ومناول البار، ورجل مع امرأة يتكِئان على البار، ورجل منفرد جالس على كرسي ويتكئ على البار أيضا. (انظر هذه اللوحة أعلاه). **(المترجم)**.

(25) مونك (إدفارد - Edvard) رسام مصوِّر نرويجي (1863-1944)، كان أحد كبار ممثِّلي التعبيرية، من أشهر لوحاتِه (الصرخة) Le Cri (رسمها سنة 1893)، وهي تلخِّص القدرة الرمزية والمأساوية لفنه.

مـن غـير شـخصياته الرئيسـية. وقـد صرَّح الفنّـانُ بأنـه كان قـد قـرَّر (أن يُحـرِّر الماثِلـين مـن ضيـم الإطـار). كان (إيـف كاموتـو) Yives Kamoto[26] يجـوب الصـالات الثـلاث للمعـرِض بخيـلاء. كان المـرء يتوقـع لـه أن يكـون في غايـة الاسـتمتاع، لأن افتتـاح المعـرض كان بجـلاءٍ أحـدَ الأوقـات العظيمـة لأي فنّـان. ومـع ذلـك، يكـون غالبـا وقتـا مختومـا بفـراغ اجتماعـي، نظـرا لأن المـرء ينهـار تحـت التهنئـات التـي تفقـد فائدتهـا وهـي تتراكـم هكـذا بممارسـة التهذيـب الاجتماعـي. ويعمـل المـرء أحيانـا سـنواتٍ للوصـول إلى أمسـيةٍ لإرضـاءٍ مزيَّـفٍ للـذات.

كانـت (ماتيلـد) صديقـة لـ(أغـات) Agathe، أخـت (إيـف) والمعجبـة المتحمِّسـة بشـدة لـه، والغائبـة في يـوم التتويـج هـذا. فقـد سـافرت لتقـوم بجولـة في العـالم لمـدة سـتة أشـهر، وكانـت يائسـة لأنهـا لا تملـك عمـلا ولا زوجـا في حياتهـا، وربمـا تجـد الأول أو الثـاني في (الصـين) أو في (تشـيلي). ولكـن مـن المحتمـل أيضـا، لمـا كانـت مبـذِّرة بسرعـة فائقـة تقريبـا لتعويـض تسريحهـا مـن العمـل، أن تُضطـرّ إلى العـودة في وقـت أبكـر. لقـد كانـت الصديقتـان تتبـادلان الحديـث أحيانا عـبر الـ(سـكايب) Skype، وتتذاكـران أيامهـما محاولتَـينِ جعـلَ أخبارهـما أكـثر إثـارة للمشـاعر، ولكـن المـرء يقـول، عـبر الشاشـة، وبسـهولة، إنـه أقـل سـوءا. وبالمقابـل، كانـت (أغـات) تُلـحّ عـدة مـرات قائلـة: «يجـب أن تذهبـي إلى افتتـاح معـرِض أخـي، وألـوم نفـسي عـلى عـدم حضـوري هنـاك، ولـذا كأنـك تمثِّليننـي». وهكـذا كان قـد بقـي أثـرٌ مـا مـن (أغـات) في (ماتيلـد) ذلـك المسـاء.

و(أنطـوان) نفسـه ظـلّ (أنطـوان) تمامـا؛ وقـد تسـاءل عـما كان يفعـل هنالـك. فيـا لَـحماقة قبولـه، ووجـوده وسَـط جمهـور يبـدو عدوانيـا، بخـلاف حقيقـة ضيقـه الداخـلي. وخـلال سـنوات، كان يرتـاد افتتـاح

(26) كان هذا الفنان قد قرّر يَبْنَنَةَ japoniser اسمه لغاياتٍ تجارية، واسمه في الواقع (إيف كاموش) Y. Kamouche.

المعرض ويعرف أغلب الفنانين الليونيين، ولكن هذه المرة كان الأمر فوق طاقته. فقد اختفى فجأة، ولم يَخْفَ هذا عن (كاموتو)، الذي استنتج أن هذا الرجل لم يكن يحبّ عمله. وذات مرة في الخارج، كان يود الاستمرار في المشي، ولكن هل كان يستطيع الانطلاق هكذا؟ من غير أن يودع (ماتيلد)؟ ومن غير حتى أن يوضِّح أن بإمكانِه قبولَ اقتراح، ولكن في المرة التي تتحقق فيها، يصبح من المستحيل تحملها.

وانتهى الأمر بـ(ماتيلد) إلى أن لحقِت به، قائلة:

- أنت بخير؟ ما الذي يجري؟

- لا شيء، كنت أريد فقط استنشاق الهواء.

فسألته:

- ألم يعجبك ذلك؟

- لا.. لا.. ليس الأمر كذلك..

- هل ترغب في أن نذهب إلى مكان آخر؟ أعرف مقهى في الجوار.

- نعم، موافق، فلْنقم بذلك..

فتخلّصا كلِصَّيْ جَمَال.

(10)

لم يكن للمقهى المقترح من قبل (ماتيلد) أيُّ جاذبية؛ فميزتُه الوحيدة كانت فقط في موقعه الجغرافي. شعرت أنه لن يذهب بعيدا جدا، لأنها لم تكن ترغب في أن تعطي لـ(أنطوان) فرصة لتغيير رأيه. وكان يجب بلا انقطاع أن تبعد الشك لديه. وبعد بضعة أمتار كانا في الحانة. وقد استقرّا في ركنٍ هادئ فيها، وكان المكان مقفرا. وكان ذلك انتقالا تامّا من أعمال (كاموتو)؛ فقد تحرَّر من جميع الممثِّلين الصامتين في المدينة.

اقترب النادِلُ. قرَّرا طلب شراب أحمر، وهذا عنصر جديد أيضا عند (أنطوان). فشروده لم يكن محفوفا باليأس في هذه الأوقات، ويبدو

أن الكحول وحدَه قادر على إنقاذه منه. وحتى الآن، كان سوء حاله معتدلا. وكانت (ماتيلد) ترغب في الشرب لتصل بسرعة إلى هذا الثَّمَلِ الخفيف الذي يُتيح لها الاسترخاء. كان الوضع ضاغطا عليهما معا؛ لقد تعارفا منذ مدة قصيرة. ومن الأسهل دوما أن يكون المرء واقفا من أن يكون جالسا مع شخص غريب. ولما كانا يجوبان الصالة أو يمشيان في الشارع، كان الوقتُ يمر خفيفا. ولكن الآن، وجها لوجه، أصبح الموعد حقيقيا، وخطيرا تقريبا. فـ(ماتيلد) التي كانت تبدو واثقة من نفسِها في المتحف، أصابها الشك. وبطريقة ما، لحقت بـ(أنطوان) إلى عالم الشك في النفس.

ويجب القول إن (ماتيلد) لم تكن تخرج كثيرا. فقد كانت تظلّ، أغلبَ الوقت، في بيتها مع أطفالِها. ولم يكن زوجها السابق يأخذهم إلا في عطلةِ نهاية الأسبوع ليومين. ولم توظف غالبا مربيةَ أطفالٍ. وقد أرادت المصادفة أن يشوِّش (أنطوان) على كلام الدليل المتحفي في يوم كانت (ماتيلد) تترقَّب فيه الخروج. فإذن كان للمصادفة نصيبٌ من المسؤولية. ولكنه لا يستطيع أن يفعلَ كلّ شيء. ويجب عليه أن يأخذ الواقع على عاتِقِه، ويجب أن يتكلَّم. وانتهى الأمر بـ(ماتيلد) إلى أن تسأل:

- هل لك علاقة مع الممثِّل (رومان دوريس) Romain Duris[27]؟

- إنه ابن عمي.

- آ.. إنني أحبُّه كثيرا. ويمكنك أن تخبره بذلك إن رأيتَه. أخيرا، ليس هذا أصيلا جدا..

- الحقُّ يُقال، إنه ليس ابنَ عمي. لقد قلتُ ذلك هكذا. عفوا.

- آ.. حسنا!

(27) رومان دوريس: ممثّل سينمائي ومسرحي فرنسي مولود سنة 1974. (المترجم).

الناس يطرحون علي غالبا السؤال. وأنا لا أعرفه حقيقة. وأنا لا أذهب غالبا إلى السينما. ولكنني أقول أحيانا إنه ابنُ عمي، أو هو أخي، وهذا ما يعطيني أهمية مضحكة في نظر الآخرين. وكنتُ أجد ذلك أمرا غريبا دوما.

- وهل كنت مثيرة للسخرية؟

- لا، على الإطلاق. إنني أحب أن أكون ابن عمِّه، فقط لأدخل السرور في نفسِك.

- شكرا.

- وأنتِ.. يا (ماتِّل)؟

- ماذا؟

- هل لك علاقة بالألاعيب؟

ابتسمت (ماتيلد)، من غير أن تعرف إن كان (أنطوان) جادا أم مازحا. فمن الصعب معه دوما تمييز لون كلماتِه.

لقد خفَّف الشراب من خجلِهما، فشرعا في الكلام من غير أدنى توقُّف. وانتهت (ماتيلد) بذكر الموضوع الذي كانت تريد تناوله من البداية، قائلة:

- ألا ترغب أبدا في أن تقول لي ماذا تفعل في (أورسيه)؟

- ...

- سيبقى الأمر بيننا..

- أنا آسِفٌ، لا أرغب في الكلام عن ذلك..

- موافقة، لن ألحَّ عليك. ولكن إن غيَّرت رأيَك، فأنا هنا..

- ...

أدركت (ماتيلد) أنه لم يكن عليها أن تتكلم في ذلك، ولكنها كانت ترغب ببساطة في أن تعرب له عن مودَّتِها، ولم يكن يثيرها فضولٌ أيا ما كان، وإنما رغبة في أن تقول له إنها كانت هنا من أجلِه. وكانت

تظـن أن هنـاك شـيئا مـا خطـيرا كان وراء تغيـير حياتـه. ففـي الوقـت الـذي قـال فيـه إنـه لا يرغـب في الحديـث عنـه، كانـت تلمـح تهدُّجـاتٍ في صوتـه، تهدُّجـاتٍ يسـيطر عليهـا الانفعـال، وخفيـة تقريبـا. كـما شـعرت بدمـوع تتخلَّـل كلماتـه. اقـترب النـادل ليعلـن الإغـلاق الوشـيك للمـكان. وحـان وقـت المغـادرة.

(11)

كانـت نتيجـة هـذه الأمسـية عـلى الأقـل لا يمكـن تصورهـا؛ فقلـما كان أحدهـما يـرى الآخـر مـن وقتهـا. ولّـد الليـل والثمـل حميميـة مـن الصعـب اسـتمرارها في المتحـف. ولم تكـن (ماتيلـد) تعـرف أي موقِـفٍ تتخـذ مـع (أنطـوان). ولم تكـن تجـرؤ عـلى المـرور لـتراه صباحـا؛ فهـل كان عليهـا أن تقـترح عليـه موعـدا آخـر؟ وكان هنـاك شيء واحـدٌ أكيـدٌ؛ وهـو أنـه لـن يقـوم بأيـة مبـادرة. وواضـح أن شرودهـما كان يتمثَّـل بنظـره في التزلـج خـارج النطـاق في حياتـه اليوميـة. لقـد كان مـن نـوع الأشـخاص الذيـن يعلنـون، عنـد أدنى دعـوة، أن أمـه قـد ماتـت.

ومـع ذلـك، كان (أنطـوان) قـد قـدَّر تلـك الأمسـية، وقـد أشـعرته بتحسـن جنـوني. ووجـدت فيـه متنفَّسَـها الأول منـذ مـا كانـت قـد عاشـته. وهـو لم يكـن يشـعر بالقـدرة عـلى خلـق أدنى علاقـة. وأخـيرا، كان (ألان) هـو الشـخص الوحيـد الـذي كان قـد تكلـم معـه قليـلا. ولكنـه اختفـى في اليـوم التـالي. فبعـد أن غادرتـه زوجتُـه كان يشـعر بـلا شـك بالحاجـة إلى تغيـير الجـو. فقـد حلَّـت محلَّـه (لورانـس) Laurence، وهـي امـرأةٌ طويلـة ذات وجـهٍ مُـزوَّى يبـدو خارجـا مبـاشرة مـن لوحـةٍ لـ(موديليـاني). فهـل كانـوا يعيِّنـون فقـط موظَّفـين لا يتعارضـون مـع اللوحـات؟ سـتكون هـذه فكـرة مثـلَ أخـرى. الحـقُّ يُقـال، إن (لورانـس) كانـت تعمـل منـذ زمـن طويـل في المتحـف، وكانـت بالأحـرى سـعيدة لهـذا التغيـير في الكـرسي. وكانـت مندفعـة بمـا فيـه الكفايـة، وكانـت تومـئ بنعـم أو لا. وقـد رآهـا

(أنطوان) تنهض لتوبِّخ زائرا اقترب كثيرا جدا من لوحة. وكانت تصيح بصوت حادٍّ مئات المرات في اليوم: (من غير فلاش رجاء). ويبدو أن ذلك كان يقدِّم لها ارتياحا عظيما لممارسة هذه السلطة الصغيرة، وربما كان ذلك تعويضا عن حياة مفعمة بالقمع.

وقد كانت (لورانس) تماما كالموظفين الآخرين، تتساءل من يكون (أنطوان) حقيقة؟ فهو لم يكن يتحدَّث عن نفسِه قطُّ ويبدي بلا انقطاع استياء من آخر نوفمبر.

غير أن زوار المعرض كانوا دوما كثيرين جدا، ولم يكن حارسا الصالة الكبيرة يرى أحدُهما الآخر عمليا. فالناس يتزاحمون، ويحشُر بعضهم بعضا، ويتدافعون. وفي هذه اللحظة فقط، كان هناك امرأةٌ لا تنظر إلى اللوحات. وبقيت واقفة قرب (أنطوان). وعندما اكتشفها، عدَّها تحطيما للواقع: إنها أختُه.. إنها (إيلوينور).

(12)

في كل مساء، كان قلب (ماتيلد) يَخفُق عندما تعِنُّ لها فكرةُ لقاء أطفالها. وكانت، في المسافة الموصلة من المتحف إلى بيتها، تتخيَّل ابنتها الصغيرة تركض نحوها، ومن ثم يلحق بها ابنُها. وتتحدَّث إلى المربية التي كانت تنقل لها المعلومات التي جمعتها في الحضانة والمدرسة الابتدائية. وكانت تستمع لحياة طفليها كما تستمع لحكاية شيِّقة. وبعد ذلك يبقى الثلاثة جميعا معا. وقد وجدوا، منذ الانفصال عن الأب، توازنا جديدا أكثر راحة.

كانت الأوقات الأخيرة للزوجين محفوفة بالتوترات العديدة. فقد مضت شهور من التردد الحزين ظهر فيها الزواج واقعا قائما أكثر منه رغبة. ولم يكونا يريان سوى أن النهاية تقترب، وكانا يفكران في أزمة، وفي فترة حرجة قليلا، ولم يكن بإمكان الحياة أن تتكوَّن من تتالي الهناء العاطفي. فالأمر يتعلَّق بظهور أول ظل لا يمكن صرفُه. وكانت

المقاطعات موجودة منذ زمن طويل قبل الصباح حين يقول المرء: لقد انتهى الأمر.

فتحت (ماتيلد) بابها، وحدث بالضبط ما هو متوقَّع. وبعد بضع دقائق، كانت المربية في إجازة، وجلس الثلاثي في المطبخ لتناول العشاء. كان التسوُّق قد تمَّ في السبت السابق، ككلِّ أيام السبت، وكان عليها كلَّ مرة أن تفكِّر قليلا لتحاول تنويع وجبات الطعام. وفي أغلب الأحيان، كانت (ماتيلد) تنتهي إلى تحضير الفطائر. وكان الطفلان يتشاجران دوما للأسباب نفسِها، وكانت هي تحاول تهدئة توتُّر الأعصاب المرتبط بالتعب. وبعد مدة، كانت تضع لهما أفلام رسوم متحركة في الصالون. وبعد أن كانت تشعر بالفرحة بوجودهما، كانت تشعر بأن قوتها قد استُنفِدت. وفي لحظة، تأخذ بالحلم بسهرة وحيدة، وتتعشَّى وهي تتفرج على فيلم، أو تقرأ وهي في سريرها. وريثما تستوي الفطائر، جلست على أريكة بين طفليها اللذين أسرتهما الآن الرسوم المتحركة التي شاهدوها عدة مرات. وفي وقت الطعام، كانت تطفئ التلفاز، وكما في كل مساء كان لها الحق في الصراخ وفي حرب متعبة تنتهي بالاستسلام. من المستحيل الصراع مع الأطفال بعد يوم عمل.

وبعد ذلك، كان يجب التحقُّق من واجبات الابن الأكبر، وتحضير لوازم رقص الصغيرة. ثم تحين ساعة المفاوضات التي لا تنتهي بشأن الاستحمام. فهما لا يريدان أخذ حمامهما معا، بل واحدا بعد الآخر. ولكنّ كلا منهما يريد أن يدخل أولا. وبالنسبة لـ(ماتيلد)، ملكة الميدان والدبلوماسية، كانت تحكم مملكة عاطفية يمكن في كل وقتٍ أن تقع في أزمة دولية. فمرة بعد أخذ الحمام، كان ينبغي المرور بعملية الـ(بيجاما)، وقراءة القصص، ومطاردة الذئاب، ثم التعصيب لأن وقت النوم قد حان. ومرة وهي في غرفتها، قالت في نفسِها إن الأمسية ليست سوى سلسلةٍ من التوجيهات، وإن أوقات العاطفة عابرةٌ بشدة.

فشغَّلت التلفاز فوقعت على فيلم لـ (رومان دوريس) باسم (عن الخَفَقانِ قلبي توقَّف)[28]، فرأت فيه علامة.

(13)

كانت (إيليونور) تواصل المجيء والذهاب في شقة أخيها الصغيرة. إنها لم تجئ إلى هنا من أجل أن تتمكَّن بذلك من العيش في نطاق العزاء الجمالي. فقد كان (أنطوان) ترك على أرصفة (ليون) طقما جميلا (مكونا من بنطال وجيليه وسترة). بالتأكيد، لم يكن الأمر يتعلَّق باعتبارات مادية، ولكن ذلك يوضِح كثيرا الوضع. وعلى الرغم من هذه العصبية التي تظهر مستحيلة على التحويل، فقد خفتت بعمق. فبعد عدة أسابيع من البحث، وجدت (أنطوانَها) أخيرا. وكانت تحاول تهدئة نفسِها، وألا تحمِل عليه، على الأقل في هذا الوقت. والواضح أن أقل عدوانية ستثمر نتيجة عكسية. وعليها السعي إلى فهمه. ولكن كيف يكون ذلك ممكنا؟ فقد كذب بتذرعه بكتابة رواية، وترك أقرباءَه في ارتباك. كل ذلك من أجل أن ينزوي هنا، في جُحر الجِرذان هذا.

من الممكن غالبا استباق الضعف، وبعض الأشخاص ينهارون، ويصيبهم ما يُسَمَّى عموما إحباطا، وفي أغلب الأوقات لا نُفاجأ بذلك. فهنالك إشارات قبل حدوثه تعلن السقوط. ويعيش هؤلاء الرجال أو هؤلاء النسوة على أرضية هشة أكثر فأكثر.

ولم تكن هذه حالةَ (أنطوان) على الإطلاق. فلم يكن هنالك شيء ينذر بمثل هذا الاضطراب في حياته. فقد كان دائما، في نظر أختِه، فتى مشرقاً. ولقد كان يملك بالتأكيد أوقاتا للانسحاب والحُلم[29]، ولكنه كان رجلا صلبا. ويمكن الاعتماد عليه. فهل يحتمل أن يكون قد أخفى

(28) وهو متوافر على النت بعنوان: (De battre mon cœur s'est arrêté). (المترجم).

(29) كان يُقال إنه (فنان الأسرة).

طبيعته الحقيقية؟ وشعرت (إيليونور) بأنه مذنب عندما رأى أن لا يعود، وكانت واحدة من صديقاتها قالت لها لتواسيها: (إنه لا يعرف قطُّ أحدا).

كان بإمكانها، في صميمها، أن تفهم (أنطوان). فلقد كان يحصل له أحيانا، أثناء الغضب الشديد، أن يرغب في مغادرة الجميع: الحياة الأسرية وإكراهاتها، والحياة المهنية وضغوطاتها. فكل شيء كان يبدو له خانقا وشالًا. فالمرء كان يحلم، إبّان هيجانِه، بالذهاب إلى مكان آخر يتذوق فيه طعم الحرية. ثم كانت العاصفة تهدأ، ويبقى مستقرا في حياته بلطف.

لم يقل (أنطوان) شيئا، وقد خفض رأسَه كطفلٍ. فقد آلمه أن يرى أخته قلقة إلى هذا الحد. ولربما فهمَتِ الأمر يوما. أما في هذه اللحظة فإنه يشعر بأن الصمتَ قد اجتاحه. ولم تصل الكلمات، التي كانت تسري في جسده، أبدا إلى حدِّ أن تتحوَّل إلى كلام يمكن سَماعُه. وبعد ساعة، جاءت (إيلوينور)، وهي أقل ثورة، لتجلس قربه على حافة السرير، وقالت:

- (أنطوان)، عليك أن تشرح لي.

- لقد حاولتُ، وكنت أريد أن أكلمك مرارا، ولكن لم أتمكن من الاتصال.

- ذلك بسبب (لويز) أليس كذلك؟

- لا.

- تستطيع أن تذكره لي. أنا أعلم أنك ظهرت بمظهر لائقٍ عندما انفصلتُما. وكان ذلك باتفاق مشترك. قلتَ لي.. ولكنني لم أصدِّق روايتَك هذه عن الأمر.. ثُمَّ..

- ماذا؟

- لا، لا شيء.

- هل تريدين القول إنها التقت أحدَهم؟ أنا أعلم.. وأنا سعيد لها.

- كلِّمني. أنا هنا.

- أعلم أنك هنا. وأنا أؤاخِذ نفسي على الرحيل هكذا. لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئا آخر. يمكنك أن تصدِّقيني.. وإذا ما استطعتُ، فلسوف أكلِّمك.

- ولكن ما الذي جرى؟ إن لم تكن (لويز).. إذن، فما الأمر؟

- ...

في هذه اللحظة، توجَّه (أنطوان) نحو النافذة، وظهرُه لأخته. وكافح من أجل احتواء انفعالِه، ولكنها اجتاحته. وبحقٍّ، كان يريد أن يتهرَّب حتى لا تُطرَح عليه أسئلة، ولكي يتجنَّب هذه التحقيقات. ولكنه يفهمها. وكان يتصرَّف بالطريقة نفسِها عندما كانت تغيب بلا شرح من اليوم إلى الغد. وكان يتصوَّر أن الزمن والبعد سيتيحان لها أن تضمِّد جرحها. ولكن المصيبة لا تزال شديدة جدا. كانت بعض الدموع تسيل بصمتٍ، ومع ذلك كان لدى (إيلوينور) انطباع بالاستماع إليها. وقد فهمت أن أخاها لن يتكلَّم، أو على الأقل ليس الآن. كان يقف في مواجهتها. وهو حيٌّ، وهذا كلُّ ما يهُمّ.

اقترحت عليه الخروج لتناول العشاء. ودخلا مطعما (تايلنديا) في أسفل العمارة. كان تصميمه خاليا تماما من الذّوق ليعطي إحساسا بمغادرة الجو الخانق حالا. أخذت (إيلوينور) تتحدَّث عن ابنتها، وذكرت تفاصيل الحياة اليومية.وتساءل (أنطوان) إذا ما كان هروبُه، مؤخَّرا، قد فاقم وَعْكتَها. فقد ابتعد عن كل ما يجعله سعيدا، كابنة أخته مثلا. لقد كان رحيله رحيلَ مذنبٍ محروم منعه من كل إمكانية للسعادة. وبعد لحظة سألها:

- كيف عثرت عليَّ؟

- بالمصادفة تقريبا. لقد نجحتَ في إبعادنا عن حياتِك إلى حد بعيد، فلم تكن لدينا وسيلة لمعرفة أين تكون؛ فلا هاتف، ولا عنوان، ولا اشتراك في شيء. لقد تخيَّلتُ ذلك كلَّه. حتى إني ظننتُ أنك ربما كنتَ عميل مخابرات، وأنك في خطر، وبدا لي ذلك قليل الاحتمال.

- ...

- واتَّصلتُ بكل أصدقائك لأستفسر منهم عن حالتِك العقلية في هذه الأشهر الأخيرة، وقد وجدوا جميعا أن زعمك كتابة رواية أمرٌ معقول.

- ...

- واتَّصلت بـ(لويز) بالتأكيد.

- ماذا قالت لك؟

- ما من أمرٍ خاصّ. قالت: إن نقاشاتِكما الأخيرة كانت هادئة، ولكنها كانت تشعر بحزنٍ في صوتك.

- هذا طبيعي، فقد أمضينا سبعة أعوام معا. لقد تشاركنا في كل شيء. إذن كانت دوما حزينة قليلا في الكلام عن نفسها هكذا. وللتساؤل عن الأخبار. لقد كانت عليها هيئة حزينة هي أيضا.

- نعم، بالتأكيد.

- أعيد لك القول، لقد كان كلُّ شيء على ما يُرام بيني وبينها. وانفصلنا، هكذا، وهذا كل شيء.

- أعتقد دوما أنك قد أخفيت معاناتِك في ذلك الوقت.

- لم أكن أريد أن أزعجك. فقد كان أمرا سخيفا للغاية؛ هذا الانفصال. وليس هناك ما يُقال. لن نتحدَّث عن (لويز)، اتفقنا؟

- جيد جدا.

- إذن كيف عثرتِ عليَّ؟

- لقد أنشأتُ بريدا إلكترونيا نشِطا باسمك. وقلت لنفسي إذا

مـا ذكـرك أحـد عـلى (الإنترنـت) فبإمـكاني أن أعرفـه. كنـت في كل صباح أتصفـح شـبكات التواصـل الاجتماعـي لأتحقَّـق مـن أنـك قـد ظهـرت في مـكان مـا.. وهنـاك وجدتُـك.

- آ.. حسنا.

- نعـم، واحـدٌ مـن طلابـك عرَفـك. فوضـع صـورة لـك عـلى (تويـتر) وأنـت عـلى كرسـيِّك مـع تعليـق كان يقـول: (يـا للخيبـة! أسـتاذي القديـم في الفنـون الجميلـة «أنطـوان دوريـس»، أصبـح حارسـا في المتحـف!).

- ...

- وبعد أن رأيتُ ذلك، جئت لأتحقّق.

- من هذا الطالب؟

- لا أعلـم، يُدعـى (هوغـو) Hugo. وفي النهايـة لا يهـم. وهكـذا عـثرتُ عليـك.

- إنه مجنون.

- ماذا؟

- ألا يسـتطيع المـرء الهـروب؟ هنـاك دومـا مـن يقـول للآخريـن أيـن تكـون الآن. أنـتِ ألا يُقلِقُـكِ ذلـك؟

- اسـمع، أنـا لا أبـالي بذلـك. بـل بالعكـس، أنـا معـك الآن بفضـل هـذا المدعـو (هوغـو). ويمكننـي أخـيرا أن أتنفَّـس. وأنـا أعاتبـك حقيقـة عـلى غيابـك هكـذا. ولكننـي سـعيدة هـذا المسـاء.

- وأنا أيضا سعيد.

- متـى تنـوي العـودة؟ فأنـت لـن تبقـى هنـا إلى الأبـد. ارجـع إلى بيتـي، وأنـا سـأهتمّ بك..

وضـع (أنطـوان) إحـدى يديـه عـلى يـد أختـه. إنـه لا يـدري بعـدُ كـم مـن الوقـت سـيظلّ يعيـش هنـا هكـذا. ولكنـه للمـرة الأولى منـذ هروبـه يقـول في نفسِـه: سـيأتي وقـتٌ يكـون عليـه أن يجـد حياتـه فيـه.

(14)

عادت (إيلوينور) إلى (ليون) في اليوم التالي، بعد أن أخذت وعدا من أخيها بأن يزودها بأخباره بشكل منتظم. وقد قبِل ذلك، وفي المقابل، لن تكشِف هي أين يكون. وبعد يومين، ووفاء بما وعد، وضع الشريحة في جوّالِه، وبعث إليها رسالة مُطَمئنة. لقد أعاد العالَم الخارجي حقل الرؤية لـ(أنطوان). إن زيارة أختِه، وموقفها العطوف والحازم معا ألزمه بأن يعِيَ أن مرحلة جديدة سوف تبدأ.

وعندما فتح جوّالَه، تلقَّى سيلا من الرسائل. في وسط الكلمات ظهر اسم (لويز): (أنطوان، يبدو أنك رحلتَ. الناس جميعا قلقون. زوِّدنا بأخبارك من فضلك. زوِّدني بأخبارك). كانت (إيلوينور) قد أعلمتها بغيابِه قائلة إنها وحدها من يستطيع التأثير في أخيها. ولم تكن هذه هي الحال. فقد بقيَت رسائل (لويز)، كرسائل الآخرين، بلا جواب. وبقراءتِه رسالتَها، فكَّر (أنطوان) في أنها ربما شعرت بمسؤوليتها عن رحيله. وكان عليها أن تقول في نفسِها في وقتٍ ما: (إن كان قد رحل، فذلك بسببي). ولكن، في الأصل، ماذا كان يعرف عما كانت تفكِّر به (لويز)؟ لا شيء. وكان ذلك كذلك منذ وقت طويل. إن أشهُرَهما الأخيرة معا كانت مفعمة بسوء التفاهم. وراجت بينهما منطقة من الشكوك بمراءاةٍ. لكن (أنطوان) لم يكن يرى تلك المنطقة قادمة؛ ربما لأنه كان قد بقي لمدة طويلة جدا مأخوذا بجمال بداياتهما؟ كان هذا يبدو بعيدا جدا الآن.

مرَّت بعض الصور أمام عينيه، ملخَّصة تلخيصا عابرا سبعة أعوام. زمن الحب وزمن عدم الحب. وقد بدا له ذلك غير معقول تقريبا؛ إن ما كانا يعيشانه كان يأخذ مظهر الحد الأدنى. فعنَّت على ذاكرته رحلةٌ إلى (باريس)، فقد زارا معا متحف (أورسيه). فرآهما حارِسُ صالة ويده في يدها، وهما يجوبان هذه الصالة حيث يُمضِي (أنطوان)

أيامَـه الآن. فقـد كانـا جميلـين ورائعـين في تلـك الفـترة، وممتلئـين بيقـين الحـب الـذي كان يتنفَّـسُ الأبديـة.

(15)

لقــد كان الســحر لا يــزال موجــودا، ويكفــي أن يتذكَّــر المــرء ذلــك الوقــت الــذي كان (أنطــوان) و(ماتيلــد)، بعــد إغــلاق المتحــف، يتأمــلان فيــه صــورة (مــود). وفي أوقــات راحتــه كان يعــود أحيانــا ليراقــب هــذه الصــورة. لا بصــورة خاصــة لميزتهــا الفنيــة، وإنمــا ليغــوص في عذوبــة تلــك اللحظــة التــي تقاســمها مــع (ماتيلــد). بهــذا النــوع مــن الحجــج، كان يقتــرب منهــا. إن المــرء لَيُحِــبُّ مــا هــو محبَّــبٌ إلى مَــن يُحِبُّــه. وكان يأســف لأنهما لم يتحدَّثــا. لمــاذا لم تجــئ لــتراه؟ هــل هــي منزعجــة؟ هــذا أمــر ممكــن. لقــد فهمهــا جيــدا، عــلى درجــات متفاوتــة، مــن خــلال بعــض مــا كانــت قــد باحــت بــه في ذلــك المســاء.

لقــد كان كلاهــما في نقاهــة عاطفيــة. فــكان لعــدة مــرات يهــم بالذهاب للقائهــا في مكتبهــا، ولكــن مــاذا يمكنــه أن يقــول لهــا؟ هــل يطلــب زيــادة في راتبــه؟ وكان قــد فكَّــر بجديــة في هــذه الحجــة. فالــلا معقــول يكــون دومــا قريبــا مــن الرغبــة.

كان (أنطــوان) يقــف دومــا في مواجهــة لوحــة (جــانّ هيبوتِــرن). ويــدع لنفســه العنــان أحيانــا ليتحــدَّث إليهــا حديثــا داخليــا، وهــذا نــوع مــن البــوح الــسِّرّي وســط الجمهــور. ومــن العــالم كلــه، كان النــاس يتزاحمــون لرؤيــة هــذا العــرض التاريخــي لأعــمال الفنــان. وكانــت الوجــوه تختلــط، واختلطــت الأيــام بعضُهــا في بعــض، ولم يــزل (فابيــان فراسّــيو) يــأتي ليــشرح الأعــمال، بصحبــة مجاميعــه. وكان (أنطــوان)، منــذ تنازعهــما، يأخــذ حِــذْره عندمــا يــراه وصــل. وكان تقريبــا متخفِّيــا لا يُــرى في زاويــة مــن الصالــة، بلباســه القاتــم، وكان يزيــد مــن تواريــه بحــشر نفســه قــدر الإمــكان في كرسـيِّه.

ولم يكن ذلك يمنع (أنطوان) من سماع حكايات الدليل، وكانت هي نفسَها، في نحو كلمتين أو ثلاث. يسرد سردا آليا سيرة الرسام، وهذا ما كان أخيرا عاديا جدا. ولم يكن يضيف عناصر جديدة في سيرته لتتبيلِ رتابتِه. وما كان (أنطوان) يقاسيه وهو يسمع (فراسِّيو)، لم يكن هو نفسُه يشعر به؛ فخلال سنوات كان يلقي الدروس نفسَها، من غير أن يستولي عليه أدنى شعور بالآلية. وكان الجو مختلفا تبعا للصفوف والطلاب. وهذا ما يمكن أن يعاني منه بعض الممثِّلين الذين يؤدون مئات العُرُوض في المسرح؛ فهنالك دوما شيءٌ ما مختلف في التماثُل.

كان (فابيان فراسِّيو) يحب مهنتَه، ولا شك في ذلك، ولكن يشعر المرء لديه بهذا النوع من الكِفاية التي تمنح اليقين في المعرفة. وكأنه كان قد تناول العَشاء في السهرة مع (موديلياني). فقد كان يتحدَّث عنه بثقةٍ لا حدَّ لها. أما (أنطوان)، الذي كان قد كتب أطروحة عن الرسام، فقد وجده على العكس صعبا جدا على الإحاطة به. فقد كان رجلا تثيره الرغبة في النجاح، وكان مع ذلك مِزاجيا وغير مستقرّ، وكان يعمل غالبا ضد مصالحه. و(أنطوان) يعتقد، بخصوص (موديلياني)، أن بعض الظروف تمشي ضد صانعها. فقُوَّته السوداء كانت تمتزج بحُلُمٍ زاهٍ من نور. وهكذا، من المستحيل الحديث عنه بلا تدقيقات. طبعا لم يكن (فراسِّيو) في مواجهة علماء، وكانت مهنته تقوم على تبسيط مقاصد الحياة، على حساب الواقع الأكثر تعقيدا.

في هذا الصباح، قام (أنطوان) فجأة للاقتراب من المجموعة. ولم يتمكَّن (فابيان) من أن يرى وصول الحارس الذي لا يمكن مراقبته من ورائه. وكان يسترسِل في شرح طويل على صورةٍ حين سمع صوتا يرتفع بالقول:

- اعذرني..

- ...

فالتفت (فابيان)، متجمِّدا. ومع ذلك لم يجرؤ.. ثانية.. لا، هذا غيرُ ممكن .

لقد تجرَّأ، فقال:

- لقد سمحتُ لنفسي أن أستمع إلى شروحك الأخيرة وأريد أن أضيف تفصيلا يبدو لي مهما جدا، وجميلا جدا: فـ(جان هيبوتِرن) بعد موت حبيبها..

وبغضبٍ باردٍ، استمع (فابيان) لقصة خصلة الشعر التي وُضِعت على جُثمان (موديلياني). ولم يُدهِشه ذلك. لقد تجرَّأ هذا المريض النفسي ثانية على مقاطعته. وكان قد قبِل الصَّفْحَ عنه في المرة الأولى، بناء على طلب (ماتيلد). أما هذه المرة، فالأمر لا يتعلَّق باندفاعٍ غير مضبوطٍ ولا بطيش، وإنما بعمل واعٍ سيِّئ النية.

وقد استمرَّ (أنطوان) بالكلام في وسط المجموعة. فتساءل (فابيان): ما العمل؟ هل أسدِّد له لكمة على فمه؟ لا، لا، ابقَ هادئا، ابق هادئا على وجه الخصوص.. فإن حصول مُشادَّة سيُضِرّ بصورته وبصورة المتحف.. ولكن كيف يبقى هادئا أمام هذا المجنون؟ وبسيطرته على نفسِه التي بدت له مدهشة في نظر من كان يشعر بها. قطع (فابيان) حديث (أنطوان) بابتسامة عريضة قائلا:

- حسنا، شكرا لهذه التوضيحات. لسوف نواصل الزيارة إلى الصالة التالية. ولكنني لا أعتقد أنك تستطيع مغادرة مركزك..

وافق (أنطوان) قائلا:

- في الحقيقة..

تَبِع الزوَّارُ (فابيان). وقالت امرأة:

- لقد كان هذا الحارس ساحرا ومتبحِّرا.

أجاب (فابيان) بنظرة سخط أخيرة على خصمه، قائلا:

- نعم، تماما. إنه لأمر سارٌّ أن يكون بيننا.

(16)

وبعد ساعة، استُدعِيَ (أنطوان) من قبل (إدارة الموارد البشرية) DRH. فمشى عبر الممر الطويل، بتخوُّفٍ كبير. لا مما ستقوله له (ماتيلد)، وإنما ببساطةٍ من رؤيتِها. فهذه الحادثة الجديدة تركته مذهولا. لماذا تصرَّف (أنطوان) هكذا؟ فقد كانت حمَته وهو يعلم ذلك. وموقفه تجاهها أصبح الآن هشا في حضن المتحف. ولسوف تُلام على توظيفها شخصا غير متوازن. والأسوأ أنها احتفظت به في وظيفته بعد التنبيه الأوَّل.

طرق الباب، ودخل بهدوء. ولما رأى (ماتيلد) ثانية، وبينما يواجه اللحظة الخطِرة، لم يقوَ على أن يمسك نفسه من رسم ابتسامة.

فسألته بجفاء:

- هل هذا يُسلِّيك؟

- ...

- أسألك إن كان هذا يُسليك؟

- لا، عفوا. ولكنني سعيد بأن أراك ثانية.

- كنتُ أفضِّل أن يكون ذلك في ظروف أخرى.

- لم أكن أدري كيف أتصرَّف. أنتِ لم تجيئي..

- أنت بصدد أن تقول لي إنك قاطعت (فابيان) ثانية.. فقط كي أستدعيك؟

أجاب (أنطوان) وهو منزعج قليلا كما لو أنه تنبَّه إلى غرابة موقفه:

- تماما.

كانت (ماتيلد) قد بقيت مشدوهة. وكانت ثائرة بعمق، ولكن موجة أخرى من الغِبطة اقتربت منها؛ من يمكنه أن يتصرَّف بطريقة

جنونيـة جـدا لـيرى امـرأة؟ فأشـارت إليـه أنِ اجلِـسْ. وبعـد مـدة قالـت:

- بصراحـة، لسـتُ أدري مـا أقـول لـك. فهنالـك وسـائل أخـرى للقائنـا. لقـد وضعتنـي حقيقـة في موقـف محـرج.

- أنا آسِف.

- وهذه المرة، لن أستطيع فعلَ شيء. وينبغي لك الرحيل.

- نعم، بلا شك.

وبعد لحظة سألته:

- وماذا ستفعل؟

- سأعود إلى (ليون).

- ...

- في الأيـام الأخـيرة هـذه، فكَّـرتُ كثـيرا. كانـت سـهرتنا، ثـم وصـول أختـي..

ثـم توقَّـف. العـودة إلى (ليـون). إنـه لم يَصُـغ الأشـياء بعـدُ بوضـوح في عقلـه. صحيـح أنـه تـصرَّف كذلـك لـيرى (ماتيلـد) ثانيـة، ولكـن موقفـه أيضـا كان موقـف إنسـان يرغـب في إغـراق سـفينتِه. لم يكـن يسـتطيع أن يعلـن اسـتقالته بهـدوء، ولا القيـام بالأشـياء بطريقـة متَّزِنـة ومتحـضِّرة، لا، لقـد كان موقفـه هـو ذات الموقـف الـذي كان قـد دفعـه إلى مغـادرة كل شيء. يجـب البـتر بقسـوة لاختصـار الفـوضى.

وانتهـى الأمـر بـ(ماتيلـد) إلى التأثـر، فخاطبتـه فجـأة بضمـير المفـرد قائلـة:

- ما الذي ستفعله في (ليون)؟ هل سترجع إلى منصبك؟

- لا، ليس الآن. لا أستطيع بعدُ.

- إذن ماذا؟ يمكنك أن تقول لي كل شيء..

وفجأة اقترح عليها قائلا:

- كنت أريد أن تأتي معي.

- إلى (ليون)؟

- نعم، رافقيني.

- ولكن.. لا يمكنني أن أنطلق هكذا..

- فقط لمساء واحد.. أنت سترافقينني، وتعودين غدا. إنني في حاجة إليك..

لم يعُد (أنطوان) الرجلَ نفسَه. فالرجل الذي يبحث عن كلماته دوما وجد الضياء. وفجأة، شعر بأنه مصمِّمٌ، ومستعِدٌّ لمواجهة الحالة التي كان قد غادرها. فشرع يدخل في التفاصيل. يمكنهما أن يأخذا سيارة (ماتيلد)، وأن ينطلقا عند إغلاق المتحف. فردَّت عليه: (وطفلاي؟)، ولكنها كانت تعرف الجواب. يمكنها حالا الاتصال بوالدتها كي تجيء لرعايتهما مساء واحدا. ومن أجل عملها، ستطلب إجازة ليوم واحد. لم تكن هنالك أي عقبة أمام هذا الاندفاع. وبينما كانت (ماتيلد) تتظاهر بالتفكير، كانت تعلم سلفا أنها لن تستطيع أن تقول لا. فقد كانت تريد أن تتبع (أنطوان)، ولا يَهُمّ إلى أين.

(17)

لم يكن هنالك، هذا المساء، كثير من الناس على طريق السيارات، وفي بعض الأوقات كانت سيارة (ماتيلد) وحيدة عليه. وهذان المسافران يمكنهما أن يكونا الناجين من كارثة على الكوكب. والظروف الجوية تتوافق من جهة ثانية مع هذه الفرضية. كانت السماء منخفضة ومظلِمة، وكأنها تريد أن تُظهِر سلطانها على الأرض. ومع ذلك، فإن ما يمكن أن يظهر بصفته جوا شديد الوطأة لم يتم الشعور به في داخل السيارة. كان (أنطوان) و(ماتيلد) يتكلمان قليلا، بكلمات متبادلةٍ هنا أو هناك، وبمواضيع ملموسة، ولكن ليس هناك أدنى منظورٍ لمحادثة غيرِ مُقاطَعةٍ باعتراضات تتسلسل بالاتصال. لقد كان بينهما دوما صمتٌ كبير. وربما كان هذا هو تعريف الجاذبية الحقيقية؛ أن يشعر

المـرء بأنـه غـير مضطـر إلى أن يـردم الفـراغ. ولم يفكّـرا أيضـا في تشـغيل الموسـيقى، أو الإذاعـة، لا، فالسـفر في الليـل كان يكفـي لتكثيـف اللحظـة.

كانـت (ماتيلـد) تقـود نـادرا. وكان مفضـلا لديهـا أن تقـوم باسـتراحة. فتوقّفـت في محطـة خدمـة مقفِـرة. وتقدّمـا نحـو جهـاز المشروبـات. وبعـد مـدة مـن البحـث فيـه، انتهـى الأمـر بـ(أنطـوان) إلى أن يعلـن أنـه متردّد بـين (الشـوكولاته) السـاخنة و(الشـوربة). فانبعثـت (ماتيلـد) في ضحِـكٍ جنـوني. فسـأل (أنطـوان):

- ماذا؟ ماذا قلتُ؟

- لا.. لا شيء.. فقـط قلـت (شـوربة) و(شـوكولاته)، وهـما أمـران مختلفـان جـدا. وعمومـا، عندمـا يـتردّد المـرء، فإنـه يكـون مـن الصنـف نفسِـه. وهـذا يشـبه قليـلا قولـك: بالنسـبة للعُطَـل، أنـا مـتردّدٌ بـين جـزر الـ(باليـار) les Baléares[30] و(أيسـلندا) Islande.

فابتسم (أنطوان) قبل أن يُسوِّغ الأمر بقوله:

- بالنسـبة للعُطَـل، أعـرف دومـا إلى أيـن أذهـب. ولكـن الشـكوك الوحيـدة تخُـصّ اختيـار المشروبـات.

- جيد جدا. إذن أقترح أن نأخذ (شوكولاته) ساخنة و(شوربة) ونتقاسمهما.

- فكرة جيدة جدا.

واسـتمرّا يتحدّثـان عـن الأشرِبـة إلى الوقـت الـذي دخـل فيـه زوجـان إلى المحطـة. وتوجّهـا نحـو الجهـاز الـذي أدخـل فيـه الرجـل قطعـة نقديـة مـن غـير أدنى تـردُّد. وضغـط عـلى زر (القهـوة بـلا سُـكّر). وقامـت المـرأة بـذات المهـارة بالضغـط عـلى زر (قهـوة بالحليـب) وبالضغـط ثـلاث مـرات عـلى زر الخيـار (سُـكّر). وانطلقـا بقدحيهـما بسرعـة كبـيرة كالتـي وصـلا بهـا. كان (أنطـوان) يتابعهـما بالنظـر، وهـو مأخـوذٌ بمثـل هـذه السلاسـة

(30) جزر الباليار: أرخبيل إسباني في غربي البحر المتوسط ذو حكم ذاتي، أبرز جزره (مايوركا) و(مينوركا) (المترجم).

في الحياة الجارية.

أفادت (ماتيلد) من وقت خفة الروح لتسأل (أنطوان) عن تفاصيل رحلتهما، بالقول:

- هل نذهب إلى بيتك في (ليون)؟

- لا، لقد سلَّمتُ شقتي.

- سنذهب إذن إلى الفندق؟

- لا أدري. سنرى. فأنا في حاجة فقط للذهاب إلى جهة معينة.

فردت من غير إلحاح قائلة:

- تمام..

من الواضح أنه يجب عدم طرح كثير من الأسئلة. فقد كانت تشعر أن عنده تحت هيئتِه الهادئة خوفا دفينا. إنه يُصارِع كي يمتلك شجاعة العودة إلى (ليون)، ويبدو أنه لا يزال فريسة للشك. وكان قد قال لها، عدة مرات، إنه لا يستطيع من دونها أن يقطع مسافة الطريق. وقد جعلها ذلك مسرورة، لأنها كانت ترغب في أن تكون نافعة لهذا الرجل، وكانت ترغب في أن تتَّبِعه في الظلام، وكانت ترغب في أن تتَّبِعه في النور. ولم يكن الأمر مسألة فضول. ولسوف تعلم بالتأكيد ما الذي جرى في حياته حتى يهرب هكذا، وستبقى تهدئتُه أمرا ضروريا في نظرها. فقد كان لديها شعورٌ، في يوم لقائهما، بأنها أمام رجلٍ يتزحلق، رجلٍ يوشِك أن يسقط حتى وهو جالس. وقد التقيا الآن في وسط اللامكان. وعلى الرغم من المكان الذي لا نظير لقبحه، فقد كان فيه شيء من المودَّة تلامِسُه.

(18)

وفي منتصف الليل تقريبا، وصلا إلى محيط (ليون). تلك المدينة التي تُدعَى (مدينة الأنوار). كان (أنطوان) يرشد (ماتيلد) إلى الطريق، وتوجَّها نحو (تاسّان-لا-دومي-لون) Tassin-la-Demi-Lune، وهي

بلـدة في الضاحيـة الغربيـة. وقـد لاحظـت (ماتيلـد) أن الاسـم شـاعري[31]، وكانـت ميّالـة إلى أن تجـد كثـيرا مـن الأشـياء الشـاعرية. ومـع أنهـا سـتبقى مـدة يسـيرة في (ليـون)، فقـد كان يبـدو لهـا أن الوقـت الحـاضر كان يشـبه الحالـة الدائمـة. لم يكـن هنالـك أحـدٌ في الشـوارع، ومـا كانـت تـدري إلى أيـن يذهبـان. ويبـدو أن (أنطـوان) أيضـا لم يكـن يعـرف المـكان. وانتهـى بـه الأمـر، بعـد شيء مـن الـتردُّد، إلى أن يجـد طريقَـه. فقـد كان هنالـك في آخـر الجـادّة. انطلقـت (ماتيلـد) بالسـيارة بهـدوء أكـثر فأكـثر. بإيقـاع معاكـس لإيقـاع قلـب (أنطـوان) الـذي كانـت تشـعر بـه يخفُـق أكـثر فأكـثر. قـام بإشـارة مـن يـده، فركنـت السـيارة أمـام مقـبرة.

خـرج (أنطـوان) مـن السـيارة، وتقـدم نحـو البـاب المشـبَّك الكبـير. وفضَّلـت (ماتيلـد) عـدم الحركـة، نظـرا لأنـه لم يطلـب إليهـا اللحـاق بـه. وظـلَّ واقفـا مـدة ثابتـا أمـام المدخـل، وكان يـرى أنـه لا يُعقَـل أن يكـون مغلقـا، وكأنَّ للمـوتِ مواعيـد.

ولـذا عـاد إلى السـيارة مـن غـير أن يقـول شـيئا. كان عليـه أن ينتظـر الصبـاح. وشـعر بأنـه مسـتهلكٌ، لبذلـه طاقـة غـير محـدودة للحضـور إلى هنـا. فكَّـرت (ماتيلـد) بوجـوب الذهـاب إلى فنـدق. وقـد رأت عـلى جوّالِهـا أن فنـدق (تاسّـان-لا-دومي-لون) يسـتقبل النـزلاء 24/24. فتوجَّهـا إليـه. كانـت هـذه الحـركات الأخـيرة قـد تمـت آليًا، مـن غـير أدنى تخطيطٍ مسبَّق في الواقـع، ولا تفكـيرٍ في أنهـما سيتقاسـمان عـما قليـلٍ الغرفـةَ نفسَـها. لقـد كانـت بينهـما مثـل هـذه البسـاطة والرغبـة بالتأكيـد. ولكـن ليـس هـذا بالوقـت المناسـب. وقـد تمـدَّد أحدهـما إلى جانـب الآخـر، ووضعـت (ماتيلـد) رأسَـها عـلى صـدر (أنطـوان). فضمَّهـا بـين ذراعيـه. فغفَـت، إلا أنـه لم تغمـض لـه عـين. ومـن النافـذة كان بإمكانـه أن يلمـح نصـفَ القمـر،

(31) الاسم المذكور يعني: (تاسّان نصف القمر). (المترجم).

ففكر في أن اسم البلدة معه يكوّنان قمرا بدرا.

في هذه الفترة من السنة، كانت المقبرة تفتح في الساعة 8:15. استيقظت (ماتيلد) كما نامت، بجانب (أنطوان) تماما. لقد مرَّ عليها زمنٌ طويل جدا لم تنم فيه مع رجل، وكان ذلك يبدو لها للمرة الأولى. كانت ليلتُها مضطربة بأحلام مرهقة، هي نوع من الأحلام التي يراها المرء عندما تكون حياتُه متأرجِحة، حيث يثور اللا وعيُ بإفراط. ولم تغمض لـ(أنطوان) عينٌ، لكنه مع ذلك كان يشعر بارتياح. لقد تركا النهار يرتفع وتضاحيا في النهوض.

غادرا المبنى من غير أن يتناولا فطورهما. لم يكن (أنطوان) يرغب في الانتظار، ولم يكن يستطيعُه. فكانا أول من يمشي في ممرات المقبرة، وكانت السماء، بعكس الأمس، قد تموضعت في ارتفاعها، مانحة النهارَ المشرق نورا أهدأ. اقترب (أنطوان) من ضريح. لم تتمكَّن (ماتيلد)، التي كانت وراءه بالضبط، من أن تقرأ مباشرة الاسم المنقوش على الحجر. فأزاحت بهدوء لتكتشف الاسم بالتدريج:

(كاميل بِرُّوتان)

CAMILLA PERROTIN

2017 - 1999

القسم الثاني
(1)

كان كلٌّ من (لويز) و(أنطوان)، قبل بضعة أشهر - يجلسان في جانبي صالونهما، وأتت (لويز) - لأول مرة - على ذكر كلمة (انفصال).

لقد كانا، طوال سنوات، من أولئك الأزواج الذين كانوا يشكلون شخصا واحدا، ولم يكن أحدٌ يقول (أنطوان) أو يقول (لويز)، وإنما كما يقال (أنطوان ولويز)، ويرسم لهما مستقبلا بهيجا، وينتظر زواجهما، ويتخيَّل لهما طفلا قادما، ولكن بعد سبع سنوات، قرَّرا أن ينفصلا. وكان ذلك مفاجأة تامة لمحيطِهما. ولكن لويز كانت تفكر فيه منذ مدة. وقد باحت بذلك لصديقتها المفضَّلة التي حاولت طمأنتَها. وهذا يحصل في كل قصص الحب بأن يملك المرء قلبا يَخفُق بوتيرة أقل، فزمن (الفراشات في البطن)[32] يتوقف لبعض الوقت. وفكَّرت (لويز) في هذا التعبير (الفراشات في البطن): ما هو؟ إنه زمنٌ كان المرء ينتظره بفارغ الصبر ليختلي بنفسه كل مساء، زمنٌ لا يعيش فيه المرء حياته إلا ليرويها للآخر.

وهكذا، طارت الفراشات، إلا أن سِحرَها كان باقيا، وقد كان قلبُها يَخفُق عندما كانت تفكِّر في (أنطوان)، ولكن كان صحيحا أن تلك

---

(32) التعبير الفرنسي (les papillons dans le Ventre) هو كناية عما يعتري المرء من شعور بدغدغة في الجسم عموما في أول وقوعه في العشق وما دام عاشقا، وهي بالنسبة للغتنا وخيالنا كناية غير مستحبة، كما أن بعض كناياتنا يراها الفرنسي غير مستحبةإن ترجمت له إلى لغته. (المترجم).

الخفقات كانت تتباعد أكثر فأكثر. وكان من الصعب أن يعيش المرء بقلبٍ لا يخفُقُ إلا من حين إلى حين.

يمكن أن يُشبَّه ضعف الإرادة بقُنوطٍ تقليدي. والحق يُقال، لم يكن الأمر كذلك. وقد استغرقت (لويز) زمنا طويلا لتعترِف بذلك، غير أن الأمر كان أخطر؛ فهي لم تكن ترى في (أنطوان) أبا لأطفالِها. وكانت تلوم نفسَها، لأنها أحبَّتْه منذ سنوات. ولكنها لم تصل إلى أن تتخيَّل المستقبلَ معه. فكلاهما كان يبلغ من العمر أزيد من ثلاثين عاما، حتى إن (أنطوان) يبلغ سبعة وثلاثين عاما، ومع ذلك كانت ترى أن قصتَهما كانت حُبَّ شباب، وقد حاولت مرارا أن تتحدَّث إليه بشأن ذلك، ولكن بطريقة مُوارِبة جدا ولم يكن هو ليفهم إلى أين تريد أن تصِل. لقد كان يشعر أنها تبتعِد عنه أوقاتا، وكان ذلك يُحزِنه. إلا أنه كان يركِّز على عملِه، وعلى طلابِه، وعلى محاضراتِه، إلى حدٍّ أنه لم يكن يلمح حقيقة قُرب وقوع الخطر. وعندما قرَّرت (لويز) قطع العلاقة، جعلته يتقبَّل أن هذه العلاقة لم تعُد كما كانت من قبل. وكانت تريده أن يشاطرَها مسؤولية هذا القرار الذي يتَّخِذانه باتفاق مشترك. فهل يتمّ ذلك حقيقة بانفصالٍ؟ وعندما يكون ذلك قرارا مشتركا فهذا يعني أن أحدهما قد أقنع الآخر.

لم يتخيَّل أحدهما حياته من دون الآخَر. كان لدى (أنطوان) شعورٌ بأنه كان دائما يعرِفها. وهو لم يكن يتذكَّر كيف كان الأمر قبل (لويز) كما لو كان ظهورها قد أدَّى إلى التغاضي عن ماضيه. فقد كان حتى سن الثلاثين شابّا شاردَ الذهن، وكان عقلُه في الكتُب واللوحات، وقضَّى سنين في كتابة أطروحةٍ، وعاش واقعه أن يعلِّم في (الفنون الجميلة) كما لو أنه نَذْرٌ عليه. ودخلت (لويز) إلى حياتِه، وكان يفهم أن السعادة يمكن أن تكون حقيقة.

وهكذا، وبعد سبعة أعوام لم يكن ذلك لِيوجد قطّ.

لم يكن يشعر أنه قد دُمِّر، وكان معها حقٌّ، فهو لم يكن يعرف كيف يقدِّم لها المستقبل كأنه وَعدٌ. وكان يريد أن يفعل، ولكن ذلك جاء متأخِّرا جدا. وكانت (لويز) قد بَثَّتْ في الأشهر الأخيرة إشاراتٍ عاطفية قلِقة، وهي تمهيداتٌ للقطيعة. هل كانت لديه رغبةٌ في أن يؤسِّس أسرة معها؟ كان يقول: نعم، بالتأكيد. ولكنه كان قادرا على أن يشكّ في ذلك أحيانا. لقد كان يحِبّ حياتَهما الحرَّة، النشِطة في الحاضر. والآن يريد (أنطوان) التغيُّر. وقد حاول أن يُفهِم (لويز) أن كل شيء لا يزال ممكنا. ولكن لا، لم يعد الأمر موضوعَ نفثةٍ ثانية بينهما. فقد انتهى الأمر. لقد سألها:

- هل التقيت أحدا آخَر؟

فردت (لويز):

- لا، بالتأكيد لا.

(2)

ورحلت بعد بضعة أيام. وفي الحمّام، كان (أنطوان) ينظر إلى علبة فراشي الأسنان، فلم يرَ سوى فرشاتِه. كانت الحالة حقيقية تماما. وكان كل تفصيل تافه يأخذ أبعادا لا يمكن تلافيها، فقرَّر رمي العلبة، وكذلك كل الأشياء التي كان يُخشى أن تشير إلى غياب (لويز). من وسائد، وشُوَكٍ، وحتى مسّاكة باب كانت تعلِّق عليها عقودا. وبعد بضع ساعاتٍ من الهِياج العبثي، قرَّر أن من الأفضل أن يغير سكنه. وعندما غادر الشقة، لم يشعر بأي انفعال. فقد خدَّره اكتئابُه بطريقة ما، وقال وداعا لديكور حبِّه الأكبر، وأصبح الوجع الذي كان يخفُق داخله وجعا أصمَّ.

***

فكَّر (أنطوان) عدة مراتٍ في الطفل الذي لن يولد له أبدا من (لويز)، وفي الليل عادت إليه صورة التجسيد الافتراضي لمستقبلٍ ميِّتٍ،

بنت أم صبي؟ ماذا سيكون الاسمُ: (جانّ) Jeanne أم (هكتور)Hector ؟ من المستحيل أن يتخيَّلَه، إنه رواية لن تكتب أبدا.

***

الحياة استمرَّت، كما يُقال في العادة. أخذ (أنطوان) حوائجه إلى شقة جميلة مطلة على الأرصفة. صحيح أنه كان يكسب عيشه بصورة أفضل بكثير، ولكن هل كان في حاجة إلى مساحة كبيرة جدا؟، وكان ذلك طريقة ليُرِيَ أو ليجعل نفسَه تعتقد أنه بخير، كما لو أن مساحة الغرف كانت تعبِّر عن شهية الحياة. فقد استأجر، لا شعوريا، شقة فسيحة بما فيه الكفاية للمِّ محتملٍ للشمل. ففي بداية كل قطيعة، يمكن أن يتصور المرء أنها مؤقتةٌ وينتهي الأمر بالوصول إلى ما ليس موجودا. إنها أزمة عابرة. وهذا توهُّمٌ لبضعة أسابيع. وكان (أنطوان) يظن مع ذلك أن (لويز) لن تعود. فقد كانت تتكلَّم معه على الهاتف بنبرة شديدة. وكانت تسمي ذلك دوما: تهذيبَ نهاية الحب. كان (أنطوان) قد أصبح جهازا كهربائيا معطوبا في المنزل، ولكنه لا يزال قيد الكفالة. وكي لا يرتبك أو يشعر بالذنب، كان يضع وردة في أوقات يأسِه. وكان يقول لها: كلُّ شيء سيسير سيرا حسنا، وقد كانت هي تفتقده، غير أنهما قد اتَّخذا بالتأكيد القرار الصائب. وهذا الأمر لم يكن خطأ تماما، وكان يحصل له أن يعتقد بذلك. وفي بعض الأيام كان يحب حياتَه الجديدة قليلا، ولكنه كان يحس، في أغلب الأحيان، بحزن لا نهاية له. وأحيانا كان يستيقظ في عِزِّ الليل وهو يتساءل عما كانت تفعله. فالمفروض على المرء أن يعرف كلَّ شيء عمن كان يشكِّل معه زوجا. ويمكن لذلك أن يصبح دواء لا يُطاق استعباده: أين هي؟، من ترى؟، ماذا تفعل؟، وبعكسِ مزاعِمِها ربما تكون قد التقت أحدَهم. لا، ليس الأمر كذلك. وانتهى به الأمر إلى أن يكون واثقا بها. إنها لم تغادِر من أجل رجل آخر، لقد فضَّلت (لويز) العزلةَ عليه.

ومرت الأسابيع، وتباعدت الرسائل عن أخبار صغيرة مما يتساءل المرء عنه هنا أو هناك، ثم من قليلٍ إلى أقلّ، وكل ما هو موجودٌ أصبح بذلك فعلا من الماضي.

(3)

انغمس (أنطوان) في العمل وكان يذهب غالبا لزيارة (باتينو) Patino، مدير المدرسة، ليقترح عليه أفكارا، فقد كان يريد أن ينظِّم رحلة دراسية إلى (إيطاليا) مع مجموعة طلبة، كما يرغب في إنشاء نادٍ سينمائي للهواة لا تُعرض فيه سوى أفلام عن الفن، ويفكِّر أيضا في ضرورة أن يُدعى إليه مزيدٌ من المتداخلين الخارجيين. فلا شيء أغنى من شهادة فنّان، أو صاحب صالة عرض galeriste، أو ناقدٍ فنّيّ. وقد ردَّ عليه (باتينو) ذات يوم قائلا:

- ولكننا لم نتوقَّف، ففي هذا الأسبوع سيأتي فيلسوفان: أحدهما عالم اجتماع، والآخر كاتبٌ.

فرد (أنطوان) بقوله:

- آ.. نعم، هذا صحيح..

وبدأ المدير يتساءل فيما إذا كان إفراط هذا الأستاذ في توظيف المال دليلا على شيء قريب الحدوث.

أوشكت السنة الدراسية على البدء. وكان (أنطوان) قد اكتشف جيلا جديدا كاملا من الطلبة.

وهنالك علاقات أخذت تُنسَج، وبعضها سيستمر. وكان يسعد بلقاء تلاميذه القدماء في المدينة، ويكون سعيدا دوما بعلمه أن فلانا منهم ذهب للعرض في (براغ) Prague[33] أو أن آخراً يعمل في التحضير لمهرجان

(33) وهي عاصمة الجمهورية التشيكية اليوم. (المترجم).

البندقية la Biennale de Venise[34] وكان يشعر أنه مخوَّلٌ بمهمَّة جعل المواهب تتفتَّح، كما أنه كُلِّف بتقديم محاضرات عن تاريخ الفن في السنتين الأولى والثانية. كانت مدرَّجاتُه مزدحمةوجمهوره نهِمٍ للمعرفة. في بداية علاقة (أنطوان) بـ(لويز)، كانت (لويز) تُحِبّ الجلوس برصانة في أسفل المدرَّج، من دون تفادي (أنطوان)، وفي وسَط محاضرتِه، وبينما كان يتكلَّم عن (مونك) و(موشا) أو (موخا بالتشيكية) Mucha[35]، اكتشف امرأتَه التي كانت تحدِّق فيه بابتسامة، ومنذ رآها كان يتوجَّب عليه أن يضع عبارة (عصير مشمش) في جملة. وكانت هي رمزَهما، ولعبتَهما. وكان (أنطوان) يندفع حينذاك في استطرادٍ عابِرٍ حيث يذكر أنه كان الشراب المفضَّلَ لدى (بيكاسُّو). وكل الناس كانوا يتساءلون لماذا كان يتناول هذا التفصيلَ فجأة، ولكن مع كل هذا كان هو سيِّدَ محاضراته. ومن الآن، لن يشرب أي فنان عصير مشمش.

في هذه السنة الجديدة، كان (أنطوان) قد قرَّر أن يتخفَّف من مواضيعه المفضَّلة[36] فلن يلقي أي محاضرة عن (موديلياني) أو (تولوز-لوتريك) Toulouse-Lautrec[37]، وسيعود بالزمن إلى (كارافاج) Caravage[38] في محاضرة بعنوان (كارافاج في المرآة) حول ظهور شكل اللوحة. وفي محاضرة أخرى أكثر معاصرة حول الرسم الأمريكي في

---

(34) وهو مهرجان يُقام في البندقية كل سنتين منذ سنة 1895 إلى اليوم، ويشتمل على فعاليات فنية راقية من فن، وعمارة، ورقص، وموسيقى، ومسرح. ويُسمَّى بالإيطالية: la Biennale di Venezia أو Biennale Arte. وتشارك فيه كثير من دول العالم، ومن الدول العربية التي شاركت فيه سنة 2019: سورية، ومصر، والعراق، والسعودية، والجزائر. (المترجم).

(35) موشا: (ألفونس - Alphonse) مصور تشيكي متعدد المواهب (1860-1939)، كان أول نجاح له في (باريس)، عاد إلى بلاده ورسم عدة لوحات بلغت نحو 20 لوحة زيتية عريضة ما عُرِف بـ(الملحمة السلافية) بين سنتي 1910 و1928. (المترجم).

(36) هل يجب أن نرى في ذلك نتيجة للمقاطعة؟

(37) تولوز-لوتريك: (هنري دو - Henri de)، مصور ومصمم إعلانات وطبّاع على الحجر فرنسي (1864-1901). (المترجم).

(38) كارافاج: (ميكيلانجيلو ميريسي Michelangelo Merisi) الملقب بالـ (كارافاجّيو) Caravaggio نسبة إلى بلدته، وبالفرنسية الـ(كارافاج)، رسام مصوِّر إيطالي (1573-1610) وكان أكبر رسام مصور في المدرسة الرومانية، كانت أعماله الواقعية تتجلى في معالجة الضوء، وكانت طريقته (الكارافاجية) ذات تأثير واسع في مجاله. (المترجم).

السنوات من 1970 إلى 1980، مع تأثير زمن الـ(بونك) punk[39] ثم سنوات الـ (سيدا) sida[40] وهكذا انتقل من عالَمٍ إلى آخر، كما وكان لدى (أنطوان) فصول أعمال موجَّهة عددمن الطلبة الذين كان يشرف على أبحاثهم.

وهذا على الأقل لم يكن قد تغيَّر؛ فالتعليم كان يملؤه بفرحة شديدة، فقد كان يحب طلابه وفي كل مرة يدخل فيها إلى قاعة الدرس كان يشعر بالتوافق مع نفسِه، فهناك ينبغي له أن يكون هناك وليس في أي مكان آخر، لقد كان مراهقا منعزلا، وبالحقيقة كان عنده مرض في الجلد، وقد أضعفه والداه، من غير أن يكونا مضرَّينِ به، بإظهارهما عطفا ليس بالكثير، ولذا كان لديه شعورٌ بأنه بنى نفسَه لوحدَه تماما، وقد ملأه ذلك بالفخر. كما أن النَّهَم للمعرفة لديه، قد زوَّده بصلابة في حياته. وقد عانت أخته (إيلوينور) من التردُّد الأصلي نفسِه، تزوَّجت شابّة وسُرعان ما أنجبت ابنتَها (جوزفين) Joséphine. وكان ذلك طريقة لمعالجة الافتقار إلى الجذور. وكان (أنطوان) يحب زيارتها، ليلتقي بابنتِها خاصة. كانت تقفز دوما بين ذراعيه وهي تصيح: (تونتون) tonton[41]. وإنه لَطَعْمٌ لا نظير له أن يكون المرءُ منتَظَرا هكذا في مكانٍ ما.

(4)

لم تكن (إيلوينور) لِتَكُفَّ عن القول له: (يجب عليك أن تخرُج، يجب عليك أن تلتقي بفتاة أخرى، وليس ضرورياً أن تكون العلاقة

(39) الـ(بونك) نوع موسيقي سريع وقوي مشتق من موسيقى الـ(روك) rock ظهر على يد حركات احتجاجية شبابية في منتصف السبعينيات 1974-1976 في كل من الولايات المتحدة، وبريطانيا، وأستراليا، وكانت ترفع شعار (اعمَلْه بنفسِك) Do it yourself، وقد أثرت في مجالات الفنون والموضة والفكر والأفلام. (المترجم).

(40) سنوات الـ(سيدا) وهو [الإيدز aids بالمختصرات الإنجليزية]، وتمتد سنوات الـ(سيدا) في فرنسا من سنة 1983 إلى سنة 1995، وهي فترة اتساع هذا الوباء، منذ اكتشاف العامل المسبِّب إلى وضع علاج له أسهم في تقليص الوفيات تقليصا كبيرا. (المترجم).

(41) تونتون: تعني بالعامية (خالو) بلغة الأطفال. (المترجم).

جادة، بل مجرَّد نوم، وسيجعلُك ذلك على ما يُرام). لم يكن (أنطوان) يحب ذكر هذا الموضوع مع أخته، ولكن معها حقّ. فأفضل شيء يُعمَل هو التخفيف من ذكرى (لويز) بمساعدة نساءٍ أُخرَيات. ولكن كيف؟ ولم يكن مرتاحا قط للإغراء. وكانت فكرة أخذ (موعدٍ) تبدو غيرَ لائقة.

كانت هناك (سابين) Sabine وهي إحدى الإداريات في المدرسة، وكان يتناول الغداء معها من حين لآخَر، وقد كان يشعر، حين يحدِّثها عن انفصالِه، بأنها كانت ترى في علاقتهما فرصة لتغيير النغمة، كان (أنطوان) يحب الثرثرة معها غير أنه لم يكن يراها شريكة محتملة. فهي من الناحية الخَلْقِيّة لم تكن جميلة ولكنه كان يرى أنها تبذل جهودا كثيرة لتبدو أُنثَى، ولديها طاقةٌ شمسية إيجابية دائما، كما أنها تعشق التجوُّل في محلات السلع المستعملة يوم الأحد، ولديها أسرة لطيفة وابن خالة مختلٌّ قليلا. وعندما اقترحت عليه تناول العشاء بدلا من الغداء، شعر، على الرغم من كون ذلك كله كلاما جاهزا، بأنهما زميلان عازبان في مدينة كبيرة. ولذا كان مقرَّرا لهما سلفا تقريبا أن يناما معا.

كانت (سابين) قد عاشت علاقة لمدة ثلاث سنوات مع رجل متزوِّج، وكان طيلة تلك السنوات يتحدث عن أنه سيفترق عن زوجته، وفضلا عن ذلك يتحدَّث عنها دوما، ولكن (سابين) رحلت عنه منهكة. وكانت تتصوَّر أنها ستكون يائسة من فكرة عدم لقائه، فكان العكس؛ ارتياحٌ واسعٌ لعدم انتظارها شيئا. فكانت (سابين) تعيش خاضعة لطغيان فرضية حياةٍ لم تتمَّ قطُّ، وكان ذلك يبدو لها من العبث الآن أن تأمُل شيئا شديد الاستبعاد. وبقليل من التراجع اتَّضح كلُّ شيء. فالرجل المذكور لم يكن يرغب قطُّ في علاقة جادة معها، فقد استعملها وهو يلعب عليها ملهاة عاطفية دنيئة. وقد كان لديها

انطباعٌ بأنها مَهيضة الجناح. ولحسن الطالع كان مزاجها إيجابيا إلى حد عدم التصديق، حتى خارج نطاق أي منطِقٍ انفعالي، وسرعان ما تجاوزته إلى أمر آخر.

كانت (سابين) تقدِّر (أنطوان) دوما، وربما أكثر أيضا منذ أن لاحظت على وجهه غشاوة خفيفة من الحزن. فهنالك أشخاص يرغب المرء في مواساتهم، ويُترجَم ذلك بانجذابٍ جسدي. وكانت تريد تهدئة باله بخلع ثيابه، وتقديم الشراب له. ولذلك أيضا كانت قد اقترحت عليه أن يلتقيا في مطعم قريب من بيتها، وقالت إن الأطباق فيه ممتازة، وهي تفكر تماما في أن الميزة الأولى لهذا المكان هي موقعه. فقد مرَّت عدة أسابيع لم تلتق فيها مع رجل، وكانت ترى في هذا العشاء تمهيدا لذلك. ولم يكن (أنطوان) أيضا قد التقى امرأة منذ انفصالِه عن (لويز). وكانت لديه رغبةٌ بالتأكيد في ذلك. وقد دفع كلُّ ذلك موعدَهما بطاقةٍ ضاغِطة، فشربا كثيرا فورا ليُلقيا نفسَيهِما في ثَمَلٍ لطيف.

وكانا قد قرَّرا ألا يذكرا أي زميل، وألا يتناولا التنظيم العام للمدرسة، وأن ينسيا أنهما يعملان فيها معا. فليس هنالك ما هو أسوأ رومانسية من أن يتحدَّث المرء عن حياتِه المهنية أثناء موعد خاصٍّ. ولم يكونا يريدان أن يكونا جزارين يتحدَّثان عن لحمة ضِلْعٍ.

أمسكت (سابين) الأمور بيدها للابتعاد عن الموضوع، قائلة:

- تعلم أنت أنني لم أكن لأجرؤ قطّ على أن أسألَك عن ذلك.. وإنما..

- ماذا؟

- هل لك قرابةٌ مع الممثِّل (رومان دوريس)؟

- نعم، إنه ابن عمي.

- آ.. إنني أحبُّه جدا. إنه لأمرٌ رائعٌ أن يكون هنالك مشهورٌ مثله في أسرتك.

- نعم، إضافة إلى أنه لطيف جدا. وهو يروي دائما أخبارا عن تصوير أفلامه.

- وماذا يُحضِّر في هذه الأوقات؟

- يحضِّر فيلما ضخما.. أمريكيا.. ولكنه طلب مني ألا أتحدَّث عنه.

تنهَّدت (سابين) مع شك في نبرة صوتِه، وقالت:

- آ.. نعم، فهمتُ.

وبعد (رومان دوريس)، تطرقا إلى ذكر ميولِهما السينمائية، ثم الموسيقية، وختما ذلك بالحديث عن الروايات المفضَّلة. إن ذكر ما يحبُّه المرء طريقة سهلة للحديث عن الذات. وبالتدريج كان عالمهما الثقافي يرسم ملامح إحساسِهما. ولقد تعارفا الآن بالتأكيد تعارفا جيدا جدا، ولكنهما لم يأخذا وقتهما للاهتمام حميميا ببعضهما. وانتقلا إلى مواضيع شخصية أكثر ولاسيما الطفولة. وسرعان ما استبعد (أنطوان) هذا الموضوع، وقد فهمت (سابين) بكل لطف أنه يجب عدم الإلحاح عليه. وقد ذكرت وفاة أبيها، بعد أيام من بلوغها سن الثامنة عشرة، ومأساةَ حياتِها. وتلفَّظت ببضع كلماتٍ ببطءٍ وبشدة مفاجئة، جعلت (أنطوان) يضطرب منها. فكان يشعر بأنه أحمق لحكمِه عليها حكما سطحيا قليلا. ثم إن (سابين) أخذت تتحدَّث عن الرجل المتزوِّج الذي كانت لها به علاقة. وقد حرَصَت على أن لا تجعل قصتها مُغمَّة كثيرا، وتركت لنفسها أن تصِل إلى البوحِ بأسرارٍ تكشف عن ماضٍ مشؤوم لم يكن ظاهرا. وذهبت إلى حد الكذب بادِّعائها أنها كانت سعيدة معه، بالقول:

- أعلم أن ذلك كان مأزِقا، غير أنه كان خيرا لي.

- أفهم ذلك.

- وأنت؟ ماذا حصل لك مع خطيبتك؟ لقد كنتُ أظنّ أنك تنعَم بالحب الأكمل.

قال وهو حزين بغتة:

- حسنا، يجب أن نؤمن بأن الكمال له نهاية.

أدركت (سابين) مباشرة أنها ارتكبت خطأ بتناولها موضوع (لويز).

ولم يكن في وسعها إلا أن تقول إنها آسفة، ولكن (أنطوان) طمأنها قائلا:

- لا بأس. لقد كان لديَّ وقتٌ لتحليل الوضع، وأنا أفضل هكذا بالتأكيد. وما هو معقد فيما بيننا أنه لم يكن هنالك سبب ملموس لانفصالنا. ولم تكن هي قد التقت شخصا آخَر..

فسألته (سابين) غريزيا، مع أنها كانت تعرف الجواب، قائلة:

- وأنت؟

واكتفت بابتسامة.

وفي نهاية وجبة الطعام، وبينما أصبح إيقاع الكلام متسارعا، شرعا في الكلام بشكلٍ أقل. وحلَّت الإشارات محلَّ الكلمات. ولم يطلبا فواكِهَ. ثم توجَّها إلى بيت (سابين). ولا حاجة لتوضيح ما سوف يجري. فليس بينهما أي انزعاج، فقد كان الأمر بسيطا ولطيفا. كان (أنطوان) يحس نفسَه رشيقا، وكان الشراب وراء ذلك بالتأكيد، ولكن لم يكن سوى ذلك.. ومن نحو آخر، لقد غيَّر اكتشاف (سابين) في الأمسية كلَّ شيء. فلقد أضفى الليلُ عليها فتنة مفاجئة.

هما الآن في الصالون. لم يميِّز (أنطوان) أي تفصيل في المكان. ولكنَّ شيئا ما غريبا حصل فجأة. فقد اجتاحت (أنطوان) صورٌ لـ (لويز). فكيف كان ذلك ممكنا؟ فطوال الأمسية كان يشعر أكثر فأكثر بأنه سعيد وحُرٌّ، كانت فكرة المتعة مصحوبة بحزنٍ مفاجئ وانزعاج أيضا. كان لديه شعور بأنه لن يعاني من الانفصال، ومع ذلك أصابه وميضٌ من الإدراك فحواه: إن (لويز) تفتقده كثيرا.

تراجع. فسألته (سابين):

- هل هنالك مشكلة.

لم يتوصَّل (أنطوان) إلى تفسير ما أربكَه. حاولت (سابين) أن تجادله. فكان أمرا عبثيا. ولا يمكن للمرء أن يقف هكذا. فاعتذر وتظاهر بأنه يقوم. فحاولت أن تثنيه بالكلمات والحركات. ثم سألته:

- هذا الأمر بسببِها؟

فقال:

- نعم.

وغادر الشقة على عجل.

(5)

في الأيام التالية، تجنب الزميلان أن يلتقيا. وعندما حدث ذلك رغما عنهما، تبادلا بعض التفاهات. وانتهى الأمر بـ(سابين) إلى أن توجِّه إليه رسالة تقول فيها: (لقد أمضيتُ معك أمسية رائعة، ولا ألومك، وإني لأنتظرك). وكان يرغب في أن يرد عليها، ولكنه لم يفعل.

لم يكن مستعدا للارتباطِ بأيّ امرأة كانت، وقد فهم ذلك الآن. ومع ذلك، لم تكن المسألة مسألة بداية قصة، على الأقل في هذا الوقت، ولكنها مسألة قضاء أمسية جميلة. بعض الأشياء كانت تمنعه. إن بعض أصدقائه يمكنهم الارتباط بلا أي مشكلة مع أول فتاةٍ قادمة. وهو يريد أن يكون مثلَهم، ويهرب إلى استبداد العاطفة. وبعد بضع دقائق من تعبيره عن ذلك، تلقَّى (أنطوان) رسالة من (لويز) تقول فيها: (لربما يمكننا أن نتغدَّى في الأسبوع القادم)، وكانت تلك إشارة. وقد ردَّ عليها بقوله: (بكل سرور). فقد كان سعيدا بأن يراها، حتى لو أنه كان دوما في بلبلة. ففي يوم كان يفهم انفصالَهما، وفي اليوم التالي تقوِّضه.

كانت عدة أسابيع قد مضت منذ آخر حديث بينهما، ولكن كان لديه شعورٌ بأنها كانت تعود للأمس. ربما كانت (لويز) في الحالة

العقلية نفسها لحالته، لقد كانت تريد هذه القطيعة، ولكن كان عليها أن تشعر بالألم من كل بُدٍّ. هل كانت تهرب، هي أيضا، في وقت الذهاب للقاء رجل آخَر؟ فعند مواجهة الآخرين، كان يتبين لهما بأنهما لم يكونا يستطيعان العيش بانفصال. فكثير من الأزواج يفترقون من أجل أن يلتقوا لقاء أفضل. ربما لم تنتهِ قصتُهما.

في هذا المساء، سوف يذهب لتناول العَشاء عند أخته. كان زوجها في جولة، وكان (أنطوان) يفضل دوما أن يجيء في غياب صهره. ليس عنده شيء ضدَّه، ولكنه كان تاجرا يبدو أنه ينظر دوما إلى الآخرين من فوق. وفي رأيه، كانت مهنة (أنطوان) هواية لطيفة أكثر منها نشاطا لبالغ. فضلا عن أن النقاشات كانت تنتهي دوما بعبارة (وهذا يَكْسَب كم؟) التي لم تكن تلتفت إلى فائدتِها. وباختصار، كان يمر عندما تكون الطريق شاغرة. وقد اشترى (أنطوان) لـ(جوزفين) كتابا فيه إعادة نشر لـ(أنغر) Ingres[42] و(فيرمير) Vermeer[43]، وفي كل مرة يأتي فيها، كان يقضي وقتا طويلا مع ابنة أخته قبل أن تخلد للنوم. كانا يشاهدان لوحات (أنغر) و(فيرمير). وكان النُّعاسُ يصيب الفتاةَ الصغيرة بصُوَر الجمال.

وذات مرة، وقد عاد (أنطوان) إلى الصالون، جلس إلى طاولة. وكانت أخته قد حضَّرت سلطة تشبه بحثا مضطربا مليئا بالاستطرادات غير المفهومة، فقال لها:

- لقد سمعتُ نصائحك.

- حسنا.. أيُّ تلك النصائح؟

---

(42) أنغر: (دومينيك - Dominique)، رسام مصوِّر فرنسي (1780-1867)، يصوِّر (بورتريهات)، وعُراة، ومشاهد أسطورية، من أشهر لوحاته (الحمّام التركي). (المترجم).

(43) فيرمير: (يان - Yan)، رسام مصوِّر هولندي (1632-1675)، نُسِي بعد موته، وتمت إعادة اكتشافه سنة 1866، فكان أحد الأساتذة الأكثر إثارة للإعجاب. (المترجم).

- لقد أمضيت أمسية مع فتاة.
- خبر حسن جدا! من هي؟ أعرفها؟
- إنها (سابين).
- آ.. نعم.. زميلتك. كنتُ دائما أعلم أنك تعجبها. إذن كان ذلك جيدا؟
- نعم.. يعني..
- هل ذهبت لزيارتها؟
- بالتأكيد.

روى (أنطوان) لأخته هذا الموعد ليُطمئنها، ولكن لم تكن لديه أي رغبة في إطالة الكلام عن الموضوع، أو على الأقل عما جرى في الواقع. وفضَّل مواصلة الحديث عن حياته المهنية، قائلا:

- لم أقل لك، فأنا في هذا العام أقترح حلقة محاضرات عن الـ(كارافاج).
- هذا ليس اختصاصك حقيقة.
- بالضبط، إنني أرغب في استكشاف أراضٍ أخرى.
- هذه حقا حياةٌ جديدة. وهل لديك أخبار عن (لويز)؟
- من المستحيل أن يتكلم المرء معك عن شيء آخر.
- أوه، عفوا.

فقال بالطريقة الأكثر حيادية قدر الإمكان:

- لسوف نتغدَّى معا الأسبوع القادم.

وتكلما أيضا مدة. وكان (أنطوان) يحب رفقة أخته. فقد كانا دوما متقاربين، ولكن في السنوات الأخيرة توطَّد اتفاقهما. فلقد كان مأخوذا بتوقِه إلى الحياة. وكانت هي تعمل في بنكٍ، فإن لم يكن اهتمامها يبدو مستحوذا على الانتباه، فقد كانت تذكره دوما بحماسةٍ. وكانت لديها القدرة المدهشة، بعكس (أنطوان)، على أن ترى الجانب الصالح

من الأحوال. وهذا الأمر جعلهما متكاملين. وكانت هذه هي الحال أيضا هذا المساء؛ ففي حين إن (إيلوينور) تناولت شايا بالأعشاب فإن (أنطوان) كان يشرب كثيرا من الخمر. فقد كان يرغب في أن يهرب من نفسِه. وانتهى بها الأمر إلى أن قالت له إنه أفرط في الشرب. ولكن ذلك كان متأخِّرا جدا، فلم يكن يقوى على الوقوف. وكان الأفضل له أن ينام في بيتها. وقد ساعدته (إيلوينور) في التمدُّد على الأريكة، ووضعت عليه غطاء بلطف. وهمست بالقول: (إنك لمجنون مع ذلك قليلا..) قبل أن تتمنى له ليلة سعيدة. فغطَّ فورا في النوم، وأيقظته في صباح اليوم التالي ابنة أخته التي انقضَّت عليه. وكان لديه شعور بأنه لم ينم سوى دقيقة واحدة، وكأن تلك الليلة لم يكن لها في الحقيقة وجود.

(6)

كان (أنطوان) يشعر بأن التلاميذ كانوا أكثر ضجيجا هذه السنة. وقبل ذلك كان يشعر بكثافة الصمت الذي يخيِّم على المدرَّج. وكان يجذب انتباه كل الحضور الذين يستمعون لكلامه بنوع من الخشُوع. أما الآن فقد كان يسمع بانتظام همهماتٍ ووشوشاتٍ، من غير أن يتمكَّن من معرفة المكان الذي تصدر عنه هذه الأحاديث المخنوقة. لم يكن هنالك سوى الكلام. لقد أصبح الجيل الجديد أقل صبرا بالتدريج. وكان هو يشعر بشيء من ضعف التركيز، فهناك إشارات هنا وهناك، ومنهم من يفكر بشيء آخر بسرعة. وكان ذلك يُزعِجه أحيانا، ولكن بطريقة متفاوتة نِسبيا، وكان يُدرِك ذلك تمام الإدراك.

كان (باتينو) يحب المشي ما بين المحاضرات ليلتقي الأساتذة والتلاميذ، ولم يكن من النوع الذي يَقبَع في مكتبه، كما لم يكن يرغب في أن يكون أحد أولئك التكنوقراطيين الذين لا يصل المرء إليهم بغير موعِد. لقد كان يريد أن يكون إنسانيا ومعاصِرا. ويبدو ذلك على

بشرته ويُرَى على شعره مثلا[44]. فلقد كان أصلع تقريبا، ولكنه أخذ على عاتقِه كليا فكرةَ تركِ ثلاثِ خصلاتِ شَعْرٍ فقيرةٍ حيةٍ، نجت من تطهير عرقي للشعر، تتوه كالأرواح الشاردة في مملكة جمجمةٍ ملساء. ولم يكن يسعى حتى إلى ردها على مقدمة الجبهة كما يفعل بعضهم، لكي يوهِموا بوجود خصلةٍ صغيرة لا تزال نسبيا كثيفة. لا، لقد ترك الطبيعة تعمل عملها التدميري من غير أن يشوِّش عليها. لقد كانت ثقته بنفسِه مؤثِّرة. وقد تُرجِم ذلك أيضا بإيقاع خُطوتِه، الدقيقة والمطمئنة. وقد اقترب من (أنطوان) فقال:

- أنت بخير؟ هل سارت محاضرتك على ما يُرام؟

فقال:

- نعم جيدة جدا.

ثم إن (أنطوان) سأله لكي يشاطره شعوره العام:

- ألا تجد أن التلاميذ قد أصبحوا أقل اجتهادا هذه السنة؟

- لا، لا أجد ذلك.

- يُقال إنهم قد جاؤوا يدرسون الفن كما يفعلون في دراسة الحقوق.

- أنت تعلم تماما أن الأمر دائما كذلك مع السنوات الأولى. فالذين يسأمون يهربون بسرعة. فتتم التصفية بشكل طبيعي.

- نعم، هذا صحيح، غير أنهم يشوشون أكثر في المدرَّجات.

فشجَّعه بابتسامة قائلا:

- يجب أن لا يعكر ذلك مزاجَك. فمحاضراتُك دوما مؤثِّرة جدا.

رد (أنطوان) من غير حماسة قائلا:

- شكرا.

(44) وبصورة عامة، يبدو من الممكن تماما أن يفسِّر المرء شخصية أيِّ امرئ ببساطة من خلال ملاحظة الصلة التي تربطه بشعره.

تابع المدير قائلا:

- هل لديك هموم في هذه الأوقات؟

- لا، لماذا تسألني عن ذلك؟

- لا أدري.. هكذا. وأنت تعلم أنك تستطيع أن تأتي وتتكلم معي حينما تشاء.

- لا، في الحقيقة كل شيء على ما يُرام.

- طيب.. حسنا، أدعُكَ..

انطلق (باتينو) بخطوة سريعة نحو محاورات أخرى خاطفة. بقي (أنطوان) لحظة في مكانه. وكان قد تهرَّب من الأسئلة الشخصية، ولكن عليه أن يبقى يقِظا. فقد كان (باتينو)، تحت مظهر الأحاديث الهادئة والودية، مديرَ مؤسسةٍ مُرعِبا. فقد كان يسبُر بلا انقطاع معنويات جنوده، ويُقوِّم موظفيه بحذر. لقد كان مدير إدارةٍ باسما، وواحدا من أولئك الذين لا يمكن تصوُّر السهولة التي يأخذ بها قرارات قاسية، إن لم نقل غير إنسانية.

(7)

التقى (أنطوان) و(لويز)، لأسباب عملية، في مطعمٍ كانا قد اعتادا عليه. ولم يكن ذلك هو الفكرة الفضلى حتما إلا من أجل استثمار المكان الذي شوَّشه شبح حبِّهما. وهنا يمكنهما أن يتنفَّسا ذكرياتِهما. وقد وصل (أنطوان) أولا، وتردَّد في اختيار الطاولة. فكلٌّ منها كانت تبعثُه على مشهد من قصتهما. فهناك قرب النافذة احتفلا بإقامتِهما في منزل جديد. وعلى تلك الأخرى الأقرب إلى منضدة الشرب جاءا يستريحان بعدما أجرت (لويز) مقابلة توظيف في مكتب محامين وهو الذي كانت تعمل فيه دوما. ومن الجانب الآخر، كانا في أغلب الأحيان، يحبان الجلوس في ركن منعزل هادئ هناك، ليتعانقا بحذر. وكان (أنطوان) يرغب في الذهاب نحو ذلك المكان، ولكنه كان يضغط

على قلبه، فهما الآن لن يتبادلا القبل. وفي النهاية، اختار مكانا لم يسبق لهما الجلوس فيه. في وسط المطعم، وهو منطقة محايدة.

توجهت (لويز) فورا، وهي داخلة، نحو (أنطوان) بابتسامة، كانت رقتها تبدو له على حالها. وكان يعتقد أنها كانت دوما جميلة جدا، وربما أكثر أيضا منذ انفصالهما. وفي الوقت المحدَّد لقول (نهارك سعيد) كان هنالك شيء من التردُّد. فهل يجب أن يُقبِّلها؟ وبعد لحظة من الانزعاج، قرَّرت الجلوس من غير أن تعانقه. فسأل: (هل تعجبك هذه الطاولة؟ أم تفضِّلين.. تلك في العمق؟)، لقد كان هنالك معنى خفي بالتأكيد في هذا السؤال. فهل كان غير شعوري؟ من الصعب أن نعرف فيما إذا كانت (لويز) قد فهمت الإشارة. فقد أجابت بقولها: (لا، جيدة جدا هنا. إنها تناسبني).

كان المكان قد فقد رونقه أكثر فأكثر. وبدا أن مالكَه يوازنُ بجهدٍ دخلَه وخَرجَه، وكان يؤجِّل كلَّ شهر أعمالا ضرورية. إنه مطعم بسيط، يقدِّم حلوى منزلية وسلَطاتٍ. كان صاحب المطعم فيه يعرفهما جيدا. فاقترب منهما قائلا: (أهلا بالعاشقينِ، كيف حالكما؟)، وكان هنالك فراغ قصير جدا، وأخيرا قامت (لويز) بالمتابعة للتغطية على التململ قائلة: (نعم، جيدة جدا. وأنت؟ والأعمال؟). وحينئذٍ شرع بالتظاهر الدرامي وقال إنه تخلَّص بصعوبة من ورطة، مع الأعباء والأوراق التي لا تنقطع. اليوم، لم يكن لدى (أنطوان) و(لويز) رغبةٌ في أن تعكِّر مزاجَهما الخيباتُ الإدارية لصاحب المطعم هذا. لقد كانا معتادين على سماعه بذلك الإشفاق الذي يبديه له الناسُ السعداء. أما الآن، فالأمر مختلف؛ فقد كانا منفصلين، ولم يكن لديهما الصبر على مساعدته ببعض إشارات الطمأنة الخفيفة وبعض «التبويزات» المتواطئة معه. وانتهى الرجل باختصار شكواه من أجل تلبية طلبهما، فسألهما: (كالعادة؟). فأكد كل من (لويز) و(أنطوان) ذلك. فعلى صعيد الطبخ لم يتغيَّر شيء،

وقد تبادلا بعض التفاهات عن الجو، والسياسة، والأصدقاء المشتركين. وكانت هنالك إرادة، أو ببساطة خوف من عدم مواجهة الأمر الجوهري. فهما لم يتكلما معا منذ مدة، فلذلك من الصعب استئناف الحديث بعد فترة من الصمت. وانتهى الأمر بـ(أنطوان) إلى أن اعترف قائلا:

- لقد سرني أن أراك.

- وأنا أيضا.

- إنني غالبا ما أفكِّر فيك. والحق يُقال في كل الأيام.

- نعم.. وأنا أيضا. وكيف الحال في (الفنون الجميلة)؟

- أجد التلاميذ مختلفين قليلا، ولكن الأمور تجري على ما يُرام.

- وكيف ذلك؟

- لا أعرف الكثير. ويمكن القول إنني أقلُّ تركيزا.

ثم قال وهو يبتسم:

- تعالَيْ واحضُري إحدى محاضراتي وسترين.

- أنت تعلم أنني كنت دوما متأثِّرة بهيبتِك حين تتكلَّم أمام طلابك. ولم أقل لك ذلك غالبا، وكان غريبا أن أُحِسّ بذلك. وكان الأمر كما لو كان هنالك (أنطوانان): (أنطوان) الذي كنتُ أعرفه و(أنطوان) الذي بإمكانِه أن يأسِر حشدا لمدة ساعتين. فكنت مزدوجا في نظري.

فرد عليها بعفوية قائلا:

- إذن أنتِ هَجَرتِني هَجْرا مضاعفا.

- أنا لم أهجرك. لقد تكلَّمنا كثيرا. وكنتَ أنتَ موافقا. إن قصتنا لم تعد كما كانت من قبل.. وتعتقد حقيقة أنني التي هجرتك؟

- لا أدري. عندما بدأتِ ببث شكوك حولنا.. لم يكن بإمكاني أن أفعل كبير شيء. فسرتُ مع التيار، لأنني شعرتُ بتصميمِك. فهل كنتِ ستبقين معي لو أنني ألقيت نفسي على ركبتيك وتوسَّلتُ إليك؟ لا،

فأنا أعرفك، يا (لويز). وأحفظك عن ظهر قلب. فأنتِ حين تتخذين قرارا، تكونين قد فكرت فيه مليا من قبلُ. ويكون الأمر متأخرا جدا.

- أنت تعرفني تماما.

- لدي سبع سنوات من الممارسة. ولكنني لم أعرفك تماما.. فهنالك، مثلا، أنني عاجز عن معرفة هذا الذي تفكرين فيه، الآن..

كان على (لويز) أن تتكلَّم. وأن تفسِّر سبب هذا الغداء. وفي الوقت الذي كانت تحاول فيه أن تجمع أفكارَها للتعبير عنها بطريقة متماسكة، قاطعها صاحب المطعم بقوله:

- ما الأمر يا صديقَيَّ؟ ما الذي يجري؟ أنتما لم تأكلا شيئا. وهذا ليس جيدا؟

أجابت (لويز) بقولها:

- نعم.. إنه لذيذ.

- لا تتردَّدي في أن تقولي لي إن كان هنالك شيء على غير ما يرام..

ثم ذهب مطمئنا. يا لها من فكرةٍ تلك التي دعت إلى اختيار هذا المكان لهذا الموعد المهمِّ جدا. فهو لم يكن يشتمل على كثير من آثار الماضي فقط، وإنما كان يتم التشويش عليه من قبل الرجل الأقل رهافة في العالم. إنه رجل عاجز عن أن يدرك أنه يجب نهائيا عدم مقاطعة زوجين يتوقفان عن الأكل في المطعم نهائياً. ولذلك سببان: إما أنهما متحابّان بجنون، وإما أنهما يتذكران قطيعتَهما. وانتهى الأمر بـ(لويز) إلى القول بصوت واضح:

- لقد التقيتُ شخصا.

- ...

- ولم أكن أرغب في أن تعلم بذلك من شخص آخَر. ولذا كنت أريد أن نلتقي.

- ...

- (أنطوان)!

- متى التقيتِه؟

- منذ ثلاثة أسابيع. وأخيرا، كنا تعارفنا من قبلُ.. ولكن ذلك بدأ قبل ثلاثة أسابيع تقريبا.

- (لويز)، قولي لي الحقيقة: هل هَجَرتِني من أجلِه؟

- لا طبعا، على الإطلاق. أؤكِّد لك ذلك. أنا لم أكذب عليك. لقد كنتُ أشعر بأن قصتنا كانت في مأزِق. وكانت تلك المرة الوحيدة التي قبلت فيها أن أتعشَّى مع ذلك الرجل..

- ومن هو؟

- إنه محامٍ. وقد رفعتُ دعوى ضده منذ بضعة أشهر، ومال أحدنا إلى الآخر. وليس هنالك شيء أكثر من ذلك.

- لا أدري ما أقول.

- أنا آسِفة..

- إن كنت تعلنين لي ذلك، فلأنه قصةٌ جدية.

- نعم.

- لقد أفهمتِني أنك لم تكوني تريننـي أبا لأطفالك، فهل كان الأمر مختلفا معه؟

- لا أدري. فلقاؤنا لا يزال قريبا.

حسم (أنطوان) الأمر بقسوة قائلا:

- هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها.

- ولكن..

- ماذا تودين أن أقول لك؟ أنا لا أريد أن أحول بينك وبين سعادتِك. أنت أكثر امرأة أحببتها. وبعكسك لا أستطيع أن أتصوَّر نفسي للحظة مع شخص آخر. هذا غير ممكن. هذا غير ممكن. أتفهمين؟

- نعم.

- ماذا عنده مما ليس عندي؟
- لا أدري ماذا أقول لك. إنني أجده مُطَمْئنا.
- ما عمره؟
- خمس وأربعون سنة.
- إنه أكبر منك بكثير.
- أكبر بخمس عشرة سنة. وعنده ابنة في الثامنة عشرة.
- ابنة في الثامنة عشرة.. هل التقيتِها؟
- نعم، في عطلة نهاية هذا الأسبوع.

تنفس (أنطوان) الصعداء وقال بحدة:

- لسوف تلعبين دور امرأة الأب.

كانت (لويز) تعلم أن ذلك سيكون صعبا، ولكنها لم تكن ترى (أنطوانَ) قطُّ هكذا. لقد كانت تتصوَّر أنه سيكون حزينا، ولكن هذا مختلف. كانت تشعر أنه يكظِم غيظا مُفرِطا. كان يريد اختصار الوقت ومغادرة المطعم فورا. وقد توجَّه إلى صاحب المطعم من أجل الحِساب.

وأخيرا، أدرك هذا الأخير أن هناك مشكلة وفضَّل ألا يقول شيئا. وخرج (أنطوان) حتى من غير إلقاء نظرة أخيرة على (لويز). كانت ردة فعله قاسية، ومغالية، ولم يكن يتصوَّر قطُّ أن بإمكانها أن تلقي نفسها في علاقة جديدة بسرعة فائقة. كان في وُسعِه أن يفهم الانفصال، ولكن الأمر ليس كذلك. وعندما وصل إلى بيته، بعث رسالة إلى (باتينو) ليقول له إنه يعاني من عُسر هضمٍ وإنه لن يلقي محاضراته بعد الظهر.

(8)

في اليوم التالي، واصل (أنطوان) حياة طبيعية. ولن يذكر لأي شخص، وحتى لأخته، ما عانى منه في وقت إعلان (لويز). وسيحتفظ به مستترا

في أعماقِه، وربما لأنه تمكن بذلك من النسيان. وهذا الوضع الجديد جعل لديه القدرة قليلا على توضيح الحالة. ولم يكن هنالك شيء ينتظره، ولا يأمُلُه، وهنالك مزيد من المادة التي تسبح في الحيرة. وهذا بالتأكيد أفضل. وكان يمقُتُ هذه الفترة غير الواضحة، وهذه المنطقة من انتقال الحب.

حياةٌ جديدة كانت قد ابتدأت. وكانت هي نفسَها دوما بالتأكيد، ولكن سيكون كلُّ شيء مختلفا. وكان يجب ببساطة أن يحدِّد فيها طريقة الاستعمال؛ فقد كان يذهب إلى الاستغراق أكثر أيضا في العمل، ولا يفعل سوى ذلك، يجهِّز محاضراته، ويعمِّق معارفَه. فكان يذهب ليعيش في ممرات المكتبات، وسيجد بالتأكيد تعزية عن طريق التسلح بالمعارِف. ويمكن أن يؤلِّف كتابا، فمنذ سنوات، كان قد أُولِع بـ(مونبارناس) Montparnasse[45] في سنوات العشرينيات 1920 وما بعدها. ولذا كتب أطروحة عن (موديلياني)، وربما حان الوقتُ ليصنع منها رواية، لِمَ لا. طريقة كأخرى للكفاح ضد الأفكار الظلامية.

وفي هذا المساء الأول من حياته الجديدة، أرسل رسالة إلى (سابين). كان الوقتُ الآن متأخِّرا، وكان عليها أن تنام، وكان المعتقد أنها لن تردّ في الحال. فهي من الناس الذين لا يُغلِقون جوّالاتهم خوفا من مقاطعة الواقع. كان (أنطوان) يرغب في أن يزورها. وهذا يعني مواصلة ما كان قد أُحبِط. فقد كانت رغباتُه، منذ بضعة أسابيع، تتقلَّب بلا انقطاع. وأخيرا تجاوز ذلك بيقينٍ شِبْهِ قاسٍ. لقد كان يودّ أن يكون مرغوبا فيه. وكان يريد أن ينهش الوقت بمساعدة جَسَدٍ آخر. فالعواطف لا

(45) حي من أحياء (باريس) يقع على الضفة اليسرى لنهر (السين) في الدائرة 14، عَرَف أوج ازدهاره في عشرينيات القرن العشرين التي عرفت بسنوات الجنون أو السنوات المجنونة، فكان قلب الحركة الفكرية والفنية بباريس بمقاهيه التي دخلت في تاريخ الفن. وقد جذَب هذا الحي فنانين كُثُرا من مختلف البلدان: فوجيتا Foujita (من اليابان)، وبيكاسو Picasso وخوان غريس Juan Gris (من إسبانيا)، وموديلياني (من إيطاليا)، إلخ. (المترجم).

تُحصَى. لم يكن يحِبّ (سابين)، ومن المحتمل أن لا يُحِبها أبدا. ولكن يأتي حِينٌ يكون فيه ما نريد أقل أهمية مما يمكن أن نمتلكه.

كانت (سابين) على قناعة دوما بأنه سوف يأتي. لا لفرطِ الثقة، ولكن للإحساس بأن أمسيتهما لا يمكن أن تبقى ناقصة. ولليقين بأنه في حاجة إلى نقطةٍ كي يختِم الجملة. وكانت قد أدركت أنه ينبغي لـ(أنطوان) أن يتحمَّل قطيعته، لأن كائنا حساسا وفحلا يكون غير قادر على أن يُنْسَى في متاهة العلاقات. لقد أساءت الفهم تماما بشأن هذه النقطة. فهو لم يتَّصِل بها ليس لأنه تعافَى، وإنما لأنه كان في حالة أسوأ. ولكن العلاقات مع (أنطوان) في الأصل كانت تجلِب القليلَ لـ(سابين). لقد كانت رغبته فيها طاهرة الذيل، وهذا هو الجوهري في نظره[46].

وعندما التقيا هكذا، في عِزِّ الليل، كان بإمكانهما الاعتقاد بأن الأيام التي انقضت في تجنُّب أحدهما الآخر لم تكن موجودة. وقد استأنفا هنا من حيث كانا قد انتهيا، غير أن موقف (أنطوان) كان مختلفا تماما. فقد أمسك (سابين) من عنقها. وشعر بأنه قد أفرغ غيظه باختراقها. فحياته كلُّها، بحرماناتِها ومخاوِفها، كانت تسخر منه بآلية حركة أولية. إنه لم يكن قد تصرَّف قط هكذا مع امرأة، لقد كان رجلا رقيقا ولطيفا، وترك نفسَه ينحرِف إلى وضع لا مثيل له. من غير أن يظهر بسبب ذلك بهيميا أو متوحِّشا يريد الاستمتاع من غير الاهتمام حقيقة بشريكتِه. لم تكن (سابين) تعرف (أنطوان)، وفي النهاية كان ذلك يعجبها أكثر. كانت (سابين) ترغب في أن تكون مشدودة، وأن تستمتع بكونها مدفوعة إلى عالم عديم التهذيب ومتوحِّشٍ بغموض. لن يتمكنا بعد اليوم من العودة إلى الوراء نحو نقاشاتهما الملونة

(46) يجب أن لا نسعى أبدا إلى فهم لماذا يرغب فينا شخصٌ ما.

بألوان الاحتشام والتقدير المتبادل. نهض (أنطوان) وغادر من غير أن ينطق بكلمة واحدة، تاركا (سابين) ذاهلة.

(9)

في النهار التقيا من غير كلام. وفي المساء التقيا، وانهمك (أنطوان) في صراع داخلي. إن كانت هذه المغامرة الفيزيائية قد حرَّرتْه، فإنها تركت فيه غالبا طعما مُرّا. فالسعادة الجسدية كانت مصحوبة لديه بكآبة فظيعة. فقد كان يفكِّر في (لويز) عارية مع رجلها الجديد. وكان يستسلم لاجتياح الأسئلة. هل كانت مع الآخر كما كانت معه؟ هل كانت تصنع الأشياء نفسَها؟ لقد كان يريد أن يعرف، إنه فُضُوليّ كغيره.

لم يكن عنده سوى يقين واحد هو أن (لويز) سعيدة. وكان ذلك يطمئنه بغرابة. وهو لم يكن يريد أن تتوقَّف قصتهما لتُخلِي المكان لأمرٍ ضعيفٍ، فإذا كان ما تعيشه قويا، فعندئذٍ يُسوِّغ ذلك الانفصال بطريقة ما. وهكذا كان نظام العشق يترابط. لقد كانت أعظم حب لديه، وسيبقى كذلك بوضوح زمنا طويلا. وإنه لأمرٌ رائع أن يتمكَّن من أن يعيشَه. وعليها أن تشعر إلى حد كبير بأنها مذنبة منذ غدائهما الأخير وردةِ فعلِه الفظّة. وقرّ رأيه أن يُطمئنها بإرسال رسالة نصها: (أتمنى لك وافر السعادة في حياتِك الجديدة. أنتِ امرأة رائعة). وقد انخرطت (لويز)، وقد تحرَّرت أخيرا من هذا العبء، في البكاء. وتردَّدت في أن تقترح عليه موعدا. فهل بالإمكان أن يتناولا القهوة؟ لا. لقد كان من الأفضل، في الواقع، قطع الجسور هذه المرة. ولن يلتقيا أبدا.

كان يجب الاعتراف مع ذلك برغبة أخيرة. فـ(أنطوان) لم يكن مرتاحا مع ما كان يعانيه. لقد كان مستعدا لأن يبدأ حياة جديدة، وكان يقبَل بأن (لويز) لم تنجح في أن تتصوره أبا لأطفالِها المستقبليين،

وبأن ذلك كان قد عَجَّل في نهاية اقترانهما، غير أنه في حاجة إلى عنصر أخير كي يصبح متحرِّرا تماما؛ إنه يريد أن يرى ذلك الرجل. ويريد أن يرى أيَّ شيء يُشبِه. وربما يريد حتى أن يسمع صوتَه. هل كان خطيرا أن يشعر بهذه الحاجة؟ لا، لقد كان هذا يبدو له، بالعكس، أمرا تقليديا جدا. فمن غير الممكن إعادة بناء نفسِه برؤية ضبابية لبيئة (لويز) الجديدة. كان في إمكانه أن يطلب إليها قائلا: (أريد أن ألتقي عشيقك..). لا، هذا مستحيل.

ستجد هذا الطلب غريبا. إذن، بإمكانه أن يقترح عشاء لأربعة مع (سابين)، في جوٍّ مرِح هادئ كذبا وبابتساماتٍ تخفي شَجَنَ الحالة. ولكن لم يكن لـ(سابين) هذه المكانة في نظره. ولم تكن بأي حال معادِلَة للرجل الجديد في حياة (لويز). ومن جهة أخرى ما اسمُه؟ فـ(أنطوان) لم يكن يعرفه. ولم يكن يعرف شيئا ما عدا أنه كان محاميا وأن عنده ابنة في الثامنة عشرة. وإن كانت هذه البنت موجودة، فهي إحدى طالباته. وهذا ممكن. ولم يكن لديه أي فكرة عما كان بإمكان هذه البنت دراسته. إنه لم يكن يعرف شيئا. وهذا ما كان يردِّدُه. وسيكون بإمكان (لويز) أن تعطيه مزيدا من التفاصيل، في الحال، وأن تشرح له قليلا ما الذي كان أفضل في هذه الحياة الجديدة. وكان قد نسي في دَرْج الكلام أنه تركها فجأة من غير أن يُتيح لها الوقت لتتكلَّم. ولكنه الآن في حاجة إلى أن يعرف. وهذا سيساعده. كان يريد أن يتقدَّم، نعم، كان يريد أن يقطع صلته بالماضي، صحيح، ولكن له الحق في أن يمتلك بعض المعلومات الإضافية. وهو أمرٌ مشروع. وهذا ما كان يردِّده.

(10)

بعد بضع أمسيات، سألت (سابين) (أنطوانَ): (ألا تودُّ أن تذهب لتناول العشاء في مكانٍ ما؟ ومن ثم، نذهب إلى السينما؟). نظر إليها وكأنها كانت تتكلَّم مع رجل آخر. وكاد يقول لها الحقيقة، ويعلِمها

بأنه لا يفكّر في شيء آخر معها سوى الموعد الغرامي، ولكنه فضّل الصمت. وادّعى أن عنده كثيرا من الأعمال في هذه الفترة، ولم يكن ذلك كذبا كليا. فقد كان عنده نُسَخٌ للتصحيح، وهذا يأخذ منه قسما كبيرا من وقته. وعنده، إضافة إلى المحاضرات في المدرّجات، ثلاثة صفوف دراسية في الدروس العملية TD، مرتين في الشهر. وقد كان يقوِّم طلابه أو يقوِّم بحوثهم، بطريقة الـ(QCM)[47]، ومن غير أن يكون ملزما بذلك. وهذه طريقة في العمل كي لا تتراخى جهودهم. وكان بعض الطلاب الكسالى يتجنبون محاضراتِه بأي ثمن، وأولئك الذين يريدون النجاح ويعملون بجِدٍّ كانوا يعلمون أنه سيساعدهم فيها. وكانت التزامات (أنطوان) ضخمة؛ منها أنه يقضي ساعات في تصحيح النُّسَخ، ومنها أنه يحاول أن يكون أدق ما يمكن في تعليقاته. ومن المؤكَّد أن بإمكانه التحلُّلَ من بعض الوقت للذهاب إلى السينما، أو ببساطة شرب القهوة مع (سابين)، وكان يشعر بوضوح أن علاقتهما ينبغي لها الاقتصارُ على هذا. ومع ذلك كان يقدِّرها. وكانا يحافظان دوما على علاقاتٍ ممتازة، وقد كانا حتى منذ البداية أكثر من زملاء، وأصدقاء تقريبا، ولكن منذ أن كان يستمتع معها، كان من الصعب على (أنطوان) الادعاء بأن المرء يستطيع أن يتحوَّل من عالَمٍ إلى آخر من غير صعوبة. وقد تقبَّلت (سابين) الوضع، خاضعة لحالته الخاصة. فقد كانت تعتقد دوما أن على النزعة الجسدية أن تترافق مع مشاركة عاطفية، ومع إعجاب فكري متبادَل، إلا أنها اكتشفت بقليل من السذاجة أن الغرام لم يكن يتطلَّب أي أمر ملحَق به. صحيح أن هذا لم يكن ليستمر، ولكن في الانتظار كان يجب التشبُّث بتقطُّعات المتعة.

كان (أنطوان) يفضِّل أن يقضي بقية الوقت الذي يملكه مع

(47) وهذا مختصر للعبارة الفرنسية (Questionnaire à Choix Multiples) أي: اختبار الخيارات المتعدِّدة، وهو يقوم على طرح إجابات متعددة عن سؤال محدَّد لاختيار الجواب الصحيح عنه من بينها. (المترجم).

أصدقائه. فمنذ أن أصبح عَزَبا كان يراهم أكثر. ففي السبت مساء، كان يتسكَّع من غير أن ينظر في ساعتِه، لم يكن أحدٌ ينتظره. وكان الليل يتقدَّم، ويجد الأحاديث دائما هي نفسَها، وكانت النكاتُ القديمة تتكرَّر، والماضي فِيلْمٌ قديم تمت رؤيتُه مرارا. وكان يحصل له عند ذاك أن يشعر بنفسه وحيدا. وهذا انطباع حقيقي ومفزِع. وكانت كلُّ علاقة إنسانية تبدو له أمرا تافها تماما. إن أيا من أصدقائه لم يكن قادرا على فهمِه. وهو لم يكن يسعى كذلك إلى لقاء امرأة أخرى. وعندما كان يصادِف واحدة يمكن أن تعجبه، لا يحاول أن يكلِّمها أبدا. وكان يأمُل بغموض أن تقوم الفتاة بالخطوة الأولى، ولكن هذا لن يحدث أبدا إلا في الأحلام والروايات.

كان أمرا تقليديا أن يعاني من ذلك في قلب الليل مع السُّكْر. ولأنه لم يكن تعيسا، كانت (سابين) معه أحيانا، وكان عند أخته غالبا. وملأ طلابُه عليه كلَّ الوقت. وكان يجد متعا كثيرة هنا أو هناك. يعشق المشيَ في مدينتِه، والتجوُّلَ في الشوارع، واكتشافَ أزِقَّة جديدة. وكان المساء بعد المحاضرات هو وقتَه المفضَّل. يسير إلى جانب نهر (الرون) le Rhône، ويمر أمام المراكب التي كانت ترسو في المساء. يراقب النساء العجائز في شرفاتهن الصغيرة، مصطفّاتٍ في أكواخِهنَّ العائمة. ويشير لهن بإشاراتٍ ودِّيّةٍ لطيفة. وكان هنالك توافقٌ ضمني يتمُّ بين المارَّة والعابرين، فقلَّما تهمّ وسيلة النقل، وكان يتوجَّب على المرء أن يقوم بإشارة في اتجاه أولئك الذين يرحلون. كان ذلك هو الطريق الذي يسلكه (أنطوان) عندما يذهب إلى (لويز) في عملِها. كان دوما شديد الرغبة في معرفة حياتها الجديدة، وقد قرَّر في ذلك المساء أن يواصل نزهته إلى مكتبِها.

كانت مكاتب المحامين تقع في مبنى يقابل قصرَ العدل. جلس

(أنطوان) على (تِـرَّاسٍ) terrasse[48] يستطيع أن يرصُد منه خروج (لويز). لقد كان النهار جميلا بشكل مدهش بالنسبة ليوم من أيام نوفمبر. راقب (أنطوان)، وهو يحتسي القهوة، مراهقين ومذنبين ينزلون على الدرجات الكبيرة للقصر. وكان المحامون دوما يهرولون قليلا، وكأنما يجب الدوران بسرعة ليكون المرء أمير المرافعات. وأخيرا، خرجت (لويز) من المبنى.

كان (أنطوان) منفعلا لرؤيتها من بعيد، كانت قامتُها تلوح من خلال ثوب خفيف فضفاض، ومع ذلك كان بمقدوره أن يميِّز أقلَّ التفاصيل في وجهها. كانت تنتظر. وبعد بضع دقائق، التحق بها رفيقها. وقد فوجئ (أنطوان) باكتشافِه رجلا ذا شعر رمادي. وكان يبدو أكبر من سنِّه. لكن لِمَ لا. إنه خِيار (لويز). ولم يكن له أن يحكم من خلال لون الشعر على حياتِها الجديدة. وهذا هو بالضبط ما كان (أنطوان) يريد أن يراه. وقد آلمه ذلك بالتأكيد، ولكن الأمر كان هكذا. وقد واصل مراقبتَهما. طبع الرجل قبلة على عنقِ (لويز)، وشرعا في المسير. وكان كل شيء بينهما يأخذ طابعا بسيطا جدا.

دفع (أنطوان) ثمن القهوة، ونهض ليتَّبعهما. مرة واحدة، ولا شيء سوى مرة واحدة. فقط لمعرفة أين كانا يسكنان. ولمعرفة ديكور هذه السعادة. ولم تكن هذه الحاجة تبدو له شاذَّة.

(11)

وبينما كان على مسافة جيِّدة كي لا يُكتشف أمره، اقتربت منه فتاةٌ شابّةٌ، قائلة:

- مساء الخير، سيِّد (دوريس).

(48) التراس: هو القسم الخارجي القائم على الرصيف من المقهى في الهواء الطلق، وهو منتشر بكثرة في شوارع العاصمة الفرنسية. (المترجم).

فرد (أنطوان)، وهو يرى (لويز) تبتعد:

- مساء الخير.

- إنه لَيُسعِدني أن أراك.

فقال من غير أن يعرف إلى من يتكلَّم، ومحاولا أن يتابع طريقَه:

- نعم.. وأنا أيضا.

- تعرف، محاضراتك كان لها تأثير كبير في حياتي.

فرد ردا آليا بقوله:

- شكرا جزيلا..

إن بضع الكلمات هذه أعاقت (أنطوان)، في اللحظة التي كان قد فقد فيها أثر (لويز). لم يكن هذا الأمر خطيرا. فلا شيء يضغط عليه. وبإمكانه أن يعود غدا، أو في يوم آخر. فقد أشبع الآن حاجته إشباعا تاما لمعرفة المزيد عنها. لقد عرف السر الواضح لسعادتِها، ولهذه الحياة التي تعيشها بعيدا عنه. فهل كان في حاجة أصلا إلى شيء آخر؟ ببساطة كان في حاجة إلى معرفة أين كانا يسكنان. وهذا هو العنصر الأخير الذي كان يريد أن يمتلكه. لعلهم كانوا يعيشون ثلاثتهم في إنسجام رائع. ولعل (لويز) تكون امرأة أب كاملة. وبالتأكيد تقوم المرأتان بالتسوُّقِ معا يوم السبت. فالحياة حالمةٌ إجمالا.

وانتهى به تسكُّعه الاستطرادي بأن أوقفه عرضُ سيرة حياة الطالبة القديمة التي قالت: لقد أُتيحت لي فرصة أن أسافِر لمدة ستة أشهر إلى (نيويورك) New York، وأزور متحف (غوغِّنْهايم) Guggenheim، وقد كان ذلك تجربة رائعة.

- نعم، بالتأكيد.

- إنه لأمر لا يُصدَّق أنني صادفتك هكذا، لأنني لن أكون في (ليون) إلا لبضعة أيام. وسأسافر إلى (هامبورغ) Hambourg لمدة أسبوع.

- آ.. جيد جدا.

- وسأكون دليلاً متحفياً في متحف (الفن الحديث) l'Art moderne في فرانكفورت. إنه رائع. وكنت قد ذهبتُ لزيارته منذ شهرين، لتولي مهمتي..

كانت الفتاة الشابة تواصل كلامها بسرعة، وكان من الصعب على (أنطوان) أن يتفاعل معها بشكل آخر سوى الأصوات المحاكية. وللاستماع إليه كانت تتابع محاضراته في المدرجات، وكذلك في الـ(تي.دي) TD. ولم يدرك لماذا لا يتذكرها مطلقا. وقد نافق نفاقا اجتماعيا وتظاهر بمعرفته بدقة من تكون، ولكنه في الحقيقة بحث جيدا، فلم يجد شيئا أو أقلَّ أثرٍ لهذه الفتاة في ذاكرتِه. وغير مفهوم أن تكون جذابة. صحيح أن لباقتها الدائمة أنهكت (أنطوان) قليلا، وأفسدت سِحْرَها، ولكنها امرأة شابة مرغوبٌ فيها تماما. وكان هو عَزَبا، وقد أعجبته، ومن يدري، لعلَّهما يقضيان الأمسية معا!

لقد سحرها اقتراحُ أستاذها بأن تشرب كأسا معه، يا له من حظّ! وقد فكَّرت بانفعال في عظمة المصادفة. جلسا على التراس الذي كان (أنطوان) قد غادره. وكان بإمكانه الاعتقاد بعلامة من القدَر الذي يحاول تضميد الجراح؛ ففي الوقت الذي رأى فيه (لويز) مع خطيبها الجديد، أُرسلِت إليه فتاةٌ، وفتاةٌ جميلة مُفعَمةٌ بالإعجاب. كان القدَر يريد أن يكون هنالك توازن في المستقبل بصورة ما.

وعند طلب الشراب قالت له الفتاة الشابة[49]:

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالا؟

- نعم.

(49) لم يكن لدى (أنطوان) أي فكرة عن اسمها، وكان يشعر تماما بأن الوقت تأخّر الآن عن سؤالها عنه. وكان الارتياح الذي نشأ بينهما بلا نزاع أتاح له القول: (وفي الواقع.. يمكنك تذكيري باسمك؟).

- موضوع عصير المشمش على أنه الشراب المفضَّل لدى (بيكاسو)، لم يكن أيَّ شيء، صحيح؟

- أنا..

- يمكنك أن تخبرني عنه الآن. إنه متقادم! ولن أذكر منه شيئا. وأنا متأكِّدة أنه كان رسالة مُرَمَّزة بينك وبين أحد ما بين الحضور. هل أنا مخطئة؟

فقال بصوت واضح:

- لا.. عندك حقّ..

وبينما كانت هذه الفتاة تصبو إلى الوعد بأمسية جميلة، فقد أرسلته من دون علم إلى زمن الطيش، إلى الزمن الذي كانت (لويز) تأتي فيه لتندسّ فجأة بين طلابِه. فاستبعد (أنطوان) فورا سحابة الحنين التي كانت تريد أن تكدِّر وجهَه.

مرّ عليهما الوقت كما يمرّ على صديقين عندهما أشياء كثيرة يرويانها. وقد ظنت هذه الفتاة الشابة مرارا أنه كان مفاجئا لها أن هذا الرجل الشهير جدا لم يكن لديه شيء متوقَّع في تلك الأمسية. فقد صادفها في الشارع، وكان حُرّا.

فلو كانت أقلَّ جمالا، لكان من المحتمل أن يختصر الوقت. ولقد كان، خلال حديثها، يلقي نظراتِه خلسة ليدقِّق في تفاصيل جسدها. لقد كانت هذه الفتاة رائعة.

وكلما تقدمت الأمسية، كان يتساءل كيف أمكنه أن ينساها. إضافة إلى أن مما يلَذُّ للمرء حقا أن يستمع لفتاة شابة مرغوبٍ فيها وهي ترسل إلى أذنيه عددا كبيرا من المجاملات، وكانت تذكر محاضراتها برجفة في الصوت.

وهذه هي المرة الأولى التي يعيش فيها هذا النوع من الحالة. ومنذ زمن قصته مع (لويز)، لم يطرح على نفسِه سؤالا

عن معرفة هل بإمكانه أن يُعجب فتاة أم لا. وكان يعيش بغمامة عينين سعيدة بالوفاء. والآن أصبح وكأن عالَما جديداً ينكشِف له. هذه الفتاة ستسافر إلى (هامبورغ)، وهي معجبة به بجنون، وكان لديه كلُّ شيء ليعيش وقتا سِحريا. وكان لديه كلُّ شيء لكي ينتزع قليلا من الجمال في هذه الحياة الرتيبة.

اقترب منها، ووضع يده فجأة على ذراعها. فسألته الفتاة:

- ماذا تفعل؟

- لا شيء. لقد قلت لنفسي إن كان بالإمكان ربما أن نواصل الحديث في بيتي.

- بيتِك؟ لكن لماذا؟

- لا أدري.. لنكون معا نحن الاثنان.

- ولكننا الآن معا نحن الاثنان.. هنا.. في هذا المقهى.

- ...

سواء أكانت قد تظاهرت قصدا بعدم الفهم أم لم تكن راغبة مطلقا في ذلك، فإن (أنطوان) لمح مباشرة تغيُّرا في موقف الفتاة الشابة. فقد بدت أقل حماسة، لئلا نقول خائبة بعمق. فهذا الأمر غير مفهوم. فهي لم تكن تكفّ عن أن تغمره بالثناء حتى سمحت له بهذه الجرأة. لقد مزج الإعجاب بالرغبة.

وقد كان يمثِّل، في نظر الطالبة القديمة، ليس فقط السلطة الجنسية الحيادية، وإنما يمثِّل ببساطة رجلا أسنّ منها بكثير. لقد فهمت بالتأكيد تلميح (أنطوان)، وتذرَّعت بعد بضع دقائق بأنه يجب عليها أن تعود إلى البيت.

وزعمت له بأنها أمضت معه أمسية رائعة، ولم يكن يتعيَّن عليها أن تكون حادة الذهن جدا كي تشعر بخيبة أمل نهائية فيه. لقد

أخذ هذا الموعد وجهة سفينة الـ(تايتانيك) Titanic[50]، التي غرقت فجأة في مياه جليدية. ولعلّ هذا الرجل لم يكن يبالي بمشكلاته إلا بهدف الحصول على مخرج شهواني في هذه الأمسية. وقد أثار ذلك اشمئزازها تقريبا. وقد شدَّت على يد (أنطوان) مع ابتسامة مهذَّبة. ونظر إليها وهي ترحل، قائلا في نفسِه إنها لم تسقط بسرعة في تقديرها لشخص. وقد استغرق ذلك مع (لويز) سنواتٍ، وفي غضون ساعة هنا، انتقل من التألُّق إلى التفاهة. وتسارَع انحطاطُه.

(12)

هنالك دوما تردّدٌ لدى المرء عندما يُغيِّر حياته. ويجب أن يتعلَّم الكثير، كما يحب الناسُ أن يقولوا. كان (أنطوان) يكره هذه التعابير الجاهزة، وقد كان مستعدا لأن يقتل كلَّ مَنْ يتكلَّم معه عن بدء حياته مجدَّدا. وكان عليه أن يجد طريقة يتناول بها العلاقات البشرية من زاوية مختلفة. وبعبارة أخرى، إن العيش في ظل الحياة الزوجية كان قد أغرقه في نوع من الآلية الاجتماعية، وعليه الآن أن يعيد تنظيم كل شيء. ولقد كانت خيبته مع طالبته القديمة هي المثالَ النموذجي لذلك. لم يكن (أنطوان) بأي حال من الأحوال فظا أو معجبا بنفسِه، لا، ولكنه كان يفتقر ببساطة إلى نفاذ البصيرة. إن فهم الآخرين، وقراءة تصرفاتِهم، هما ما ينبغي له أن يعمل عليه في إعادة بنائه العاطفي.

كانت بيئته المهنية وحدَها غير قابلة للتبديل. ومسيرته الفكرية لم تكن مسيرته العاطفية لتبدِّلها. فالتعليم يشجِّع أحيانا وجود شخصية

(50) التايتانيك: سفينة ركاب بريطانية ضخمة وحديثة جدا في وقتها، توجهت من بريطانيا إلى نيويورك في الولايات المتحدة عبر شمالي المحيط الأطلسي في رحلتها الوحيدة سنة 1912، فاصطدمت برأس جبل جليدي عائم وغرقت ومات من ركابها الكثير وأنقذ من أنقِذ، وأنتج حولها فيلم أمريكي طُرح للعرض في أواخر سنة 1997 من سيناريو (جيمس كاميرون) G. Cameron وإنتاجه وإخراجه، وكان بطلا الفيلم (ليوناردو دي كابريو) L. DiCaprio و(كيت وِنسليت) K. Winslet. وتمت معالجته من خلال قصة رومانتية مؤثرة، وكانت كلفة إنتاجه بحدود مئتي مليون دولار أمريكي. (المترجم).

مزدوجة، لأن الأمر يتعلَّق أيضا ببروزه أمام الطلاب. وكانت (لويز) قد قالت له أثناء غدائهما إنها كانت ترى (أنطوانَيْنِ). وكان هذا بالتأكيد هو السبب في أن حياته في (الفنون الجميلة) لا يبدو أنها كانت خاضعة لسقوطه الشخصي. وقد كان بعيدا عن أن يكون الأستاذ الوحيد الذي انغمس في هذا الشكل من (انفصام الشخصية). فهنالك كَمٌّ من الأساتذة المتسلِّطين يتوق إلى النعومة يوم الأحد. وكذلك متوتِّرو الأعصاب الذين يَغرَقون في كأسِ ماء منذ نهاية المحاضرات. وكان بإمكان (أنطوان) أن يكون كذلك طريق سيارات في الجامعة، في حين إن حياته كانت تشبه طرقا بين المحافظات وممرات ترابية، وأحيانا حتى طرقا مسدودة.

وكان يحب الاستماع إلى الطلاب؛ إلى أحلامِهم، ورغباتِهم، وآمالِهم. وكان ذلك معقَّدا أحيانا. فالجيلُ الجديد كان يبدو له بعيدا جدا عن جيله الآن. لم يكن يبلغ الأربعين من العمر، ومع ذلك كان يلمَح هُوَّة عميقة. فأغلب طلابه كانوا يتَّجهون إلى أعمال المحافظة على التراث أو إلى إدارة المؤسسات الثقافية. ولكن كان هنالك أيضا فنانون كانوا يقدِّرون أنهم لا يستطيعون أن يفرضوا بصمتهم على الحاضر من غير أن يمتلكوا معرفة دقيقة بالماضي. وهؤلاء الأخيرون لم يكن لديهم أي التزامٍ بالتسجيل في الـ(تي.دي) TD (تاريخ الفن). غير أن شهرة (أنطوان) كانت ممتازة. وكان كثيرون يقدِّرون الطريقة التي يهتم فيها بكل طالب، ويحترمه، ويكون مصغيا إليه من غير أن يحكم عليه. وعندما كان (أنطوان) يصحِّح نُسَخَهم، كان يقضي وقتا في البحث عن الكلمة الدقيقة في تعليقاته عليها. وكان يحب أن يجد نفسَه في المساء أو في عطلة نهاية الأسبوع مع جميع هذه الأفكار الأصيلة، ينتقل من لحظاتٍ من الإعجاب الحقيقي أمام تعلُّقِه بموضوع من مثل هذا التفكير أو ذاك، إلى لحظاتٍ من الانزعاج الخالص أمام مقاربة أو وقاحة

في تعليق. وكانت (لويز) تقول له في كل وقت إنه لم يكن يُصحِّح النُّسَخ، وإنما كان يعيشها.

(13)

بعد بضعة أيام من التردُّد، قرَّر (أنطوان) أن يستأنِف ما كان قد تركه. فقد كان يريد أن يعرف أين كانت (لويز) تسكن، مقتنعا أن ذلك سيجعله على ما يُرام من أجل أن يَقْلِب الصفحة[51] نهائيا. جلس على الترّاس في المقهى نفسِه. وقد حصلت الأشياء بطريقة متماثلة. خرجت (لويز) من المبنى، وانتظرت قليلا وصول الرجل. قبَّلها على العنق، تماما كالمرة الأولى. غير أن الأمر كان يتعلَّق بإنسانين في عز امتلاكهما لطاقتهما في تنويع حركاتهما. هنالك بالتأكيد في الأيام الأولى من الحب معنى مذهل للتصرُّف، كأن لا يتمّ على وجه الخصوص تعريضُ الآلية المرهفة للسعادة الوليدة للخطر.

وقد ذهبا في الاتجاه نفسِه كالمرة السابقة. كان مشيُهما يمثِّل دوما تلك العربة المجرورة المستعجِلة والحالمة معا، إنهما يرغبان في العودة بسرعة من تسكُّعهما معا. كان (أنطوان) يتذكر جيدا تلك الأوقات. في بداية قصته مع (لويز)، كان ينتظرها أيضا عند الخروج من الكلية، وحين كانا يلتقيان، كانت المسافة الأكثر تفاهة تأخذ شكلا عجيبا. ويبدو ذلك بعيدا جدا وحاضرا جدا، كما لو أن القطيعة قد محت سنوات التعب كي لا تُظهِر سوى بهاء الكمال.

هذه المرة، لا توجَد أيُّ طالبة معجَبة تأتي لتقطع عليه الملاحقة. كان (أنطوان) قد بقي على مسافة مناسِبة حتّى لا يُكْتشَف. وتوقَّف لحظة. ماذا ستعتقد (لويز) إن رأته؟ لسوف

(51) وقد وجد (أنطوان) كذلك هذا التعبير غير معقول كلية. فلا شيء أسهل، بالمعنى الحصري، من قلب الصفحة. ولا يُقارن ذلك بالمعنى المجازي الذي يستدعي قطيعة كبيرة مع الماضي. وفي تلك الحالة، الأجدر أن يُقال: تغيير الكتاب.

تغضب غضبا شديدا، وهذا مؤكَّد. وسينفي بالتأكيد، ولكن الشك سيكون قائما، ويحوِّل حزنَ انفصالِهما إلى شيءٍ ما مُقلِقٍ، حتّى لا نقول مُضِرٍّ بالصحة. ولحسن الحظ، لم تلاحظ شيئا. فهذا القسم من (ليون) كان ممتازا لملاحقةٍ حذِرة وبعيدة كفاية. سار الاثنان بجانب رصيف (فكتور-أوغانيور) Victor-Augagneur لا في أزِقَّة المدينة القديمة. واجتازا جسر (لافاييت) Lafayette، ودارا إلى يمين شارع (الجمهورية) ليأخذا الشارع (الجديد) على يسارهما. وقد ترك مسافة جيِّدة للأمان بعد اجتياز الجسر. وفي اللحظة التي بلغ فيها التقاطع مع الشارع (الجديد)، رآهما يدخلان في مبنى. إنهما يسكنان هنا إذن. وقد فكر لحظة في الرمزية من غير ذكرٍ لاسم هذا الشارع.

فكر (أنطوان) في أن يقترب من مدخل المبنى، لكن ذلك بدا مُفرِطَ الخطر. وإذا ما فتحت (لويز) النافذة، فلسوف تكتشفه مباشرة. وانتهى به الأمر إلى أن وجد مكانا محميا تماما يستطيع منه أن يَرَى العمارة من غير أن يُرَى. وقد لمح بعض الأضواء في الشقق، ولكن من غير أن يميِّز شقتهما. ربما كانا يعيشان في الجانب الآخر، نعم، يبدو الأمر كذلك، وبهدوء ألقى نظرة على حديقة وباحةٍ داخلية. ماذا يفعل؟ لم يكن لذلك أي معنى. لقد رأى الرجل الآخر، ورأى (لويز) سعيدة. وهذا يكفي، ويمكنه الآن أن يرحل.

وكبئر بلا قعر، حرَّكتْه عندئذٍ رغبة جديدة؛ ابنة الزوج. فقد كان يريد أن يرَى وجهها. ولكنه لن يقوم بالمراقبة هنا كلَّ الأيام. لعلَّها تكون عند أمها هذا المساء. وفي اللحظة المحدَّدة التي تكوَّنت فيها هذه الفكرة، خرجت (لويز)، يصطحبها الرجل وابنتُه، من المبنى. توقَّف قلب (أنطوان) عن الخفَقان. وتقوقع على نفسِه.

ولحسن الطالع، ابتعد الثلاثة من غير أن يمروا من أمامه. استعاد (أنطوان) وعيَه، وشرع في اتِّباعهم. وكان جسمُه يرتعِد، ولم يكن يدري تماما لماذا كان هنا. آ.. من أجل أن يرَى الحياة الجديدة لـ(لويز). لم يكن لديه الوقت ليلاحظ بانتباه الفتاة الشابة، ولم تكن تعني له شيئا، ومبدئيا لم تكن واحدة من طالباته. وبعد بضعة أمتارٍ، دخلوا إلى مطعمٍ صيني، وخيَّم الظلام.

ومرة أخرى، تموضع (أنطوان) في مكان كان يستطيع منه أن يَرَى المشهدَ من غير أن يُرَى. لقد كان ذلك سهلا، لأن الثلاثة جلسوا قرب الواجهة الزجاجية. كانت (لويز) في جهة، والأب والبنت في الجهة الأخرى. وجهت النادلة إليهم ابتساماتٍ عريضة، وهذه علامة على أنهم معتادون على المكان، (لويز) وعاداتها الجديدة. نهض الرجل، ليذهب بالتأكيد إلى الحمّام، وبقيت الفتاتان وجها لوجه. لم يكن (أنطوان) يشاهد سوى انسجامهما. كانت الفتاة تتكلَّم بلا توقُّف، تبوح بأسرارها بالتأكيد، وكانت (لويز) تقوم بهز رأسها الذي كان (أنطوان) يعرفه عن ظهر قلب، لقد كانت متفهِّمة، وينتهي بها الأمر إلى قول شيءٍ ما، نصيحةٍ أو شعورٍ شخصي، يبدو أن الفتاة الشابة كانت تقدِّره. عاد الأبُ، ووصلت الأطباق تقريبا في الوقت نفسِه، بشيء من السعادة.

لقد كانوا، وهم يتناولون العشاء خلف الواجهة الزجاجية، وكأنهم في إطارٍ مَهيب. لحظة من الحياة التي تكون الوفرة فيها قد تم القبض عليها في أثناء طيرانها. و(أنطوان) الذي كان يقضي وقته في تحليل اللوحات، وجد نفسَه وجها لوجه مع عمل على الهواء، يبدو أنْ لا شيءَ ينقصه. فهنالك الانسجام والبساطة. والديكور نفسه، الذي كان يمكن أن يكون وضيعا، لم يكن كذلك.

وقد راقب (أنطوان) وقتا طويلا الفتاة الشابة ذات الثمانية عشر

عاما. كانت تبدو منشرحة، كطفل يحبُّه والداه بعمق. هو لا يتذكَّر قطّ أنه تعشَّى مع والديه في مطعم. لقد قفزت هذه الأسرة المثالية إلى وجهه، ولم يكن يرى الآن سوى شيء واحد: الكرسي الفارغ إلى جانب (لويز). إنه علامة غيابِه. وهو الدليل على أنه لم يكن مدعوّا إلى هذه الحياة الجديدة.

(14)

لم يكن (أنطوان) يرغب في زيارة (سابين). وكان يشعر أكثر فأكثر أنها كانت تنتظره. في وقت آخر من حياته، ربما كان بإمكانه أن يعيش معها، غير أن آمالها كانت تعذِّبه. وبذات الطريقة التي لم تكن (لويز) تراه أبا لأطفالها، لم يكن هو يرى أن يشكِّل قِرانا ثابتا مع (سابين). ليس هنالك دوما تفسيراتٌ لأمور القلب.

وكان عليه أن يعبِّر عن قراره. فتكلَّم على خندق كان قد حُفِر بين رغباتِهما. فالزوجان لا يمكنهما أن يكونا اتِّحادا متضامنا ضد العدو. وكانت (سابين) تدرك ذلك منذ مدة. فشرعا في اتفاق على موعد أخير كان لطيفا أكثر منه حارا. ويمكننا أن نتكلَّم أيضا عن رِقَّة ما فيه. وهكذا انفصلا من غير صِدام، على الرغم من شعور المرارة من جانب (سابين).

وكان السؤال هو معرفة ما إذا كان بإمكانهما استئناف علاقتهما الأولية. وهل يمكنهما أن يتناولا طعام الغداء من حين إلى حين، وأن يتكلما بطريقة غير مهمة عن المدرسة أو عن عطلة نهاية الأسبوع، بعد قيامهما باللقاء؟ إنهما لن يتوصَّلا إلى ذلك. فالصمت الآن سوف يكسو علاقتهما. كانت اللقاءات الغرامية قد دمَّرت ما كان يجمعهما من قبلُ.

أحيانا، كانا يلتقيان أثناء الاجتماعات الإدارية. وكان كل منهما يهتم عندئذٍ بأن يجلس على الطرف الآخر للطاولة، وهذا موقفٌ يبدو غير

معقـول لـكل النـاس الذيـن يعرفـون أُلفتَهـما القديمـة. وكان هـذا التباعـد يشـير إلى قطيعـة بـدلا مـن اتِّبـاع الحـذر في التجنُّـب. وكانـت الشـائعات عـن مغامرتهـما تغـذي أروقـة (الفنـون الجميلـة)، إلى الوقـت الـذي أثـار فيـه زوجـان جديـدان مزيـدا مـن الهمهـمات. فلـم يبقيـا حتـى في القيـل والقـال.

كان غريبـا جـدا أن يتمكَّـن ذلـك مـن إظهـار (أنطـوان) عـلى مـا يُـرام في بحـر الأيـام الأخـيرة. وكأنـه قـد تحـرَّر مـن عـبءٍ. لقـد كان في حاجـة إلى هـذه القصـة مـع (سـابين)، وكان في حاجـة إلى ملاحقـة (لويـز). إنهـما حركتـان تبـدوان مختلفتـين، إلا أنهـما تكشـفان عـن الـضرورة نفسِـها، وهـي الإصغـاء إلى حدسِـه ليقـاوم الزلـزال الداخـلي.

والآن، يريـد أن يعيـد فعـل كل مـا لم يكـن قـد فعلـه؛ أن يذهـب إلى السـينما، وأن يقـرأ في الحدائـق العامـة. وهـذا شـعورٌ يمكـن أن يعـاني منـه المـرء حـين يخـرُج سـالما مـن فـترة سـوداء. وقـد تبـيَّن لـه أنـه كان قـد اجتاز منطقـة مـن الاضطـراب لم يكـن قـد عاشـها قـطّ، منطقـة فرَضَـت عليـه القيـام بمراجعـة كليـة. فقـد شـعر لأول مـرة بأنـه بالـغ.

(15)

وعـلى العكـس مـما كان يظنـه في نفسِـه (وكان يجـب أيضـا القبـول بعـدم وضـوح ميولـه)، لم يكـن الطـلاب الجـدُد طائشـين. ومـن خـلال موشـور الانحـراف العـام لمزاجـه، كان يـرى هنـا أو هنـاك اعتـداءاتٍ وهميـة. وكانـت إحـدى شـعب الـدروس العمليـة عنـده تتكـون مـن طـلاب كفوئـين بنـوع خـاص. وقـد جعلـه ذلـك سـعيدا. وكانـت كل محـاضرة تبـدو نجاحـا لـه. فقـد كان هنالـك تجـاوبٌ، وكثـير مـن التفاعُـل، ومنافسـة جماعيـة حقيقيـة. وكان يحيـد، مـرارا، عـن البرنامـج المقـرَّر ليُجـري نقاشـاتٍ حـول هـذا المعـرض أو ذاك مـما كان يُقـام في

(ليـون). وقـد كان (أنطـوان) يرغـب في أن يختبرهـم، وأن يقـوم بـكل شيء حتـى لا يكـون الفِكـرُ سريعـا، بـل ثمـرة لمسـيرة فكريـة.

وفي قلـب هـذه الشـعبة، كانـت هنالـك فتاةٌ شـابة يجدهـا (أنطوان) متألِّقـة عـلى وجـه الخصـوص. وقـد فكـر في أن هنالـك أحلامـا تداعـب وجههـا، مـن غـير أن يعـرف كثـيرا مـاذا كان ذلـك يعنـي. وعـلى الرغـم مـن هـذه الطريقـة التـي كانـت تبـدو أنهـا تفكـر في أشـياء أخـرى، فقـد كان متأثِّـرا بسَـعة ثقافتِهـا وبقدرتهـا عـلى التركيـز. ولـذا لم يتفاجـأ بأنهـا قدَّمـت لـه أفضـل عمـلٍ في آخـر امتحـان عـلى الطاولـة. فقـد مـرَّ (أنطـوان) بـين الطـلاب ليتفحَّـص نُسَـخَهم، محـاولا أن يقـول كلمـة لكل منهـم أيـا كانـت في التثبيـط أو التشـجيع. وعندمـا جـاء دور (كاميـل)، قـال بضـع جملٍ إطرائيـة جـدا. فلـم تُـثِرِ الطالبة الشـابة حسَـد زملائها، ولكـن بالعكـس، كانـوا جميعـا يـرون أنهـا كانـت تسـتحقّ هـذه المنزلـة في قمـة الدرجـات، وقـد هنَّؤوهـا. وكانـت في العـادة متحفِّظـة، إلا أنهـا في هـذا اليـوم كانـت ذات ابتسـامة عريضـة وهـي تتسـلَّم ورقتهـا الامتحانيـة.

القسم الثالث

(1)

ولما التقت (كاميل بِرُّوتان) أمَّها في ذلك المساء، لم تكن ابتسامتها قد فارقتها بعدُ.

(2)

منذ فترة قصيرة، كانت تعيش وحدها في (استُديو) مفروشٍ بالقرب من (الفنون الجميلة)، ولكنها كانت تحب أن تعود في عطلة نهاية الأسبوع إلى منزل والديها. فقد كانا يعيشان في بيت قديم بضاحيةٍ ليونية. والحق يُقال، كانت (كاميل) تعيش، طيلة فترة المراهقة، على وجه الخصوص، مع أمها. وكان أبوها موظّفا في التأمينات، وكان يغيب بانتظام أربعة أيام أو خمسة متَّصِلة. وبين (إيزابيل) Isabelle وابنتِها، كان السؤال اليومي: (أين بابا؟)، ولا أحد يعرف الجواب. قد يكون في (ديجون) أو (ليموج) Limoges أو (تولوز)، فهل يهم ذلك في نهاية المطاف؟ إنه ليس هنا، وهذا هو ما يهم. وكانت والدة (كاميل) ممرِّضة في مركز مشفى (سان-جوزيف سان-لوك) Saint-Joseph Saint-Luc، وعملها اليومي لم يكن سوى تلقي الشكاوى. وكانت تعود منهكة في المساء، وهي تُقِرّ بأنها لم تكن لديها دوما طاقة كثيرة تخصِّصها لابنتها. وعندما رأت وجه (كاميل) السعيد هذا المساء، اضطربت من ذلك. وسألتها: (هناك خبرٌ طيِّب؟)، فلم تجب الفتاة الشابة، لأنها لم تكن تريد مشاركة هذه السعادة النادرة خشية أن

تتبدَّد بالكلام. وكان أستاذها قد هنأها، ولكنها لأول مرة كانت تشعر بقيمة هذا الاعتراف. فهي، منذ أن انتسبت إلى (الفنون الجميلة)، كانت تنتقل من حسَنٍ إلى أحسن، وكانت تحب على وجه الخصوص محاضرات الأستاذ (دوريس).

وقد أعادت (إيزابيل) التفكير في هذه الابتسامة زمنا طويلا ذاتَ مرة حين غادرت (كاميل) غرفتها. فتبادلت بضع رسائل مع زوجها، ولم تكن تلك عادتَهما. فقد كان يحصل لهما أن لا يتكلما خلال عدة أيام. وهذا أمر غريب بين زوجين، ولكنهما لم يكونا يرغبان في أن يطرحا أسئلة آلية لم تكن أجوبتُها لِتَهُمَّهما حتما. فالحوادث الطبية الطارئة عند امرأته لم تكن تستهوي (تييرِّي) Thierry، تماما كما كانت (إيزابيل) غير فضولية لمعرفة خطوط سفر زوجها. فقد كانا يهتمان بالضروري. وقد أضفى ذلك على علاقتهما جانبا كان يبدو للآخرين جفاء، ولكنه كان يلائمهما تماما. ومع ذلك، كانت (إيزابيل)، في ذلك المساء، ترغب في أن تتحدَّث عن ابتسامة (كاميل). وقد وضع (تييرِّي) شوكتَه على سِماط الورق. فقد كان وحيدا في وسط الصالة الكبيرة لعودة الملَكِيّة في فندق (إيبيس) Ibis، وهو على وشك الفراغ من الطبق الرئيسي ذي الصيغة المصممة خصيصا لجماعة الـ(VRP)[52]. فقد أثلج هذا الخبر صدرَه[53]. حتَّى إنه كان لديه شعور بسماع هذه الابتسامة. فأحيانا ظهور ما نأمُله زمنا طويلا يحوِّل السكون ضجيجا.

وباستعارة الطرق نفسِها للذاكرة، يتذكر كلٌّ من (إيزابيل) و(تييرِّي) السنوات الأخيرة. وكان من الصعب أن يعرف المرء في أي وقت كانت

(52) حروف مختصرة للكلمات: Voyageur Représentant Placier، بمعنى (المسافر الذي يعمل وسيطا تجاريا)، أي يسافر لعرض سلعة تجارية للترويج لها. (المترجم).

(53) أصل العبارة الفرنسية: Cette nouvelle lui mit du baume au cœur، أي: (فقد وضع هذا الخبر بلسما في قلبه)، وهذه كناية عن الطمأنينة والسرور، ولذا استبدلنا بها الكناية العربية التي أثبتناها محلَّها لقربها من الأذهان العربية أكثر. (المترجم).

الأشياء قد انقلبت. فرَأْياهما كانا يختلفان بشأن هذه النقطة؛ كانت الأمُّ تعتقد أن (كاميل) كانت قد غطَّت فجأة في نوع من الخُمُول، بينما كان الأبُ يُقدِّر أن حالتها المرضية قد حصلت بالتدريج. لا يهم كثيرا. فالنتيجة كانت واحدة. لم تعُد (كاميل) البنت الصغيرة الفرحة بطفولتها، وقد فرَّت منها اللامبالاةُ.

لقد كانت (إيزابيل) تقضي ساعاتٍ على (الإنترنت)، محاولة أن تفهم ما قد حصل، مقارِنة حياة الآخرين بالأعراض التي كانت تعتقد اكتشافها عند (كاميل)؛ هل هي انفصام شخصية، أم تناقض الشخصية، أو الاكتئاب؟

وكانت بعضُ الشهادات أشدَّ إفزاعا من بعضها الآخر. والأفضل أن تتوقَّف عن الإبحار في هذه المنتديات على (النت)، وأن تأخذ أخيرا رأي الطب. لم يكن طبيب الأسرة العام يعرف عن ذلك كبيرَ شيء في مجال الاختلال النفسي، ولكنه كان يريد أن يساعد[54]. وكان يتخذ دوما هيئة صارمة جدا، وكأنما كان يرغب بأن يقرأ المرء شهاداتِه على محياه. وقد توجَّه إلى (كاميل) كما يتوجَّه إلى طفلة قائلا:

- قولي لي ما ليس على ما يُرام. فأمُّك قالت لي إنك لا تأكلين شيئا تقريبا. فهل لديك وجع في مكانٍ ما؟

- ...

كانت (كاميل) قد بلغت آنذاك السادسة عشرة. وقد أقلق تصرُّفُها منذ عدة أسابيع والديها. فهي تتأفَّف من الذهاب إلى المدرسة بعد أن كانت دوما طالبة متألِّقة، ولم تكن أمُّها تكفّ عن سؤالها إن كان قد حصل شيء ما. فكانت تكرِّر قولها: لا، لا شيء.. لا، لا شيء. ولم تكن تود أن تنهض من النوم هكذا. وفي أحد الأيام، انتهى بها الأمر إلى

(54) كان مجاله التهاب القصبات، بما فيه الحاد منه.

أن تمتمت بقولها: (أشعر في نفسي ثِقَلا من المستحيل إزاحتُه). كانت الأم قد سمعت من قبلُ هذا النوع من الكلام في المشفى من قِبَل مرضَى الاكتئاب. كانت كلُّ حركة قد أصبحت ذات ثِقَلٍ لا يُحتَمَل. وقد تخيَّلت (إيزابيل) أنه يتوجَّب مساعدة ابنتها في مكان دوامها، وتليين أدنى حركاتِها، ويمكنها بذلك أن تجد الطاقة. كانت تود أن توصلَها صباحا إلى المدرسة، ثم تعود لتأخذها في المساء. وهذا لم يغيِّر شيئا، فـ(كاميل) لم تكن تريد أن تغادر سريرها. وقد عانت (إيزابيل) من شعور مروِّع بالعجز.

لم يكن الطبيب، الذي يجلس قرب (كاميل)، يدري ما يقول. فقد قاس ضغطها، وجَسَّ العُقَد اللمفاوية، ودعاها لأن تسعُل، وأن تقف، وأن تتمدَّد، وكان يحاول أن يُخفي عدَم فهمه ببعض الحركات المألوفة. وكانت تحاليل الدم طبيعية. قال لها:

- يمكنك أن تقولي لي كل شيء. تعلمين جيدا أنني صديق للأسرة. وأنا أعرفك منذ أن كنت صغيرة جدا.

- أعلم.

- لذا، قولي لي ما عندك. وقولي لي أين الألم.

- ليس لدي ألم.

هذا ما قالته (كاميل) بنغمة جازمة، آملة بذلك وضع حدٍّ للاستشارة. وكانت تريد أن يتركوها بسلام. فعندما كانت وحيدة وغارقة في الظلام، كان الوجع محتملا تقريبا.

ولكن الأم لم تتمكَّن من الاستسلام. وقالت لها: (حبيبتي، أرجوك.. قولي للطبيب ما ليس على ما يُرام.. لقد قلتِ لي أمس إنك لست بخير..). لا شيء يمكن عمله. وكأنَكَ تحاول أن تفحص جدارا. نهض الطبيب، موجها إشارة إلى (إيزابيل). يمكن الاعتقاد أنه كان مندهشا من فضل العبقرية الطبية. وأوشك أن يجد الحل. اقتربت الأم، فهمس

لها بقوله: (أحيانا، لا يرغب الأطفال في قول شيء بحضور والديهم. ولعلَّك تصنعين حسَنا بتركنا وحدنا. يجب أن نحاول..). فنفَّذت (إيزابيل) ذلك.

خرج الطبيب بعد بضع دقائق، ومعه جميع محاولاته المجدِبة ليجعل الفتاة الشابة تتكلَّم. وكان يشعر تماما أنه يريد أن يقول: (لا تشكو من شيء. وهي تحاول فقط أن تجتذب إليها الأنظار ككل الصغيرات في سنها). ولكن الأفضل، أمام المظهر القلق للأم، أن يتمالك نفسَه. وقد فضَّل الشروع في التعبير عن بعض التفاهات، فقال:

- أظن، وأنت تعلمين، أن هذا الأمر تقليدي تماما في سن المراهقة.

- هل تعتقد؟

- نعم. يخرج الطفل من طفولته التي هي مثل الجنة. وكان مدلَّلا. وكان مركز العالم. ولكنه بعد ذلك، يجب أن يكبر. ويتبيَّن له أن الحياة صعبة. وأتذكر أنني أنا أيضا كان عندي حالات اكتئاب في تلك السن. لا، حقيقة، يا (إيزا)[55]، اطمئني.. إنه وهْنٌ تقليدي. وأرى منه كثيرا في عيادتي، فهنالك مراهقون أصبحوا قوطيين ويلبَسون السواد.

- ولكن (كاميل) لم تفعل شيئا من كل هذا.

- أعلم. ولكن الاستياء يشكل جزءا من هذه السن. فبعضهم يتعاطى المخدرات، وآخرون يبقون في السرير. وبصراحة، أنت محظوظة تقريبا، فقد كان بالإمكان أن يكون ذلك أسوأ. فقولي لنفسِك فقط إن هذا وقت رديء يمضي.

- أرجو أن تكون على حق.

- ثقي بي. يجب أن تحاولي تغيير أفكارها.

- إنها لا تريد أن تفعل شيئا.

(55) اختصار تحبُّب وتقرّب لاسم الأم (المترجم).

- والمدرسة؟ هل تغيَّبت كثيرا؟

- أكثرَ من أسبوع. وقد كنت أريد أن تذهب إليها هذا الصباح. فخلقت لي أزمة. ولا أدري ما أفعل.

- يمكنني أن أصف لها مضادات القلق (anxiolytiques)، ولكنني غير متأكِّد أن يكون هذا هو الحلَّ.

وبعد صمت قصير من التردُّد استأنف يقول:

- ربما يترتب عليك استشارة طبيب نفساني.

- إنها ليست مجنونة.

- أنا لم أقل ذلك. وأعلم جيدا جدا أنها ليست كذلك.. ولكنها في حاجة إلى متابعة بالتأكيد. وعلى كل حال، إن مشكلتها لا تتعلَّق بالطب العام.

- أنا لا أفهمك. فقد قلتَ إن هذا وهْنٌ تقليدي، والآن تريد إرسالها لاستشارة..

- أنا أبحث عن حلٍّ معك. ويجب أن نجرِّب الإمكانات المختلفة، هذا كل ما أقوله. والرسم؟ ألم يكن هوايتَها؟

- بلى، وحتَّى هذا انتهى. ويمكن القول إنها لا تحبّ شيئا.

انتقل الطبيب بغتة إلى سؤال يقول:

- هل أنت متأكِّدة من أنه لم يحصل لها شيء؟

- ماذا؟

- هل أنت متأكِّدة أنه لم يحصل شيءٌ في حياتها؟

- مثل ماذا؟

- لا أدري. ليس هنالك شيء محدَّد. قصة مع صبي.. أو لا أدري..

- لا طبعا، وإلا قالت لي. فهي تذكر لي كل شيء.

تم نُطقُ هذه الجملة عن غير اقتناع، وقد شعرت (إيزابيل) إلى أي حد كانت ابنتها تتهرب منها. والحق يُقال، كان الأمر أسوأ من

ذلـك؛ إنهـا لم تكـن تعرفهـا قـطّ، وانتهـت إلى القـول:

- هل تعتقد أنها كانت تخفي عني بعض الأشياء؟

- ربما، لا أدري. أليس عندها يوميات عاطفية؟

- لا.

- وحساب (فيسبوك) Facebook.

- أعتقد أنه غير مُفعَّل.

- تعتقدين أم متأكِّدة؟

- متأكِّدة.

- ابحثي قليلا. اتصلي بأصدقائها. فربما وجدتِ شيئا ما.

ردَّت (إيزابيـل)، وهـي تقـول في نفسِـها إن التطفُّـل عـلى حيـاة ابنتهـا كان قيـد النظـر:

- نعم.

- أنا هنا على أي حال لأجلك، ولأجلكما.

- شكرا على كل شيء.

اقـترب الطبيـب مـن (إيزابيـل) بحركـة وديـة. فاقترحـت عليـه شرب كأس، ولكنـه آثـر الذهـاب. لقـد كانـت تجمعـه صداقـة قويـة بـ(تيـرِّي)، وحتـى لـو لم يكـن هنالـك شيء ملتبِـسٌ في الحالـة الراهنـة، فـإن شـيئا مـا كان يزعجـه. مـن غـير أن يعـرف في الحقيقـة مـا هـو. ربمـا كان الجـو. إنـه التثاقُـل بالتأكيـد. وبالتفكـير فيـه مَليـا، قـال في نفسِـه إن الأمـر لا يتعلَّـق بأزمـةِ مراهقـةٍ تقليديـة. هنالـك أمـر خطـير يتعـيَّن أن ينتـج منـه.

(3)

وبعـد قليـل، وفي ذات المسـاء، عـاد (تيـرِّي). فـروت لـه امرأتُـه الموعـد مـع الطبيـب. وفي رأيـه ليـس هنالـك مختـص يسـتطيع أن يطمـئن ابنتَـه. وكان الأب لا يكـف عـن التفكـير فيهـا طـوال جولتـه الأخـيرة، واسـتنتج أنـه كان الوحيـد الـذي يمكـن أن يؤثِّـر فيهـا. فهـو سـوف يحـاول أن يعمـل أقـلَّ

قائلا ببساطة: (إن ابنتي في حاجتي). كانت الساعة أكثر من العاشرة مساء، ومع ذلك قرَّر الذهاب ليتكلَّم مع (كاميل). دق على بابها ثلاث مرات[56]. فلم تُجِب، ولكن (تيريِّي) قرَّر الدخول فورا. وكانت دهشة ابنته كبيرة، لأنها بصدد الرسم، ومركِّزة إلى درجة أنها لم تكن تسمع شيئا. فكانت رؤية ذلك رائعة لدى أبيها، لأنها توقفت لعدة أسابيع عن ممارسة هوايتها.

تقدَّم نحوها بهدوء، وقلبُه يَخفق. فهي إن كانت ترسم ثانية، فهذه علامة على أنها تعافت، ولعل كل شيء يرجع كما كان من قبلُ. ولكنه حين وصل إلى قربها تماما، توقَّف فجأة وهو يكتشف المخطط الإجمالي للرسمة الـ(كروكي) le croquis موضوع اللوحة. لقد كان بقعة سوداء رهيبة، بحدود مقزِّزة، كانت نوعا من الجُعلان ذات المِجَسّات. وعندئذ استدارت (كاميل)، من غير أن تظهر أدنى مفاجأة باكتشافها حضورَ أبيها، لقد كانت في غاية الخمول، حتَّى إن شيئا لم يجعلها تنتفض. وعانقت أباها بسرعة. وآثر هو ألا يذكر الجانب المرعب للرسمة التي كان قد رآها للتو، نظرا لأن الأرض كانت ممتلئة منها، فقد لمح الآن عشرات أخرى سقيمة أيضا تماما.

(4)

قبل بضعة أشهر، كانت (كاميل) قد بدأت ترسم. ومولد هذه الهواية أصلُه رحلة مدرسية. وفي ذلك اليوم، كانت قد شعرت بنوع من الكشف. فقد تكشَّف أمامها فجأة عالَمٌ جديد. والحق يُقال، قلَّما كانت معتادة على الزيارات الثقافية. فقد كان والداها، يفضِّلان في عطلة نهاية الأسبوع، أن يصحباها لتقوم

(56) كانت هذه هي العلامة حين كانت صغيرة. ثلاث ضربات، وتعرف أن هذا أبوها. وحينئذ تعطي الإذن بالدخول.

بنزهات طويلة في الغابة، أو كانت تصيد السمك مع أبيها. تلك كانت الحال على الأقل في الأزمنة الأخيرة، وقد فاتها ذلك. ولكن طيلة طفولتها، كانت تقضي أيام آحاد صامتة وحالمة. وقد شجع ذلك فيها طبيعة انطوائية، فاقَمَها كونُها بنتا وحيدة. وفي صباح كل يوم اثنين، كانت العودة إلى المدرسة كالصدمة. فقد كان عليها أن تستأنف إيقاعا جامحا. وبصورة ما، كان لحياتِها رأسان.

فطبعها المتحفِّظ لم يكن ليمنعها من أن يكون لها أصدقاء كُثُر. وكان لديها ميل قوي إلى الاستماع. وقد كانت من أولئك الصامتين الذين يُقرّ المرء بذكائهم، ويعطيهم مباشرة أسراره الحميمة جدا. ومن جانبها، لم تكن تحب الظهور. وخلال ثلاثة أشهر، كانت تخرج مع فتى أكبر منها بسنة، وكانا يتنزهان ويده في يدها، وكانا يتعانقان في مكانهما، وهو زاوية قَصِيّة من الحديقة الكبيرة الواقعة بالقرب من المدرسة.

ثم انتهت القصة، من غير أن يعلم أحد في الحقيقة لماذا. لقد كان (جيريمي) Jérémie هو الذي قرَّر قطع العلاقة. وبعد بضعة أيام، لمحته مع فتاة أخرى من فصلها. رأتهما (كاميل) يمشيان يدا بيد، وربما كانا يذهبان ليتعانقا في مكانهما، مُوَسِّخا ذكرى ما كان يظهر لها لا نظير له.

وقد احتفظت (كاميل) بطعمٍ مُرٍّ لهذه القصة التي انقلبت، في بضعة أيام، من الجمال إلى القُبْح. ولكنها لم تكن تريد أن يشاركها أحد بما جرى. وقد انتهى الأمر بصديقتها المفضلة (إيريس) Iris في أحد الأيام بجعلها تتكلَّم، إذ قالت (كاميل):

- كان يريد أن ينام معي. ولم أكن أشعر بأنني مستعدة لذلك.

ردَّت (إيريس) بمهارة مفاجئة من التعزية (ولكن يجب أن يُفهَم أنها قد افترضت تماما كونها مكان صديقتها):

- ماذا؟ كان عليك أن تقبلي!

قالت (كاميل):

- كنتُ أرغب في الانتظار قليلا أيضا.

- نعم، تماما. ولكن مع (جيريمي بالِستيروس) J. Balesteros.. نفسه.

- لقد خيَّب أملي للغاية. ولن أجعله ينتظر عشر سنوات. فقط بضعة أسابيع، وربما أقل.. انظري، إنه لم يهجرني فقط، وإنما رافق على الفور فتاة أخرى. وهذا في الحقيقة أفضل. ولا آسف على شيء.

فقالت (إيريس) مستنبطة[57]:

- لا يوجد بعدُ أمير فاتن. وإذا ما انتظرتِه فلسوف تموتين عذراء.

كانت (كاميل) تجهد نفسَها في البحث عن الجانب الإيجابي في كل شيء. وستصل بالتدريج إلى استخلاص خيرِ ما كانت قد عاشته مع (جيريمي).

(5)

لِنعُدْ إلى الرحلة المدرسية التي كانت قد شكَّلت منعطفا في حياة (كاميل). كان المدرِّس الذي ينظِّم هذا النوع من الرحلة الثقافية، يأمُل دوما أن تؤثر بهم، وكان بعضهم معجبين بها. والحقيقةُ تكون في أغلب الأحيان مخيِّبة. وأغلب الطلاب كانوا يجرون أرجلهم جرا بشأن فكرة الاستمتاع بزيارة مع مرشِد إلى متحف. ولسوف يتم تشريحُ مقاصد فنانٍ ميِّتٍ منذ ثلاثة قرون، وتحليلٌ يتم خلال ساعات لماذا كان قد وضع اللون الأحمر هنا لا الأخضر، ولكن حسنا، إن ذلك أفضل دوما من التعفُّن في المدرسة. والحق يُقال، إن الأستاذ لم يفرِض شيئا في ذلك اليوم، لا مُرشِدا ولا إلزاما. فكان كل واحد حرّا. فقد عرض عليهم أن ينتشروا في متحف الفنون الجميلة في (ليون). فقط

(57) لسوف تنفُذ في مكان آخر بعد قليل وجهة نظرها بالنوم مع أول قادم. وهي تجربة سوف يتّضِح أنها كارِثيّة. ولكي تُطمئنها، ستقول لها (كاميليا) هذه الجملة الغامضة: (إن في كل إخفاقٍ بادِرةَ نجاحٍ قادمٍ).

طلب إليهم أن يختار كلٌّ منهم عملا فنيا واحدا، رسما كان أو نحتا، وأن يشرح في صفحة واحدة أسباب اختياره. وأضاف الأستاذ قوله: (لسوف تحتارون في الاختيار.

فهنالك أعمالٌ لـ «باكون»[58] Bacon، و«بيكاسُّو»، و«غوغان» Gauguin[59].. وباختصار، اختاروا أي شيء يُثير إعجابَكم). كان يبدو دوما قديم الطراز قليلا، ولكن يشعر المرءُ بأن لديه رغبة لا تتغيَّر في أن يفعل خيرا.

ابتعدت (كاميل) وحدها. وقد اجتاحها بسرعة فائقة انفعالٌ قوي، انفعالٌ بكونها قد انغمست وسط القرون والأعمال. فهنالك عالَمٌ كُلِّيّ من الجمال ظهر لها فجأة وبشكل هائل.

فقد مرَّت أمام لوحة رسمها بولونيّان. وكانت تعرف أن هنالك ثنائياتٍ في السينما وفي الأدب، ولكن كان يبدو لها أمرا مبتكرا أن تُرسَم لوحةٌ بأربع أيادٍ.

تابعت (كاميل) طريقها، ووقفت أمام لوحة لـ(تيودور جيريكو) Théodore Géricault[60] تدعى (المهووسة بالرغبة). كان ذلك بمنزلة بديهة. فكل شيء كان يجتذبها، ولاسيما نظرة المرأة العجوز، المليئة بجنون لطيف. وستكتشف (كاميل) فيما بعد أن ميل هذا المصوِّر كان للمجانين. وعلى الرغم من كل شيء كانت تحسّ أن لديه مع فظاظته وبرودتِه الظاهرتين في عمله قوة متسامحة، كما لو كان يسعى إلى إنقاذ روح تائهة من متاهة الجنون. لقد كانت لوحة مؤثِّرة ستعيش

(58) باكون: (فرانسيس - Francis) مصوِّر تشكيلي بريطاني (1909-1992) كان أسلوبه التعبيري يثير القلق. (المترجم).

(59) غوغان: (بول - Paul) مصور ونحات فرنسي (1848-1903)، كان يعالج الألوان أولا بطريقة مصوري مدرسة (بون-آفين) Pont-Aven في (بروتاني) Bretagne، ثم في (تاهيتي) Tahiti. وكان له تأثير كبير في فن القرن العشرين. (المترجم).

(60) تيودور جيريكو: مصور ورسام ونحات وطباع على الحجر فرنسي (1791-1824)، ينتمي إلى الفن الرومانتي. (المترجم).

فيها زمنا طويلا.

كان الأستاذ سعيدا على وجه الخصوص لشعوره بتأثُّر طالبتِه. ومنذ عودتها، اعترفت (كاميل) بأنْ ليس لديها سوى رغبة واحدة؛ هي العودة ثانية. وقد نصحها بأن تذهب أيضا إلى متحف الفن المعاصر، وهذا ما ستقوم به خلال العطلات التالية في شهر شباط/ فبراير. وأخذت تشتري كتبَ فنٍّ مستعملة، لتكتشف مصوِّرين جُدُدا، وعصورا، وألوانا. وقد أشركت أمها بحماستها. وكان لدى (إيزابيل) توجه إلى أن ترى كل شيء رائعا، جزئيا لتقليل تحليقات ابنتها التي لا نهاية لها. وذات مساء، طرحت عليها بالطريقة الأكثر تفاهة قولها: (إن كنتِ تحبين الرسم.. فلماذا لا ترسمين أنت؟). ولم تكن (كاميل) قد فكرت حقا في ذلك قطّ، وكان في ميلها أكثر من رغبة في المعرفة. لقد كانت رغبتها عضوية؛ فقد كانت تريد أن تبدِع.

(6)

منذ عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة، اشترت فراشِيَ وأنابيب ألوانٍ للتصوير. لقد كانت تريد أن تبدأ بطريقة احترافية، وفي هذه اللحظة

كانت الرغبة أقوى من الإلهام. لم تكن تدري ماذا تصوِّر. وهذا قليل الأهمية. فالواقعة البسيطة في امتلاك حاملةٍ خشبية أمامها، ومئزَرٍ، ومجموعة ألوان، كان يملؤها بالرضى التام، فالتمهيد للإبداع نشوة في حد ذاتِه. وقد فكّرت في نفسِها: (هذا الذي أفعلُه، هو ما كنت دوما أريد أن أفعلَه). وقد فكَّت سِرَّ الحدس الذي كان يعتمل في جسدها، ألا وهو أن تعيش عيشةَ فنّان. إن كلَّ ما عاشته حتى الآن لم يكن سوى انتظارٍ غير شعوريٍّ لما يجري حاليا.

وطوال أسابيع، توقفت النزهات في الغابة. كانت (كاميل) تفضل الرسم. وكان والداها يتركانها في الصباح الباكر ليجداها في آخر النهار في حالة هيجان يبدو أنها لا تنفَد. فقلقا من حقيقة أن نتائجها المدرسية ستتأثَّر قليلا، ولكن في الأصل، كان أمرا مفرحا أن يرى المرء طفله مفعما هكذا بهِوايةٍ، ولاسيما هواية الرسم، في سِنٍّ ينمو فيها أحيانا بخمول. ومن ثم، كانت (كاميل) تبدو منشرحة. وكان والداها يتابعان تقدُّمها بفخر. لقد بدأ عالَم الرسم لابنتهما يتحدَّد، وكان نوعا من الواقعية مع بعض الهذيانات الحُلْمِيّة الخفيفة. وكانت لوحاتُها غالبا لطيفة جدا، فيها ألوان بلا تطرُّف، يمكن أن يقول المرء عنها إنها تمدُّ إليك يدها.

قالت لها (إيزابيل) ذات مساء:

- لقد قلت في نفسي إن عليك ربما أن تُظهري ما تفعلين.

- هذا لن يهُمّ أحدا. ثم إنني.. أرسم لنفسي.

- أعلم. ولكنك كنت قد قلت لي أمسِ أيضا إلى أي درجة كانت لديك الرغبة في التقدُّم.

- نعم.

- إذن رأيي سيكون مفيدا لك.

- ربما.

- أنا أفكّر في (سابين).
- زميلتك؟
- نعم.
- إنها لا تعرف شيئا عن الرسم.
- ليست هي، وإنما زوجها. إنه أستاذ للرسم في مدرسة خاصة.
- لم أكن أعلم.
- يمكنني أن أقترح مجيئهم لتناول المقبِّلات يوم السبت، إن وافقتِ؟
- نعم، لِمَ لا.

كانت (كاميل) تمثِّل اللامبالاة، ولكن الفكرة كانت تغريها كثيرا. ولقد كانت متأثِّرة بالشعور إلى أي درجة كانت أمها تجهد نفسَها لتساعدها على تحقيق أحلامها. وأرادت أن تشكرها، غير أن الحياء حفظ في نفسِها كلمات المحبة.

(7)

في السبت التالي، التقى الخمسة حول طاولة. (كاميل) ووالداها، وكذلك (سابين) وزوجها (إيفان) Yvan. كانت تلك مقبِّلاتٍ خفيفة، وكان هنالك تهذيبٌ غريب انطلق من تلك الأمسية، وسيظن المرء تقريبا أنهم جميعا يأكلون للمرة الأولى.

تفاجأت (كاميل) من رؤية (سابين) ترتدي ثوبا قصيرا جدا (ميني جوب) وحذاء ذا كعب. وعادة ما كانت تصادفها حين كانت تذهب إلى أمها في المشفى. وقد كانت تعدّها دوما شخصية جادة ومحتشِمة. وأما مظهرها يوم السبت، على حدود السوقية، فقد كان غير متناسق. وفي المقابل، اكتشفت زوجَها. فقد كان ذا هيئة لطيفة، وكان المرء يشعر بأنه يتصرَّف تصرفا جيِّدا في أدنى حركة من حركاتِه. وقد تساءلت الفتاة الشابة ببساطة لماذا كان نهما في تناول الفُسْتُق بينما كان بوضوح ذا وزن زائد. بالتأكيد لم تكن مشكلات الممرِّضات تستهويه.

كانت (إيزابيل) و(سابين) تذكران واحدة من زميلاتهما مكتئبةً، تدعى (ناتالي) Nathalie لم تعد إلى المشفى. وكان المرء يزجي الضجر كما يَقدِر، حتى إن حبة فستق كان بالإمكان أن تكون القضية، لدى رجل غير معقَّد. ثم يجب الاعتراف بأن (تيرِّي) و(إيفان) لم يكن لديهما شيء يقولانه. فالأول يحب صيد السمك، والآخر يحب (الأوبرا)، الأول كان يسافر، والآخر مقيم، الأول يحب كرة القدم، والآخر يمقُتُ الرياضة، الأول يُصوِّتُ لليسار، والآخر لليمين، الأول غير جائع، والآخر أفرغ زبدية الفستق. وباختصار، وعلى الرغم من أن كلا منهما تزوَّج من ممرِّضة، فالواضح أن جلسة المقبِّلات هذه تُنذِر بأن أي مشاركة وجدانية بينهما لن تتكرَّر في جميع أيام السبت.

وتمت العودة إلى الموضوع الأصلي لهذا اللقاء؛ وهو هواية (كاميل) للرسم. وقد بدأت (إيزابيل) بمديح غير قابل للتصديق لسببين: الأول لأنها لم تكن تعرف شيئا عن الرسم، والثاني لأنها أم للمُهْتَم بها. وقد أشار عليها (تيرِّي) أن تدع الكلام لـ(كاميل)، التي أخذت حينئذ تروي، بكلمات بسيطة، ولكن محدَّدة، لِمَاذا كانت تحِسّ بأنها تحيا عندما كانت تصوِّر. لقد كان يسكن حقا في نفسها حين كانت تتحدَّث عنه، وقد أعدى ذلك الضيوف. فقد انتهى الأمر بـ(إيفان) بأن اقترح عليها أن يذهبا إلى غرفتِها ليرى رسومها. فنهضت (كاميل)، فتبعها.

وبقي وقتا طويلا أمام التخطيط الأول. فاعتقدت (كاميل) أن هذا الصمت لا يُبشِّر بشيءٍ جيِّد. وأنه كان يبحث عن كلماتٍ ليبيِّن لماذا يجِد هذا التخطيط رديئا. ولكن لا، لم يكن قد قال شيئا بعد. وكان يجب أن يألف ما كان يراه. وقد وجدت (كاميل) (إيفانَ) مختلفا جدا، إنه لم يكن ينظر إلى التخطيط نظرةَ الجائع إلى المقبِّلات، بل كان، بالعكس، يظهر متفكِّرا ورائقا. وبعد مدة، أصدَر أخيرا حكمه. لقد أحبه كثيرا، وكان يريد أن يرى الأعمال الأخرى. ولما شعرت (كاميل)

بالراحة والسرور، أخرجت عشرات الرسوم، وأيضا بضع لوحات ذات صبغ كثيف كانت قد أنجزتها مؤخرا. كان الأستاذ يتجوَّل في ساحتها بصمت وتركيز. وبعد عدة دقائق، انتهى به الأمر إلى الجلوس على الكرسي الموضوع أمام طاولة (كاميل)، وقال: (تعلمين، لقد أدركتُ سريعا جدا أنني لن أكون فنانا. إنني أحب الرسم بجنون، ولكنني لا أملك رؤية فنية. ولذا فإنني أعلِّم الطلاب تقنية الفن. ولكنك، يا «كاميل».. ويمكنني أن أقول لك ذلك: أنت تملكين شيئا ما. لا أدري ما هو بالضبط، ولكن ما أراه هنا أصيلٌ جدا..).

وتكلَّم (إيفان) أيضا ببضع كلمات من هذا القبيل. ولكن (كاميل) لم تكن تسمعها تقريبا، وكأن هنالك طنينا في أذنها الوسطَى، أو كأن السعادة كانت ضجيجا داخليا.

لقد سحرها ما كان هذا الرجل قد قاله لها للتو. لقد كانت تعيش فنانة، وكانت متأكِّدة من أنها تملك صوتا خاصا بها. ولقد كان أوَّلَ شخص من الخارج يؤكِّد لها ما كانت تشعر به.

واستأنف (إيفان) قائلا:

- حين كنتُ أعيش في (باريس)، حاولتُ أن أرسم. وكان رسمي رديئا، رديئا للغاية..

- لا تقُل هذا..

- لكن ليس أمرا خطيرا أن لا يملك المرء موهبة. ويجب ببساطة أن يملك موهبة الاعتراف بذلك.

ابتسمت (كاميل) قبل أن تسأله، قائلة:

- ولكن لماذا غادرتَ (باريس)؟

- أوه، إن هذا موضوع آخر.

لا شك في أنهما بقيا مدة طويلة في الغرفة، لأن (سابين) استقبلتْهما بقولها: (آ.. أخيرا!). وما إن جلس (إيفان) على الأريكة حتَّى أكَّد قائلا:

- إن لديها في الحقيقة موهبة.

فقالت الأمّ:

- لقد كنتُ متأكِّدة من ذلك.

- إن ما تفعلُه غير مألوف. ونُضجها مدهش.

قالت (إيزابيل):

- نعم، هذا صحيح.

- وهي، في المقابل، تفتقر إلى التقنية. وهي تحتاج إلى قواعد أفضل. وليس هذا بكبير شيء. ولسوف تتعلم بسرعة. وأقترح عليها أن تمر بي لزيارتي يوم الأربعاء بعد الظهر.

قال الأب قاطعا جوابَ الأم نفسَه:

- رائع.

وتلا هذا الإعلانَ صمتٌ. ولذا اقترحت (إيزابيل) الاحتفال بموهبة ابنتِها. فرفع الجميع كؤوسهم، وفي الوقت الذي حملت فيه (سابين) الكأس، قالت: (تخطر على بالنا أيضا «ناتالي»..). وكان ذلك بالتأكيد سوف يرفع حرارة قلب هذه الزميلة المكتئبة، حين تعلم أنهم لم ينسوها.

(8)

شكرت (كاميل) عدة مرات (إيفان) لإبداء استعداده لاستقبالها في بيتِه. وقد انتهى به الأمر إلى أن يطلب منها وضع حدٍّ للمبالغة في العرفان بالجميل. وقد سرَّها إمكان مساعدتها. وعادة ما أصبح يوم الأربعاء بعد الظهر وقتَه المخصَّصَ لها، وقد أوضح ذلك بابتسامة قائلا: (فلا محاضرات ولا زوجة).

كانت الفتاة الشابة تجد مضيفها متضايقا قليلا، من غير أن تتمكَّن حقيقة من تحديد هذا الإحساس. لقد كان ذلك انطباعا عاما، فقد كان يتحرَّك كثيرا مثلا، حتى إنه أخذ يتعرَّق وأخذ وجهُه يَحْمَرُّ.

وكان المرء يشعر أنه يحاول أن يفعل خيرا. وقد فكرَّت (كاميل) ثانية في نفسها قائلة: يا له من رجل لطيف. وفي المقابل، كانت ترى أمرا مدهشا لأنه يعرض عليها أن تزور كل الشقة قبل البدء. كان (إيفان) من الرجال الذين يذكرون لك أين تقع الحمّامات حتَّى قبل أن تطلب إليه ذلك. وقد ألقت (كاميل) نظرة خاطفة على الغرفة الزوجية، وقد رأت عرَضا أن السرير عريضٌ جدا. وفتحت كذلك بابا كان يُفضي إلى غرفة كانت فارغة نِسبِيًا. فقال (إيفان):

- عندما أقمنا هنا، قلنا إنها ستكون غرفة لطفلنا. ولكن.. (سابين) لم تَحمِل. وقد مرَّ على إقامتنا هنا عشرون عاما، وبقيت هذه الغرفة فارغة دوما.

تنهَّدت (كاميل)، وهي منزعجة قليلا، وقالت:

- أنا آسِفة.

ظنا منها أن هذا ما كان ينبغي قوله في مثل هذه الظروف.

سأل (إيفان) إن كانت تريد أن تشرب أو تأكل شيئا ما. وأوضح بفخر قائلا، كما لو كان امتلاك ثلاجة مليئة جدا ميزة سامية:

- عندي كلُّ ما يلزم.

فأوضحت (كاميل) أنها قد أكلت من قبل. فقال:

- أيُزعِجك لو تناولتُ شيئا قبل أن نبدأ؟

- لا، على الإطلاق.

- إنني جائع، لأنني لم أتوقَّف منذ الصباح..

وقد رأته (كاميل) حينئذٍ يحضِّر فطيرة باللحم، ازدردها بطريقة سريعة لا تُصَدَّق. وشرب كأسا من الـ(كوكا-كولا) Coca-Cola بذاتِ النَّهم. وإذا ما كان في الغالب يبدو متردِّدا أثناء تنقُّلاتِه، فإن طريقته في الأكل تنمُّ عن حضور ذِهنٍ، لئلا نقول عن شكل من أشكال النزعة الجذرية. ولم يكن لديه أي مكان للوَسَطِية في علاقته بالطعام. لا يبدو

أنه كان قد شبع، ولكنه فضَّل التوقُّفَ هنا، خشيةَ أن يُعَدَّ شَرِها.

وذات مرة سأل في الصالون:

- ألا تجدين أن الجو حارٌّ هنا؟

- لا، إنه لطيف.

- أنا، سأخلع سترتي.

قال ذلك بهيئة جادَّة أضحكت (كاميل)، فقال:

- ماذا؟ هل قلتُ شيئا غريبا؟

- لا.. لا.. فقط لك طريقة غير مألوفة في تفسير كل ما تفعل.

فقال بقلق:

- أوليس هذا جيدا؟

- بلى. إنه جيد جدا. إنني لا أتكلَّم كفاية، بالتأكيد.

- إنك حقا لَفنّانةٌ. هنالك من يفعل، وهنالك من يعلِّق، هذا مفهوم تماما. حسنا.. هل أحضرتِ لي بعض الرسوم؟

ذهبت (كاميل) لإحضار حقيبتها. ففتحها (إيفان) بلطف. وكان يبحث عن الكلمات المناسبة لشرح ما كان يشعر به.

- إن غايتي هي أن تتقدَّمي، ولذا سأذكر لك الأشياء بصراحة.

- نعم، بالتأكيد.

- يبدو لي أنك تضبطين نفسَك بشيء من الإفراط. وأنت تعرفين دوما ما أنت بصدد عملِه. فهل أخطأتُ؟

- لا، هذا صحيح. فأنا لا أدع نفسي بالتأكيد تذهب بعيدا..

(إيفان) لم يكن مخطئا. فقد كانت (كاميل) طالبة جيِّدة؛ كانت أنجزت أكثر مما كانت تعيشه. فهذا التعليق الأول كان يتحدَّث عنها حقيقة. وقد أعادت التفكير فيه في المساء نفسِه وفي الأيام التالية. يبدو على مُحيّا هذا الرجل أنه يفهمها تماما. وربما يصبح مُرشدا لها. كانت (كاميل) مدهوشة من رؤيته إلى أي درجة كان يبدو مستعِدا

لأن يوظِّف نفسَه لمساعدتِها. وهل كان يعيش ليتوكَّل بمن لا يقدِّر أنه جدير بالإنجاز؟ إن حيَوات الفنانين غالبا ما تكون محفوفة بلقاءاتٍ مع رجال ونساء يتحمَّلون الحرمان من الإبداع ليضحوا بأنفسِهم للآخرين. ولذلك لا تكون في الأمر أدنى مرارة، لأن هنالك جمالا في النقل. وإن المساعدة في تفتيح موهبة الآخَر هي أيضا موهبة عظيمة. وكان يبدو أن هذا الرجل يملك الرغبة في أن يرسم القدَرَ الفني لـ(كاميل).

بعد هذا التمهيد، كان يجب البدء بفحص القواعد، فقال (إيفان):

- إنه لأمر جميل جدا أن يرى المرء كم عندك من إحساسٍ فِطرِيّ بالألوان وبالانسجام العام للتركيب، ولكن يبدو لي أن بإمكانك أن تتعلمي مبدأين أو ثلاثة مبادئ ستكون نافعة لك دوما.

- شكرا. وأنا مستعجلة لتعلُّمها إلى حد كبير.

سأل الأستاذ بغتة:

- هل لك رفيق صغير؟

- عفوا؟

- إنني أسألك عن ذلك من أجل مساعدتِك.. فأنا في حاجةٍ لأن أفهم قليلا بيئتَك. وما رأيتِه.

- في الحقيقة لا أرى العلاقة بينهما، وبالطبع لا.. ليس عندي أحد.

- جيِّد جدا. لم أكن أريد أن أظهر متطفلا كثيرا.

- ...

وبعد فراغ في الحديث، شرع (إيفان) في شرح ما يجب معرفته بشأن الألوان.

(9)

عادت (كاميل) إلى بيتها في أول أربعاء برغبة في الرسم لا تُقهر أكثر من أي وقت. لقد كانت تريد أن ترسم، كانت تريد أن ترسم، كانت تريد أن ترسم. فقد تجمَّعت قِطع حياتِها في وحدة شاملة. ومن

الآن فصاعـدا، سـتصبِح البقيـة ملحقـة. سـألت (إيزابيـل) كيـف جـرت المحـاضرة؟ فقالـت لهـا: رائعـة. وفصَّلـت قليـلا مـا كانـت قـد تعلَّمتـه، وانتهـت إلى القـول:

- هل كنتِ تعلمين أنهما لم يستطيعا إنجاب طفل؟

- آ.. حسـنا.. كانـت (سـابين) تقـول لي دومـا إنهـا لم تكـن تريـد طفـلا، وإنها كانـت تريـد أن تَقِـفَ حياتها عـلى المـرض.

- وأنتِ صدَّقتِها؟

- نعم.

- لقـد أراني زوجهـا غرفـة الطفـل الـذي لم يُرزقـاه قـطّ. والظاهـر أن الأمـر كان صعبـا عليهـما.

- بالتأكيـد.. الآن أنـتِ تقولـين لي ذلـك.. فبـين (سـابين) وبينـي حيـاء كبير. وهـي لم تتحـدَّث عـن نفسِـها كثـيرا سـوى ذلـك في النهايـة. إن المـرء لـيرى كثـيرا مـن الآلام مـن حولـه وينتهـي بـه الأمـر إلى أن ينـسَى نفسَـه. ولكنهـا في الحقيقـة امـرأة رائعـة، لم تكـن تشـكو قـطّ.

- وأنتِ أيضا، ماما، امرأة رائعة.

كانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي تتوجـه (كاميـل) هكـذا إلى أمهـا. صحيـح أن ذلـك ذُكِـر في تتمـة الحديـث، ولكـن بطريقـة عفويـة تأثَّـرت بها (إيزابيـل) تأثُّـرا عميقـا. وقـد شـدَّت إحداهـما يدَهـا عـلى يـدِ الأخـرى لحظـة، وسرَّهـما ذلـك. فلـماذا إذن لم تكونـا تفعـلان ذلـك في أغلـب الأحيـان؟ في مرحلـة المراهقـة، تنشـأ بالتدريـج مسـافة جسـديةٌ بـين الوالديـن والأبنـاء. لقـد أصبح بعيـدا زمـن الملاطفـات التـي لا نهايـة لهـا. وعمـر (كاميـل) الآن سـتة عـشر عامـا، وعـما قليـل سـتصبح امـرأة. ولكنـه أمـر جيـد جـدا أن تكـون بـين ذراعَـيْ أمهـا، وأن تطيـل زمـن طفولتِهـا.

(10)

كانـت (كاميـل) تكتـب وظائفهـا، كلَّ مسـاء، بعـد الـدروس،

بأقصى ما يمكن من السرعة، لتتعامل مع مجموعة ألوانِها. وكان لديها وقتٌ أقل لأصدقائها. وقد لامها (جيريمي) ذات مساء بقوله:

- هل عندك أحد في هذا الوقت؟ فنحن لا نراك في الأمسيات. وفي كل مساء تندفعين بسرعة..

- وبعدُ، هل يهُمّك ذلك؟

- يمكن.

- ماذا يعني ذلك؟ هل انتهى الأمر مع الأخرى؟

- نعم.

- لقد هجرتني من أجل قصة قصيرة تعيسة لا معنى لها، وتعود إليَّ الآن. إنك لمثير للشفقة. وأنا أشكر لك هجراني. فهذا أفضل شيء حصل لي.

ثم تركت (جيريمي) معلّقا، في البحث العقيم عن ردّ. لم تكن (كاميل) متفاجئة بأنه قد عاد إليها، من غير أن تكون مزوَّدة بـ(أنا) متضخمة بإفراط، فقد كان لديها انطباع بأنها تمتلك الآن قوة تمارس جذبا للآخرين. ولم يكن لأي شخص مَـمْسَكٌ عليها. فالإبداعُ لم يمنحها ثِقَلا نوعيا لا مثيل له فحسب، ولكن منحها قدرة على أن لا تنتظر شيئا من أحد. وهذا عالَمٌ كلِّيّ، من شأنه إشباع كائن بشري.

لقد نمَّت الميل إلى الصورة الذاتية. ففي بعض الرسوم، كانت تبدو وكأنها تنظر إلى نفسِها بجِدَّة. ومن أجل أن تذكر عمرها، رسمت الرقم (1) في العين اليسرى، والرقم (6) في العين اليمنى[61]. وقد وجد والدها ذلك أمرا رائعا. وفكّرت (كاميل) في أنهما لا

(61) هذا التحديد بالنسبة للناظر إلى العينين في اللوحة فقط. (المترجم).

يعرفان شيئا عن ذلك. ومع ذلك كانا يدعمانها بلا توقُّف. وكانا يقتصِدان من أجل أن يقدِّما لها ما كانت تحلم به؛ وهو نهاية أسبوع طويلة إلى (باريس)، مع تصريح دخول إلى المتاحف Pass Musées. وخلال ثلاثة أيام يمكنها أن تتجوَّل في متاحف (اللوفر)، و(بوبورغ) Beaubourg، و(أورسيه). ولسوف تصحبُها أمها في هذه الرحلة المعرفية. كانت الفتاة الشابة تنسَى نفسَها مدة طويلة جدا أمام بعض الأعمال، وكان الأمر ينتهي بـ(إيزابيل) إلى البحث عن مقعد تجلس عليه. وذروة المجد في إقامتها كانت في (أورسيه)، فقد رأت فيه مكانا مقدَّسا، بجمال يقطع الأنفاس.

وبدورها، روت لـ(إيفان) كل ما كانت قد رأتْه. وقد ذكَّره ذلك بسنواتِه الباريسية. وكان لديه انطباع بأنه يعيش ماضيه ثانية عبر عينَيِ الفتاة الشابة. وقد كان متأثِّرا ومضطربا عندما كانت تشاركه حماستَه. إن فيها نوعا من النور، وهو من النور الذي لا يعرف المرء إن كانت تمتصّه أم تَبْهَر به.

ومنذ أن عرفها، من بضعة أسابيع، ولديه شعور برؤيتها تتغيَّر من يوم ليوم، كما لو أن الرسم جعل منها امرأة. وكان يحب أن يجلس خلفها عندما كانت ترسم، وكان يقترب كي يُمسِك معصمها ويوجِّهه، ولم يكن نادرا حينئذٍ أن يمسك تقريبا بشعر طالبته. وكان يتكلَّم بطريقة آلية لتقديم توجيهاته، غير أن عقله كان في مكان آخر، تائها في عُنقِ (كاميل).

وكان يرى جيدا اضطرابها يتفاقم. وكان يحاول أن يُبعِده، ولكن زوال الرغبة كان مستحيلا. وأحيانا كان يضع يده على ظهرها، ولكن لا ليضبط هذه المرة معصمَها بل ليضبط الوضعَ العام لجسم الفتاة الشابة، وبينما كان بإمكانه ببساطة أن يضعها بشكل عابر، فقد كان يتركها طويلا ويعيد وضعها. ثم إنه أخذ يزعم أن

وضع حوضِها كان مهما جدا للرسم، وكل ذلك من أجل أن يضبط ما تحت الردفين. لم يكن لدى (إيفان) الآن سوى رغبة واحدة هي أن يضع نفسه بإزاء ظهرها. لم تلمح (كاميل) مباشرة، وهي غارقة تماما في تركيزها، أن حركات الأستاذ كانت رقيقة أقلَّ فأقلَّ، وأصبحت التصرفات مريبة أكثر فأكثر. ومن ثَمَّ كان ذلك مستحيلا. فلقد كان أكبر منها ومتزوجا. ولا يمكن أن يكون هذا الرجل فاسقا وغير منضبط.

ومع ذلك، فقد أعادت التفكير فيه مساء. هل كان قد وضع يده في الأسفل سهوا أم عمدا؟ إن الفرق طفيف، ربما كانت مسألة مليمتر، لتعيين الحد بين الرقة وقلة الحياء. لماذا كانت تفكِّر في ذلك؟ حتما، كان هنالك شيء يزعجها. ربما كان ذلك أنْفاسَه التي كانت قوية قليلا حين كان بقربها؟ لقد كان بإمكانه أن يريها الشيء نفسَه من غير أن يضع الخدَّ إزاء الخدّ. لا.. هذا غير معقول، لقد كان هذا الرجل لطيفا، وكان يأخذ من وقته ليساعدها، وليجعلها تتقدَّم، إنه مؤمن بها، إنه يعيش الدروس بقوة، ولهذا يجب أن يقودها. ولو أنها كانت تتلقَّى دروسا في رقصة الـ(تانغو) معه، فستكون الاحتكاكات بينهما أشد ألف مرة. وانتهى بها الأمر إلى الاستماع إلى صوت العقل وفكَّرت في نفسِها قائلة: عليَّ أن أهرب.

(11)

انبهرت (كاميل)، وهي تفتح الستائر. فلقد كان من النادر أن تخترِق الشمس السحب هكذا في هذه الفترة من السنة. وفي العشية، نامت متأخِّرة كي تنهي لوحة كانت تعمل عليها منذ عدة أيام. عنوانها (مولد الإدراك)، وهي تتناول الصوَر الأولى التي يمكن للمرء أن يصادفها في الحياة، وتتناول وجوها مبهمة وغير واضحة (لقد كانت تشعر أكثر فأكثر أنها متأثِّرة بـ «فرانسيس باكون») كانت

تكتب عليها بعض كلماتٍ أو أجزاء من جُمَلٍ مسروقة من تمتمات.

وقد طلبت إلى أمها كتابة par texto، بشكل استثنائي، إن كان بإمكانها أن لا تذهب إلى المدرسة، وأن تعود إلى النوم حتى موعد درس الرسم. وفي الوقت الذي قبلت فيه (إيزابيل) ذلك، أعادت ابنتُها إغلاقَ الستائر ثم عادت إلى النوم. واستيقظت نحو منتصف النهار، حسب الأصول طبعا، ولكن دوما بلا طاقة. وكانت قد بدأت تتقبَّل أن الإبداع حتى لو لم يظهر بصورة فيزيائية، فإنه يُفرِغُك من جوهرِك بالنسبة للأنشِطة الأخرى.

لقد كانت تُبالغ قليلا، بالتأكيد، وهي تلعب دور الفنانة. فقد كانت تُحضِّر نظرياتٍ هنا أو هناك بشأن تصرُّفاتِها. وتقول الآن إن اسمها الأول تكريمٌ لـ(كاميل كلوديل) Camille Claudel[62]. في حين إن والديها كانا يجهلان على وجه الاحتمال كل شيء عن هذه النحاتة. لقد سمعوا فقط من يتحدَّث عنها أثناء الخروج من فيلم كانت تمثِّل دورها فيه (إيزابيل أدجاني)I. Adjani. وقد أحبَّت (كاميل) بالإضافة إلى ذلك هذا الفيلم، وجمالية الجنون المبدع، حيث يضيع المرء في متاهة الأضواء. وكان كل شيء يختلط أحيانا في عقل الفتاة الشابة؛ ما كانت تراه بما كانت تريده، وما كان واقعا بما كانت تحلم به. هنالك سِنٌّ تختلط فيها كل الأشكال الممكنة لما نكون عليه وتذوب في حيرة غير مريحة. وإذا ما كانت (كاميل) مخترقة بالوضوح، فإنها لم تكن قادرة على أن تقتصد في الشكوك المستمرة والملازِمة للإبداع. وقد كانت هواجسُها تجعلها سعيدة، وكانت هواجسهُا تجعلها تعيسة.

(62) كاميليا كلوديل: فنانة ونحاتة فرنسية (1864-1943)، تزوجت من النحات الفرنسي (أوغست رودان) A. Rodin، وانفصلت عنه فيما بعد، وقد أصيبت بعد انفصالها عنه سنة 1913 بنوبات صرع وانفصام في الشخصية، ولها جملة من المنحوتات الشهيرة. (المترجم).

كاميل كلوديل في صباها وأوغست رودان زوجها

أطلعت (إيفان) على شكوكها، فبدا أنه قد فهم كل شيء. وعندما يتفاهم شخصان يُقال إنهما يتكلَّمان باللغة نفسِها. وهي ليست لغة يمكن أن نتعلَّمها، ولكنها لغة تقوم على توافقٍ فكري وتجاذبٍ عاطفي. وهي إضافة إلى ذلك تتكوَّن في أغلب الأحيان من الصمت.

كان هنالك بالضبط صمتٌ هذه اللحظة.

اقترب (إيفان) من (كاميل) كعادته من أجل أن يوجِّه حركاتِها. وكان ينتظر هذه اللحظة منذ أسبوع، وأحيانا أيضا بطريقة غبية. وكانت (سابين) تسأله طيلة عطلة نهاية الأسبوع ماذا لديه، وكان هو غير قادر على أن يقول لها. وهو الذي كان معتادا أن يكون نشيطا جدا، بقي خائر القوى طوال ساعتين، وجالسا على الأريكة، قرب الحامل الخشبي لطالبته. فسألت (سابين): (إذن، هي موهوبة؟). أخفى (إيفان) انطباعاتِه الحقيقية، معلنا ببساطة وبلهجة غير مكترثة أن (نعم، الصغيرةُ لديها موهبة). لم يكن يحب الحديث عن (كاميل) مع امرأتِه، وبِمَ يمكن أن يهمها ذلك؟ وهل كان هو يسألها إذا كان مرضاها يعانون حقا من المرض؟ لكُلٍّ ميدانُه. وما كان يجري بين

(كاميل) وبينه يبقى بينهما. فذا عالَمُهما. ويجب أن يُتركا هادئين.

كان (إيفان) يحب جدا نظرة الإعجاب التي كانت طالبتُه توجِّهها إليه. وأخيرا، شعر بأنه قد فُهِم. ففي كل مكان هنالك كارثة يومية. فقد كان يعلِّم الرسم لطلابٍ يشعرون بأنه مادة غير مفيدة، والأغلبية يسخرون تماما مما يرويه لهم. وهذا أمر مماثِل لما لدى الأساتذة الآخرين. وأثناء نصائح الفصل، يحصل أن يقفزوا فوق رأيه بشأن هذا الطالب أو ذاك. فما يفكِّر فيه أستاذ الفنون التشكيلية ليس له قيمة كبيرة. وهو يحاول عبثا تنشيط دروسه، واقتراح رحلات، وتنظيم مسابقات، ويصبح أكثر فأكثر مُغَيَّبا. وحتَّى امرأتُه كانت تبدو محتقرة لعمله. فهي تمارس عملا محسوسا، فهي تنقذ الحيوات، وتعتني بالأوجاع. ولكن ماذا يفعل هو لخير البشرية؟ يعلّم التلوين. هذا ما كانت تقوله لكي تضحك، وهذا احتقار واضح. وهذه هي الحقيقة بالنسبة لها وبالنسبة للآخرين جميعا؛ كان محتقرا.

في السنوات الأولى من عمله هذا لم يكن يشعر بذلك. وقد تفاقمت الأمور تدريجيا لتصل إلى أن انخفضت القيمة الإجمالية لما كان يعلِّمه، وبناء عليه قلَّت قيمتُه. وأخذ يَسمَن، ومع ذلك لم يكن يُرى، وهكذا تمرَّد عليه جسمه. وبلا شك فإنه كان يحب أن تتفهم زوجته سوء حاله. ولذا من غير المهم أن يزيد وزنه، فهي لم تقل شيئا. وعندما سألها عما كان يفكِّر فيه بشأن تحوله الفيزيائي، بدت متفاجئة. فهي لم تلاحظ أهمية التغيُّر. وانتهى بها الأمر إلى أن اعتذرت بأنها قليلة الانتباه، وأن لديها كثيرا من الضغوط في المشفى. ومن ثَمَّ أعلنت أنه أمر جيد له أن يَسمَن قليلا. هكذا ببساطة. وكان الأمر لديها جيدا. وهكذا لم يكن لها أدنى اهتمام بشيء. ويمكنه أن يخسر ساقا ذكرتها له بالهيئة الوقحة نفسِها: (سيكون الأفضل لك أن تكون وحيد الساق). وعندئذٍ كان يواصل الأكل. وقد قال له زميل في المدرسة ذات

الشيء الذي قالته (سابين). فقد تناقلا كلمة السر فيما بينهما. نعم، فقد قال له إن ذلك خيرٌ له. وقد أضاف أيضا أن طبيعته الضاحكة سوف تنسجم تماما مع كتلة جسدية مهمة. نعم، لأنه كان يستمرّ في الابتسام. أيضا وأيضا. ولا يستطيع أحد أن يتصوَّر الحرمانات التي كان يكدِّسُها.

ولذلك كانت (كاميل) قد أصبحت شعاع شمسه، وأيضا السببَ الجديد لوجوده. فهنالك تآلفٌ، ومشروع مستقبلي، وأملٌ، وتنشيطٌ متبادلٌ. وإنه لأمرٌ طيِّبٌ جدا أن يشاطرها هذه الأوقات. وبالتأكيد، إنها تعجبه. فهنالك جاذبية لا يمكن أن تكون من نوع الجنس، فهي ذات شباب بجلاء، وهو يمنع نفسَه من التفكير فيه، فقد كان يستبعد الصور، ولكنها كانت تعود كل الوقت، كل الوقت، وكأنها هجماتُ رَغبةٍ، واندفاعاتٌ حادّةٌ يمكن ضبطها أقلَّ فأقلَّ. لقد كان يحبّ رائحتها، وبشرتها، وضحكتَها، وصوتَها، وشعرَها، وعنقها، ويدَها، ويمكن أن يستمر عَرضُ الإعجاب بفيض من التفاصيل. وأحيانا كانت تشعر بنظرة لجوجة قليلا، وفورا كان يدير وجهه، أو كان يرسل إليها بسمة مرتبكة، صحيح ولكن لا تنُمُّ عن ريبةٍ. ولقد كان يظهر خجولا أكثر منه مسكونا بالشياطين. كان عليها أن توقِف الدروس، وأن تفهَم قبل أن يتأخر الوقت جدا، ولكن لا، هذا غير ممكن، ولا يمكن للمرء أن يسير إلى الوراء فيما يلحق به الضرر بطريقة لا يمكن ضبطها. ولقد كان يتقدَّم ببطء نحو فَقْد المِجسّات، والآن هنا، في هذه اللحظة من الدرس، لم يتمكَّن من منع نفسه من التقدم كثيرا قرب (كاميل)، قربها إلى درجة الالتصاق بها. وقد حاولت الاستدارة عبثا، فقالت له:

- ماذا تفعل؟

فقال لها بفتور:

- ألا تريدين؟

- ماذا؟

- نحن الاثنان.

- نحن الاثنان.. ماذا؟

- هنالك مَيلٌ.. أليس كذلك؟

- أنا.. لا.. لماذا تقول هذا؟

- ألا تحبينني؟

- أنا أقدِّرك. فأنتَ أستاذي..

- ألا أُعجِبُكِ؟

حاولت (كاميل)، وقد أدركت أن الأفضل أن لا ترفضه مواجهة، أن تقول له:

- أنت متزوِّج.

بدلا من أن تقول له بوضوح: (لا، أنت لا تعجبني، بل أنتَ تُقَزِّزُني).

وقد ردَّ عليها قائلا:

- يمكنني أن أهجر كلَّ شيء من أجلك، وأنت تعلمين ذلك.

- ولكن.. توقف عن قول أي شيء. فأنت لست في حالتك الطبيعية. سأعود إلى البيت، وستكون بخير في الأسبوع القادم..

وحاولت أن تتملَّص، غير أنه كان يمسكها. ويقول:

- لا، ابقَيْ. لا يمكنك الذهاب هكذا.

- لا أشعر أنني على ما يُرام. إنني مرهقةٌ. والأفضل أن تتوقَّف الآن.

- عانقيني.

- ماذا؟

- عانقيني. فقط قبلة واحدة، ويمكنك الذهاب.

- لكن لا.

- أنتِ ترغبين فيها. وأنا متأكِّد من ذلك.

- أرغب في العودة إلى بيتي. من فضلك..

وحاولت ثانية أن تتخلَّص، ولكنه هذه المرة ثبَّتَها بقوة أكبر، وحتى بالعنف.

- توقَّف! ماذا تفعل؟

قال وهو يزيد ضغطه عليها:

- لا، ستبقين.

فصاحت:

- لكن هذا لا يصح!

كانت نغمة الحالة قد تغيَّرت فجأة. فـ(كاميل) تواجِه الآن هجوما مباغِتا، وعنيفا، ولا حدَّ له. وحاولت أن تتخلَّص، فلم تصنع شيئا. دفعها الرجل إلى ركن منعزل للاحتفاظ بها في مكان محصور. فحاولت أن تهرب، ولكن قواها كانت خائرة اليوم. فزعقت:

- توقَّف!

فقال لها صائحا:

- اخرَسِي! اخرَسِي!

ووضع ذراعه على فمها. فشعرت (كاميل) أنها تختنق. وصارت تتنفَّس بطريقة متقطِّعة. ولو أنها تخلَّصت فسوف يجلب لها ذلك ألما فظيعا. وكان هو دوما وراءها. إنه كتلة عنيفة في ظهرها. وكان يضغط على عنقها بقوة أكثر فأكثر. هل كان يريد أن يقتلها؟ لقد كان الرعب قائما.

كان الرجل الذي يُثبِّتُها ثلاثة أضعاف وزنها، وكان يعاملها بخشونة لدى أقل صرخة. كانت (كاميل) تفكِّر في طريقة للتخلُّص من الورطة. وتفكر في البقاء على قيد الحياة. وتفكِّر فيما تصنع لكي يتوقَّف. وماذا تقول لكي يَعقِل. ماذا تقول لكي توقِف جنونَه. ولكن الأمر كان

يسير من سيِّئ إلى أسوأ. فقد تناول خِرقة ليكمِّمَها بها. وكانت هذه الخرقة هي التي تنشِّف بها الصبغ الزائد. وكان عليها أن تفتح فمَها، وتتذوق اللون الأصفر. قبل ذلك بالضبط كانت قد توسَّلت إليه أن يتوقَّف، والآن لا يمكنها أن تتكلَّم. وفكَّرت في أنها كانت في طريقها إلى الموت. لسوف أموت، لسوف أموت، لسوف أموت. وهذا لا ينقطع. هل كان يريد أن يصل فقط إلى رؤية الدموع على وجهها؟ أم إلى قراءة الفزع في تعبيره؟ لا، لقد اغتصبها بقسوة.

من المستحيل معرفة كم من الوقت استمر هذا الفعل. لقد كان يبدو للفتاة الشابة لا نهاية له، ولكن ذلك استمر على الأقل دقيقتين، بنحو عشر ضربات لا أكثر، بفظاظة وإيقاع متباعد. وبعد أن انتهى تراجع، وكأنه قد أدرك ما كان قد فعل. وسقطت (كاميل) على الأرض وانكمشت على نفسِها. ولم يكن يراها. وقد غابت عن العالم. رفع (إيفان) بنطاله، وأغلق فتحته، وكأنما يمحو بذلك ما كان قد جرى. وعندئذٍ خطفت نظره اللوحة التي كانت (كاميل) بصدد رسمها، وهي طبيعة ساكنة كانت توازي الفوضى التي سادت داخل الغرفة. تبيَّن الرجل مباشرة أنه لا يستطيع التراجع إلى الوراء. وسُرعانَ ما قال في نفسِه إنها هي التي كانت قد سعت إليه، وكانت دوما تأتي إلى بيته، وتركته يقترب جدا منها، وهذه تجربة لا تُحتمل في نهاية المطاف. لماذا كانت ترتدي تنورة؟ كل شيء كان خطأ منها. لا، هذا لا يهم. لقد فعلها. فماذا ينبغي له أن يعمل الآن؟ فهي سوف تتكلَّم. أصبحت حياتُها تالفة. وماذا ستقول (سابين). وزملاؤها. وأمُّها؟ يا إلهي، لن يهدأ روعُ أمها. وستموت إن أعْلمَتْها. وسيجد هو نفسَه في السجن. لقد قام بعمل سيِّئ، عملٍ سيِّئ جدا.

وكان عليه أن يعثر بسرعة على حلٍّ. ولكن ماذا يفعل؟ هل يعتذر؟ هل يتعلَّل بجنون عابر؟ هل يتوسَّل إلى الصغيرة لتغفِر له؟ ولكنها

لا تتحرّك. وقد بقيت كالميتة. وهذا أمر سيِّئ. إن الميتة لا يمكنها أن تغفر. ولذا حاول أن يقلِّل من أهمية ما جرى: (طيِّب، هيّا، انهضي. هذه ليست مسرحية. تعلمين أنتِ أن هذا يحصل غالبا بين أستاذ وطالبته..). لم تجب بشيء. يبدو أن هذه الحجة لا تنطلي. وقد ظلَّت متمدِّدة على الأرض خائرة القوى. كان (إيفان) يريد أن يساعدها على النهوض، فأبعدت ذراعه. وكانت تضطرب، ربما كان ذلك يتعلَّق حتَّى بتشجنات، فهل يجب عليه استدعاء طبيب؟ لا، هذا غير ممكن. وكان يرجو أن تعود إلى رشدها. كيف ستعود إلى بيتها؟ لقد كانت الحالة خطيرة. يجب العثور بسرعة على حَلٍّ. ويجب العثور على الكلمات المناسبة. كان بإمكانه دوما البحث، إلا أنه لم يعثر على شيء.

وانتهى به الأمر إلى أن يحضر لها كأس ماء، وقال في حالة من عدم التماسك الكلي: (هيّا، انهضي.. وإن أردتِ تابعنا الدرس..). الوقت يتقدَّم، ويمكن أن تعود (سابين) إلى البيت في أية لحظة، وقد اعتراه الذُّعر وتغيَّرت لهجتُه مرة ثانية فقال: (أرجوك، اعذريني.. أنا لا أدري ما الذي اعتراني.. إنها نزوة، شيطانٌ.. «كاميل» لا تبقي هكذا اسمعيني من فضلِك..). أصبحت كلماتُه غير مسموعة أكثر فأكثر، وكأن الصمت قد امتصَّها. وانتهى الأمر بالفتاة الشابة إلى أن أدارت رأسها، ورمته بنظرة. لقد كانت تريد أن تنهض، وتهرب، ولكن لم تقدر على ذلك، لأنها كانت تشعر أنها بلا ساقين، نعم، كان الأمر كذلك في الحقيقة، وكان جسدها يظهر لها كأنه قُطِع من أعلى الحوض. وضع يده على كتفها، فدفعتها بعنف. وقد أيقظت هذه الحركة المفاجئة شيئا ما فيها. كان بإمكان (كاميل) أن تتحرك. إن الاحتكاك البسيط بجلّادها جعلها تشمئز منه، ومن هذا النفور المجدَّد يمكن أن تولد القوة الضرورية للفعل. لقد نهضت، وحاول أن يساعدها، فقالت له: (لا تلمسني، لا تلمسني، لا تلمسني)، في سلسلة من الهياج

المكبوت. فأذعن لها (إيفان) وتراجع. ونهضت من غير أن تنظر إليه، وتوجَّهت نحو الباب من غير أن تأخذ حاجاتِها. وقد استغرق هو لحظة ليدرك أنها ستذهب راحلة، ويبدو أن عقله كان يتأخَّر كلية عن رؤيته. وكانت ردة فعله أنه وقف أمامها، وقال:

- ماذا تفعلين؟

- دعني أرحل.

- لكن إلى أن تذهبين؟ وماذا ستفعلين؟

- دعني أرحل.

- إن ذكرت ما حصل، فلن يكون الأمر على ما يُرام..

فقالت (كاميل) بما بقي لها من إدراك:

- أنا لن أذكر شيئا.

لقد كان عليها أن تهدِّئ جلادها لكي تهرب. وقالت إنه وعدٌ منها أن تقبل أعذاره، وأن أحدا لن يعلم شيئا. وأضافت كلمة بشأن الإعجاب الذي كانت تحمله له. وقد دفعها الرعبُ الذي كانت تشعر به إلى اختيار الكلمات المناسبة، ووسائل حفظ البقاء، لأنها كانت ترى في نظرة أستاذها أن عليها أن تُطمئنه، ومن غير ذلك، كان بالإمكان أن يعود إلى البداية، ويمكن أن يعتريه الخوف ويقتلها. ولقد صدَّقها في البداية. نعم، لسوف تحافظ على صمتِها، لأنها كانت تريد أن تحميه، فقد كانت الوحيدة التي تعلم حقيقة من يكون، والتي تُعْجَب به، ولذا لا تريد أن تلغي علاقتهما. وهي تحتاج إلى وقت بالتأكيد، ولكنها ستغفر له، وهذا مؤكَّدٌ، وربما جاء يومٌ يمكنهما فيه أن يضحكا من ذلك، وقد قالت له: أيُّ مجنون صغير كنتَ! وكان في كلماتها رِقَّة، لأنهما تفاهما، وهما يتكلَّمان باللغة نفسِها.

ولكن لماذا كانت تُصِرُّ هكذا على الرحيل؟ ووحدَها. فاقترح عليها (إيفان) أن يصحبها، ولكنها قالت له: لا شكرا، لا شكرا، لا شكرا.

فأخذ يشكّ فيها. وفكّر في أنها ربما لم تكن تقول الحقيقة. وبالتأكيد ستذكر لكل الناس ما كان قد جرَى. ولسوف تنتقم، وهذا مؤكّد. فكم سيكون أحمق كي يصدقها. وفجأة، أمسكها من ذراعِها، قائلا: (لا، لن ترحلي!). فتوسّلت إليه ثانية، ولكنها هذه المرة لم تكرِّر جملتها ثلاث مرات، بل مرة واحدة، من غير أدنى قناعة، وهذا لا يفيد القتال في شيء، فقد ظلّت تشكر هذا المجنون. وقد أجبرها (إيفان) على أن تجلِس على الأريكة، وقال لها:

- أنا لا أصدِّق كلمة مما قلتِ لي. إنك ستروين كل شيء. ولذا سوف تهدئين وتعودين إلى رشدِك. ولسوف نتناقش. هل فهمتِني؟

وكرَّر السؤال:

- هل فهمتِني؟

- نعم.

أخفضت (كاميل) رأسها. وعندئذٍ أخرج (إيفان) هاتفَه الجوَّالَ ليتَّصِل بامرأتِه، ليتحقَّق أين هي. ووقع على رسالة لها، وفيها إشارة إلى أنها لا تزال في الخدمة بالمشفى. لا شيء يضغط عليه إذن، وقد روَّح ذلك عنه. وكان لديه الوقت للعثور على حلّ. فجلب ثانية كأس ماء لـ(كاميل)، وأجبرها على شربه. وكان يتجنَّب النظر إليها، لأن كل شيء كان يختلط في داخله. فإذا علِم أحد ما كان قد فعله، فإن عليه أن يفرّ. ولكن إلى أين يذهب؟ هذا مستحيل، فلديه وظيفة، وزوجة، وكل ذلك هنا، لا ليس من الممكن أن يبدِّد حياته بسبب خطأ لمدة دقيقتين.

وظلّ لحظة وكأنه معلَّق في الفراغ. رفعت (كاميل) نظرها، قبل أن تسأله الرحيل، فقال لها:

- ليس الآن. إن علينا أن نتكلم أولا.

- ...

- أريد أن أطمئنَّ إلى أنك لن تقولي شيئا.
- لن أقول شيئا. فأنا لا أريد أن يكون لديك انزعاج بسببي.
- أنتِ تقولين هذا الآن، ولكن لعلَّك سوف تغيِّرين رأيك. ولذلك سأقول لك شيئا ذا أهمية. وليس لي الخِيار فيه.

- ...
- هل تحبين أمَّك؟

- نعم.
- ألا تودِّين ألا يحصل لها شيءٌ ما خطير؟

- بلى.
- لذا، لسوف تسمعينني جيدا، وتفعلين ما أقوله لك.

- ...
- أجيبي حين أتكلَّم!

- نعم.
- هل تسمعينني بانتباه؟

- نعم.
- ارتكبت أمُّك خطأ طبيا خطيرا، منذ أقل من سنتين، خطأ كلَّف المريضَ حياتَه، وامرأتي هي الوحيدة التي تعرفه، وهي لم تذكر شيئا عنه قطُّ، لأنها تريد حماية صديقتِها. هل تسمعينني؟

- نعم.
- وأنا أعرف كل هذه القضية. ولذا، فالأمور سهلة جدا. فإن تحدَّثتِ إلى أيٍّ كان عما جرى اليوم، فإنني سوف أشي بأمك مباشرة. فتفقد وظيفتَها، وتُشطَب، ومن المحتمل أن تذهب إلى السجن. فهل هذا ما تريدينه لأمك؟

- ...
- أجيبيني! هل هذا ما تريدينه لأمك؟

- لا.

- إذن فهمتِ جيِّدا؟

- نعم.

- هل فهمتِ جيدا أنك إن تكلَّمتِ فإن أمك ستدمَّر؟

- نعم.

- إذن، ستعودين إلى بيتك. وتتدبَّرين أمرك. وستتوقَّفين عن صنع تبويزة المأتَم هذه، وستنسَين كل ذلك. ولئلا تثيري الشكوك، ستعودين لزيارتي يوم الأربعاء القادم.

- أنا لن أقول شيئا، وهذا وعد، ولكن.. لا أستطيع العودة.

- الخِيارُ ليس لك. عودي إلى بيتك، ولسوف أنتظرك الأسبوع القادم.

وساعدها على النهوض، وتركها ترحل. وفي الخارج، استجمعت قواها الأخيرة للعودة إلى البيت. أخذت حماما استمر نحو ساعة. وفي غرفتها، أسدلت الستائر ليسود أكبر قدر من الظلام، وتمدَّدت على سريرها. وكانت تريد الموت.

(12)

كانت (إيزابيل) قد عادت نحو الساعة الثامنة مساء. وقد فوجئت بأن ابنتها ليست في البيت. ولكن بعد عدة دقائق سمعت أنينا قادما من غرفتِها. ففتحت الباب لتكتشف غرفة غارقة في العتمة. واقتربت من السرير، وقالت:

- أنت هنا.. حبيبتي؟ ماذا لديك؟

- لا شيء.

وكما يمكن لأم أو لممرِّضة أن تصنع بصورة آلية، وضعت يدها على جبين ابنتها، وقالت:

- لديك حُمَّى.. لماذا لم تتَّصِلي بي؟

- كنتُ مُتعبَة.

- أنت تحتضنين إنفلونزا.. لقد فهمت أنك لم تذهبي إلى المدرسة هذا الصباح. سأحضِّر لك منقوعا، وغدا ستتعافَين.

- ماما..

- ماذا؟

- ظلي هنا قليلا من فضلِك. أشعر بأنني لست بخير.

- طيِّب. أنا معك. عليك أن تحاولي النوم.

- ...

- تعلمين، هذا لا يُدهِشُني. مع أبيك، كان يقال له إنك لم تكن تتوقَّف. إنه لأمر رائع أن يكون لدى المرء هواية، ولكنها تصبح وسواسا. تبقين ساعاتٍ وساعاتٍ واقفة، فمن الطبيعي أن ينحلَّ جسمُك في نهاية المطاف. إضافة إلى المدرسة.. فعليك أن تستريحي، أليس كذلك؟ فالحياة أمامك لتصنعي لنا روائع.

كان عنق (كاميل) مشدودا. قالت أمها: (الحياة أمامك)، بينما هي تصارع لبلوغ الدقيقة التالية. وكانت تشعر أن هُوَّة غير نهائية تمتصُّها، وهوَّة في وسط جسمها، وهوة في مكان القلب.

وانتهى بها الأمر إلى أن طلبت من أمها حبة مسكّن لتنام. وسيكون ذلك الحلَّ الوحيد لإسكات الحقيقة. وغدا صباحا، ربما تستيقظ في حالة عقلية مختلفة. يجب الإيمان بذلك، والمنوِّمات تحدِث بالتأكيد هذا التأثير، وهو الغوص في الليل كالغوص في الماء البارد. بدت الأم مترددِّة، فقد كانت (كاميل) في غاية الشباب كي تعتاد على المساعدات الاصطناعية. ولكنها طلبتها بقناعة تامة، وبالتوسُّل تقريبا. وحينئذٍ قبلت. وبدأ الليل.

وبعد بضع ساعات استيقظت (كاميل). كان الوقت بعد منتصف الليل بقليل. ولم تتخلَّص من شيء. وهذا الأسوأ بعينه. وقد أدركت أنه

لا توجد الآن أي وسيلة لمحو ما كان قد جرى. ويجب أن تعيش مع صورة بشعة، وأمام عينيها المصفاة الدائمة للقبح في كل ساعة. وهذا لا يُحتَمَل. ولم تكن تكف عن أن تكرِّر على نفسها: لماذا أنا؟ كان الظلم يحرقها. فهل كانت هي مذنبة؟ لقد كان الأمر خطأ منها. لقد اختلط في رأسِها كلُّ شيء، وهنالك دُوار جعلها تحافظ على حالة من الصحو المطلق. إنها لا تستطيع أن تنام. فماذا تصنع؟ هل تبقى خائرة القوى. ولم تكن تريد أن ترى أحدا. وأن لا يتمكن أحدٌ من رؤيتها.

وفي صباح اليوم التالي تأكَّدت أمها من أنها لم تتعافَ. فأعطتها حبة (أسبيرين)، العلاج السخيف. ولم تكن (إيزابيل) تستطيع أن تتصوَّر الأسوأ. وفيما بعد، لامت نفسها لأنها لم تتوقع شيئا. ولكنها كانت ترى هنا مجرَّد فتاة شابة منهكة، ربما كانت قد التقطت فيروسا صغيرا. وبعد كل ذلك، لم تكن (كاميل) تتحدَّث إلا عن تعب، وعن راحة، وهذه مفرداتٌ لا تتيح المجال لأي إنذار بوقوع مأساة. وبعد ثلاثة أيام من الخمول الظاهر، اتَّخذت (إيزابيل) على الفور قرارا بأخذ عينَة دم للتحليل. وحملت العينات إلى مختبر المشفى. وبعد بضع ساعات، كانت النتائج لا تستدعي شيئا. فكل شيء على ما يُرام. ولم يكن شيء ينقُص (كاميل). لم يكن الدم يتكلَّم. لقد صمَت الدم. وكانت (إيزابيل) مرتاحة لفكرةِ أن ابنتها كانت ببساطة في حاجة إلى الراحة. وقالت في نفسها إن الشباب يتعرَّضون لكثير من الضغوط في أيامنا.

(13)

مرت الأيام، وكان يجب التسليمُ بواقِع الحال. فـ(كاميل) لم تتعافَ. كانت حُمَّاها قد زالت، ولكن المرء كان يشعر بأنها كانت منهكة القوى. وكانت (إيزابيل)، وهي المتعوِّدة على الحالات المأساوية، قد أخذت تتصور الأسوأ، وقالت في نفسِها: لماذا لا يكون مع (كاميل)

مرض الـ(ليمفوما) lymphoma[63]. ولحسن الحظ، أظهرت الفحوص الطبية المعمَّقة أنه، على الرغم من المظاهر، كان كل شيء على ما يُرام.

وما كان يقلق أكثر أخيرا إنما هو صَمْتُ (كاميل). فقد كانت (إيزابيل) تأتي وتجلس قربها على حافة السرير، ولم تكن ابنتها تنطق بشيء. ولا بكلمة واحدة. ومن حين لآخر، كانت تهمس بأنه لا يجب أن تقلق، فالمسألة مسألة بضعة أيام أيضا. ولكن الواضح أن هذه الكلمات كانت تنطق بها لغاية وحيدة هي طمأنتها، ولم يكن في نطقها أدنى قناعة. دعت (إيزابيل) (إيريسَ)، الصديقة المفضَّلة لـ(كاميل)، فبقيت هذه الأخيرة عندها ساعاتٍ. وقد تكلَّمتا قليلا. وحاولت (إيريس) أن تجعل صديقتها تبتسم، بروايتها آخر أخبار المدرسة. ولكن بدا كلُّ شيء عديم الجدوى، لئلا نقول إنه كان عبثيا.

لقد كان يجب عليها مع ذلك أن تواجه هذا العالم العبثي ثانية. ولم يكن لديها خِيار آخر سوى أن تكون قوية. لم تكن تكف عن التفكير في الوحش، وكانت تريد أن تطعنه بسكين تُغرَس في بطنه الكبير، فتفرغه من دمه ببطء، كي يتعذَّب، وكانت تلك الصورة تتسلَّط عليها. ولهذا، كانت ترغب في أن تزوره ثانية. وهذا ما لم تتمكَّن من تخيُّلِه. وكانت فكرةُ زيارته تستدعي لها غثيانا رهيبا. ولم يكن لديها سوى خوف واحد، هو أن يقوم بزيارتها، ليلعب كوميديا الأستاذ القلق على صحة طالبته. ولما لم يكن لديه أي خبر في الأربعاء الذي تلا الاعتداء، انتهى به الأمر إلى أن يتَّصِل بـ(إيزابيل) من وقت لآخر، وكان يرسل رسائل للحصول على أخبارٍ، وكان من الواضح على وجه الخصوص أنه يريد التحقُّق من أنها لم

(63) وهو سرطان الأنسجة اللمفاوية. (المترجم).

تكن قالت شيئا. ويبدو أن تهديده كان لا يزال يعمل. وكانت الفتاة الشابة تسأل نفسَها أحيانا: هل كان يقول الحقيقة؟ وهل ارتكبت أمُّها حقيقة خطأ طبيا؟ وقد تذكَّرت الآن أن أمها منذ سنتين ربما، كانت تظهر وكأنها في حالة من الصدمة طوال عدة أشهر. إذن نعم كان الأمر ممكنا. ولكن ربما اختلقت (كاميل) هذه الذكريات لتتكيف مع الحاضر؟ وهي لم تكن تعلم شيئا. وبشكل عام، لم يكن هنالك أيُّ حدٍّ بين انفعالاتِها، لأنها كانت تتوالى وتتناقض في أكبر فوضى.

عادت أخيرا إلى المدرسة، حيث استُقبِلت باهتمام مؤثِّر. وانتهى بها الأمر إلى أن قالت إنها كانت ضحية اكتئابٍ، وهو أحد أوقات الحياة الذي لا يمكن التخلص منه إلا في أسابيع ويقبع المرء في السرير من غير عمل شيء. وقد رأوها شاحبة جدا، ولكن جلدَها لم يكن داكنا جدا. ووجدوها صامتة، ولكنها لم تكن قط ثرثارة كبيرة. والتغيُّر الحقيقي كان يخصّ المستوى الدراسي. فهي لم تصل إلى التركيز. ولم تكن تشعر بأنها قادرة على الفهم. وكان ذلك وكأنها تفتقر إلى روابط في مخها، وهنالك فوضى أصبحت مضطربة تماما. وبينما كانت حتى الآن طالبة متألِّقة، وعلى كل حال كانت طالبة ماهرة بالتسهيلات، فقد صار كل شيء يبدو لها معقدا للغاية. وأمام الذهول العام، انتهى بها الأمر إلى أن رسبت في صفها.

وكان لـ(كاميل) طريقة خاصة في وضع قناع على معاناتها. فلم يكن الصدع مرئيا عندها. كل الناس كانوا يشاهدون سوء حالِها، وتعبَها، ووهنَها، ولكن ما من أحد تخيَّل الحقيقة. وقد برهنت بذلك عن إرادة، وهي تقول إنها لم تدرك ما كان قد حصل لها. وكانت تكذب بلا انقطاع، ولعل هذا ما ساعدها على أن تصبح شخصا آخَر، كما كانت ترجو.

في بداية الصيف، كانت تبدو معافاة. ولم تكن ترغب في الذهاب في عطلة[64] فيما عدا الأسبوع المعتاد مع والديها إلى (بروتاني) Bretagne. وكانت عادتهم أن يذهبوا إلى (كروزون) Crozon، في طرف (فينيستير) Finistère. وهذه السنة أخذت الجهة الأُسَرية بعدا خاصا، فتمسَّكت (كاميل) بالحد الأقصى لما يمكن أن تعيش فيه. وكانت أرضا مَواتا في البحر. وقد قاموا بعد الظهر بنزهة في مركب. وكانت السماء عاصفة وعارضة في المحيط كثافة مقلقة. وبموقف متناقض، رأت جمال هذه الرؤية ثقيلة الوطأة. وكانت مُدَمَّرة إلى درجة البكاء. فسألتها أمها: ماذا هنالك؟ فردَّت عليها (كاميل) ببساطة: (أنا سعيدة).

(14)

لم يكن والدا (كاميل) يدركان لماذا انقطعت عن الرسم. ولم يكن ذلك أمرا سيئا بالتأكيد؛ فمن المحتمل أن يكون سببُ غرقها في لجة الظلام تلك الجرعة الزائدة من التوتُّر الإبداعي. ولتجعل ذلك صحيحا فورا، أرادت (كاميل) أن تشرع في الرسم بعد بضعة أسابيع من الاعتداء. ولكن ما إنْ كانت تقترب من الحاملة الخشبية للوحات حتى تستفرغ. فقد استدعت رائحة المواد لديها غثيانا لا يُقاوَم. لقد نجح الوحش في تخريب هذا أيضا، وأفسَد عليها، بالنفور، ما كان أهم شيء في نظرها. لقد تم الحكم عليها بأن تعيش في غياب ما كان يثير حماستها.

وبعد العُطَل، باشرت (كاميل) في صفٍّ جديد سار سيرا حسنا. وكانت قد قرَّرت أن تندمج في العمل كلية وتحصل على نتائج رائعة. لم يكن أحد ليدرك كيف تُعيد هذه الفتاة الشابة السنة السابقة. منذ نهاية الفصل الأول، استدعتها مديرة المدرسة. كانت السيدة (برتييه)

(64) اقترح عليها والداها إقامة لغوية في (إنجلترا)، قائلين في نفسيهما إن الاستغراق في لغة أجنبية، وفي ثقافة أخرى، سوف تسمح لها بأن تنعتِق قليلا.

Berthier امـرأة متقدِّمـة في السـن، ولكـن وجههـا كان يَطفَـح بالشـباب. فقـد اسـتقبلت الطالبـة بابتسـامة عريضـة، وأشـارت إليهـا بالجلـوس. كانـت (كاميـل) خائفـة مـن هـذا الاسـتدعاء. فـما الـذي يمكـن أن تكـون قـد فعلتـه؟ لقـد كانـت تشـعر بأنهـا مذنبـة منـذ يـوم الرعـب. بـدأت السـيدة (برتييـه) بالـكلام قائلـة:

- أود أن أطلـب لـك مخالفـة اسـتثنائية. فأنـا أعلـم أنـك قـد اجتـزتِ وقتـا عصيبـا السـنة الأخـيرة، وقـد بلـغ ذلـك كلَّ النـاس. وقـد رسَّـبناك في صفـك، وكان مـن المسـتحيل أن نفعـل غـير ذلـك. ولكننـا الآن مـسرورون بالتزامـك وبنتائجـك. وضمـن هـذه الظـروف، فمـن الواضِـح في نظـري أنـك تسـتطيعين الانتقـال مبـاشرة إلى الصـف الأعـلى. وعليـك أن تعمـلي كثـيرا، وأنـا أعلـم أنـك قـادرة عـلى فعـل ذلـك. فـما رأيـك؟

- لا أدري.

- يمكنـك أن تفكِّـري بضعـة أيـام، ولكـن اعلمي أن هـذا إجراء اسـتثنائي. فقـد شرحـت الحالة لمسـؤولي الأكاديميـة، وقبلـوا انتقالَك.

- أنا.. أنا لا أعرف كيف أشكرك..

وهكـذا اضطربـت (كاميـل)، لا مـن الخـبر بقـدر مـا كان مـن عطـف هـذه المـرأة.

(15)

كان ذلـك بدايـة مرحلـة أكـثر طمأنينـة. إن النتائـج الطيبـة التـي حصَّلتهـا تسـوِّغ كليـة الإجـراء الـذي تمتَّعـت بـه. وقـد تصـادف أن تكـون (كاميـل) في صـف (جيريمـي)، وكان قـد رسـب في صفـه. وطـوال الـدروس كانـت تراقبـه برقّـة غريبـة، لقـد كان ينتمـي إلى عـالم مـا قبـل الدرامـا. وقـد كانـت تتذكـر مكانهـما في الحديقـة، وسـيبقى ذلـك إلى الأبـد الدليـل عـلى أنهـا كانـت سـعيدة. وقـد كان ذلـك موجـودا. وكان يجـب مداعبـة تلـك الحقيقـة المنسـية قليـلا. فاقترحـت عليـه (كاميـل)

أن يذهبا في نزهة ذات مساء، فقبل بشيء من الكبرياء، كما لو أنه كان يفكّر دوما في أنها ستعود إليه في يوم ما أو آخَر. ولم يكن الشكُّ يستطيع أن يخامره في أنها كانت تكاد تموت كي تعود إليه من الأموات.

مشيا، وانتهى بهما الأمر إلى أن تماسكا باليدين، وإلى أن يتعانقا. والقوة التي وضعتها (كاميل) هذه المرة فاجأت الفتى الشاب. فتراجع. فسألته:

- ماذا؟ ألا يجوز هذا؟

- بلى.. بلى.. صحيح أن.. أنت لم تكوني هكذا، من قبل..

- المرء يتغير..

فعلا، لم تكن هذه هي الفتاة نفسَها. فهي تبدو طافحة بالنضج وهي تعانق (جيريمي)، حصل شيء ما داخلها؛ هو الشعور الذي كان عليها أن تجمِّعه من الذكريات لتخفيف سُمِّ الاغتصاب. وكان غريبا قليلا على الفهم أو التحديد، ولكن هذا الحدس كان جارفا. لقد كانت تريد أن تعانق، وتعانق أيضا (جيريمي)، وكانت تريد أن يمسك قامتها بقوة، وكانت تريد أن تستسلم له، وكانت تريد أن يصبح الصورة الأولى التي تلوح أمام ناظريها عندما تُطفِئ النور. وقد قالت له حينئذٍ:

- يمكنك الذهاب إلى بيتي، إن شئت..

- إلى بيتِك؟

- نعم. فأبي في (نانسي) Nancy وأمي في المشفى حتى العاشرة مساء. وسنكون وحدَنا.

- ...

- أوَليس هذا ما كنتَ تريد؟

- بلى.. بالتأكيد. تمام.

وبعد أقل من ثلاثين دقيقة، حدث ذلك، وشعرت بأنها كانت حرة في مواصلة حياتها كما تشاء، فجسدُها ملك لها.

وكلما كانت (كاميل) وحدَها في بيتها، كانت تدعو (جيريمي).. حتى إن الفتى كان يخاف أحيانا ألا يكون على قدر المسؤولية، ولكنه كان يعيش حلم يقظة. إن تلك الفتاة التي طالما اشتهاها تعرِض نفسها عليه بلا انقطاع، إلى حد أن الأمر كان قد انتهى إلى أن يصبح أمرا غريبا. وقد اقترح ذات يوم على (كاميل) الذهاب إلى السينما، فلم تهتمَّ لذلك، ولا حتى الذهاب إلى مطعم، ولا إلى أي نشاط آخر غير اللقاء في بيتها. كانت تريد خلاعة في الصور، وكانت بعيدة جدا عن أن تحسب لذلك الحساب. وانتهى هو إلى أن تضايق وقال إنه لا يحتمل أن يكون موضوعا لها. فأجابته ببرود: (الفتيان الذين يرغبون في النوم معي كُثُرٌ، فإن لم تكن سعيدا بذلك، فوداعا).

وفعلا، كان لديها آخرون. فنامت مع (باتيست) Baptiste، و(توماس) Thomas، و(مصطفى). وبدؤوا يعاملونها على أنها مومس، وسافلة، وشَبِقة، ولكن هذا لم يصنع لها حرّا ولا بردا[65]. وكانت غير مبالية بأحكام الآخرين، وكانت تلك هي الطريقة الفُضلى لإسكاتهم. إن أحدا لا يمكنه أن يجرح ميِّتا[66].

(16)

كانت نتائجها المدرسية دوما ممتازة. وانتقلت إلى السنة النهائية[67]. وذهبت مع والديها مرة جديدة إلى (بروتاني). وكانت العطلة نسخة

(65) وهذه كناية فرنسية، بمعنى أنه لم يؤثّر فيها أن تُطلَق عليها الصفات المذكورة، وهذا يدل على إصرارها على غيِّها في هذا السلوك المنحرف، ويقابلها في العربية القول إنه (لم يقدِّم ولم يؤخِّر). (المترجم).

(66) يذكرنا هذا القول ببيت المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عليهِ ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلامُ

(67) أي الصف الثاني عشر الأدبي. (المترجم).

كاملة من عطلة الصيف السابق. وقد طمأنتها هذه الرتابة أكثر من أي شيء. لقد كانت في حاجة إلى حياة مركَّبة من نقاط راسخة وغير متبدِّلة، وإلى أماكن ذات معالم غير خاضعة لقلة تبصُّر الرجال.

وأثناء نزهة على شاطئ (مورغا) Morgat، سألت (إيزابيل):

- ماذا ستفعلين بعد الثانوية le bac؟

- لا أعرف بعد؟

- والرسم؟ ألا ترغبين بالذهاب إلى (الفنون الجميلة)؟

- لا أدري. سأرى في العام القادم. ويبدو لي ذلك بعيدا جدا..

- نعم، ولكن هذا يمضي سريعا.

- ماما.. أيمكنني أن أطرح عليك سؤالا؟

- بالتأكيد يا حبيبتي.

- هل حصل لك من قبلُ.. أن.. أن تأسَّفتِ على شيء.. في عملك؟

- ماذا تعنين؟ لم أفهم..

- لا أدري. مع مريض.. هل قلتِ في نفسِك بعد فوات الأوان.. لو أنك فعلتِ الأمور بطريقة مختلفة.

- إنه لغريبٌ سؤالُك.

- لا أدري. فقط للعِلم.

- كنتُ غالبا ما أعمل في الطوارئ. وكنت أعمل عملا حسنا في أغلب الأوقات. وكنا نتَّخِذ قراراتٍ جماعية.. ويمكن أن نقع بالتأكيد في خطأ التقدير أحيانا، ولكن هذا جزء من المهنة.. فالطبُّ ليس علما دقيقا. وقد كنت هنالك لمرافقة المرضى. وأحاول بشكل ما أن أخفِّف من آلامهم إلى أدنى حدٍّ ممكن..

- ...

- لماذا تسألينني مثل هذا السؤال؟ هل تودِّين أن تصبحي ممرِّضة؟

وعندئذٍ، تهلَّل وجه (إيزابيل)، فقد وجدت أمرا رائعا أن تكون

ابنتُها راغبة في اتِّباع طريقها.

غير أن حماستها سرعان ما بردت، حين قالت (كاميل):

- لا، لا. مطلقا.

ولم تكفَّ الفتاة الشابة عن التفكير فيما ادَّعاه (إيفان)، لقد عاد الحديث إلى ذهنها، ولكن بصورة غامضة، مشوَّهة. وهي لم تكن تتذكَّر كلماتٍ دقيقة. وكانت (كاميل) قد فهمت بالضبط أن أمها ستكون في خطر كبير إن هي تكلَّمت. هل كان هذا حقا هو ما قاله؟ وكان ذلك يبدو غريبا أيضا. فـ(إيزابيل) أكَّدت لها للتو أنها لم تكن تتَّخِذ قراراتٍ وحدَها. وبينت أنها تكون قراراتٍ جماعية. وبناء على ذلك، لا يمكن أن تخاطر بشيء. كانت (كاميل) قد رأت في التلفزة قصة ممرِّضة قامت بالقتل الرحيم لمرضى في آخر حياتهم، كي تختصر لهم آلامهم. وربما كان هذا ما فعلته أمها. وهو مساعدة أحدهم على الموت. وتفهَّمتها (سابين). لقد كان لديها هموم، كما هو مفهوم. وهنالك لجان دعم كما كان للممرضة الأخرى. وسيتم الكلام على ذلك، مع أو ضد، بوصفه موضوعا اجتماعيا، وليس شيئا لا يمكن معالجته على كل حال. ولا شيء يسوِّغ السكوت، ولا عدمَ معاقبة الجلّاد. ولكن ربما كان هذا أمرا آخر؛ حَقْنا بعيارٍ سيِّئ، أو نسيانا مشؤوما لعلاج. وكانت أمها تقول لها كلَّ الوقت إنهم كانوا يعانون من نقص الموظفين في المشفى، ولذا فإن الخطأ في التقدير يمكن أن يحصل بسرعة فائقة، ويصبح عدم المهارة مأساة، والخطأ يتحوَّل رعبا. فهل يمكن أن يعيش امرؤٌ مع ذلك مثقَل الضمير؟ نعم. لقد كانت تعلم تماما أنه الشخص الذي يمكنه أن يُخفي التوحُّش في صميم نفسه.

(17)

أرسل (إيفان)، عدة مرات، رسائلَ إلى طالبته القديمة، متظاهرا بأنه يستعلم عن صحتها. وكان يَزِين أقلَّ كلمة من كلماته، وكان يجد

مسافة مقدَّرة تماما. وكانت هي تمحوها مباشرة. وقد استمر ذلك، حتى انتهى بها الأمر إلى أن أجابته برسالة تقول فيها: (أتوسَّل إليك، لا تكتب إليَّ). وهذا ما كان طوال بضعة أسابيع، ولما لم يكن يستطيع الامتناع عن الاتِّصَال بها ثانية، لم يكن أمامها خيار آخر سوى أن تغيِّر رقمها. وقد حاول أن يجمع معلومات بواسطة امرأته، فقد أسرَّت (إيزابيل) لـ(سابين) بمرض ابنتها. وكان قادرا -باللاشعور أو بسخرية فاسدة- أن يجيب بقوله: (إن ما يجب عليه، إنما هو أن تستأنف الرسم معي).

كان (إيفان) يشعر بالطمأنينة. فلم تَشِ (كاميل) به حتى الآن. ولكنه كان يريد أن يتحدَّث معها ليتأكد من ذلك. ولذا، قرَّر أن يأتي عند الانصراف من المدرسة. والحق يُقال، إن ما يمكن أن يظهر فعلا منعكسا إنما يكون ثمرة نزوة. وبين درسين تذرَّع بألم لا يطاق في رأسه، وغادر مدرسته. لم يكن يعرف في أي ساعة تنتهي (كاميل) في ذلك اليوم، ولكن لا يهم، لأنه مستعدٌّ لأن ينتظرها ساعات، فقط ليتكلم معها بضعَ دقائق. ولم يكن قادرا على التعبير عن ذلك بوضوح أيضا، ولكن الواقع كان بسيطا؛ فقد كان في حاجة إلى أن تُريح ضميره، وأن تغفر له قائلة إن ما كان قد جرى ليس بأمر خطير. إن محادثة صريحة يمكنها أن تُسَكِّن قلقَه. وكانت، مع ذلك، تتوسَّل إليه أن لا يعود إلى الاتصال بها. وما كانت (كاميل) في حاجة إليه، لم يفكِّر هو فيه.

عندما خرجتْ من المدرسة، رأته مباشرة. لقد كان هناك، واقفا على الطرف الآخر من الشارع، وعلى وجهه ابتسامة مقزِّزةٌ. تلاقت نظراتُهما، وكان لديه الوقت حينئذٍ ليشير بحركة صغيرة من يده، حركة كان يأمُل أن تكون وُدِّيّة، غير أن يده كانت رِخْوَة، كأنها مُدَلاةٌ من ذراعِه. لما رأت (كاميل) هذا الرجل على بضعة أمتار منها، انتابها

الشعور الذي كان قد أصابها أثناء اغتصابِها. فصرخ جسدُها بردٍّ أقسَى أيضا من الزلزلة الداخلية. ولحسن الحظ، كانت (إيريس) قربَها. فتعلَّقتْ بصديقتها، وسألتها المساعدة للعودة إلى البيت. ظنَّت (إيريس) أنها لم تتناول طعاما اليوم، أو أنها كانت متوعِّكة، وقد انطلقتا معا، وتشابك ذراعاهما من غير التفات.

رأى (إيفان) (كاميل) تغيب في زاوية الشارع. فبقي مذهولا من غير حَرَاك. وبعد مدة، كان لديه انطباع بأن الناس كانوا ينظرون إليه. فهل يعدُّونه فاسقا يترصَّد المراهقات عند انصرافهن من المدرسة؟ اعتراه خوفٌ غريب؛ فكل الناس كانوا يعرفون ماذا فعل. نعم، فقد كانوا ينظرون إليه، لقد روت (كاميل) كلَّ شيء. لسوف تحضر الشرطة، هذا مؤكَّد. ويجب أن يذهب بسرعة. لئلا يتم القبض عليه. يا له من غبي لمجيئه إلى هنا، وتعرضه لمزيدٍ من الأخطار. ولكن حسنا، إنه لم يكن يتخيَّل أن الأمر سيقع بهذه الطريقة. لماذا انفعلت (كاميل) هكذا؟ ولم تردّ حتى التحية. ولم تكن منها ابتسامة. وألفتهما التي كانت قوية جدا لا وجود لها. لقد انتهى كل شيء. لقد تبدَّد كل شيء بسبب نزوة حمقاء. ويجب أن يقبل الواقع؛ فهي لا ترغب في أن تراه. وهو لم يُفِد شيئا من الكتابة إليها، ولا من المجيء عند الانصراف من المدرسة، ولا من الأمل في أي شيء كان. وكان يجب الاختفاء من أُفُقِها. كانت هذه هي إدانتَها له. وقد جعله ذلك حزينا، حزينا بعمق. لقد كان يجدها جميلة جدا. نعم، لم يكن يجرؤ أن يعترف لنفسِه بذلك في أول الأمر، بل إنه وجدها أكثر جمالا من السابق، وكأنها سَمَت بالخوف.

وفي ذات المساء، مثَّل (إيفان) كوميديا الحياة الزوجية. فأعد العَشاء لـ(سابين)، (سباغيتِّي) spaghettis بصلصة بولونية، قائلا: (لقد قطَّعتُ البصل كما تحبين بالضبط). فقبَّلت (سابين) زوجها على خدِّه. ولحسن

الحظ لم يتكلَّما تقريبا أثناء العَشاء، وكانا يتفرّجان على التلفزة، وقد أتاح ذلك لـ(إيفان) الفراغ كي يكون بعيدا، بعيدا من هنا، وليفكِّر أيضا في (كاميل). لقد رمقته بنظرة سوداء جدا لا تزال تخترقه. لقد قدَّم كلَّ شيء ليقضي معها أيضا قليلا من الوقت؛ ساعة، دقيقة، نَفَسَا واحدا. وإنه لأمرٌ مستحيلٌ تماما وببساطة أن لا يراها ثانية.

(18)

لقد استدعت رؤية المعتدي لـ(كاميل) أزمة جديدة. فبقيت في السرير طوال شهر، رافضة الذهاب إلى المدرسة، قائلة إن ذلك لن يفيدها في شيء. وكانت (إيزابيل) تسأل ابنتَها، فكأنها كانت تواجه حائطا. ولما كانت تمرّ أحيانا بحالة حتمية، فقد قالت لنفسِها: قد تكون (كاميل) كذلك. ولم تستطع أن تفعل كبيرَ شيء. إن الطبيعة توزِّع الظلام والنور، وعلينا أن نتكيَّف معهما. ولكن بعد بضع ثوانٍ، اجتاحت (إيزابيل) ذكرياتٌ عن (كاميل) مرحة بمنتهى الروعة.

وهذا الخبر الغامض الكئيب جعل (إيزابيل) تغوص في ارتباكٍ كلي. وكانت تعتقد أن الأكثر صعوبة كان قد أصبح وراءهم. وكانت هذه الانتكاسةُ تبدو لها مخيفة أكثر بكثير من الاكتئاب السابق، لأنها لم يكن بإمكانها الامتناع عن التفكير في أن (ذلك لن يتوقف أبدا..). وكانت الحالة خطيرة. كانت الشهادة الثانوية في آخر السنة. وقد وضعت (كاميل) مستقبلها في خطر. ولكن ألمها كان يبدو شديدا جدا، وكان ذلك يقلِّل من أهمية تلك الشهادة. وما يُحسَب له حساب إنما هو فقط الأمل بابتسامة جديدة. فلا شيء يمكن عمله. لقد كان وجه ابنتها مثل قناع الموت. وكانت تبكي عليها مساء في غرفتها. وكان (تيرِّي) هو أيضا تائها تماما. فقد كان يشق الطرقات وفوق رأسه تهديد دائم، هو تهديدُ اتصالٍ يعلن له خبرا سيئا. ولم يكن يرغب في أن يتحدَّث عنها مع زوجته، وكان لديه شعورٌ بأن ابنتهما كانت تغادر

في لحظات عالَم الأحياء، وكأن الأمر عملية كشف نحو العالَم الآخر.

يجب عمل شيء. وقد اقترح (تيرِّي) على ابنته أن ترافقه في جولة من جولاته. يبقيان بضعة أيام على الطريق، هما الاثنان. وقبلت ذلك لإرضاء والديها. وكان يبدو أنهما كانا سعيدين جدا بذلك. فساعدت (إيزابيل) (كاميل) في تجهيز حقيبتها، وقد عانقتها طويلا في لحظة الرحيل، وأشارت إليهما بيديها حين أخذت السيارة في الابتعاد عن المنزل.

ولكن منذ أول مساء، اعتذرت (كاميل) إلى أبيها وطلبت منه قائلة: (ضعني من فضلك في قطار، أريد أن أعود إلى البيت). فألحَّ (تيرِّي) عليها قليلا، ثم حاول التحجُّجَ بالسلطة: إن الأمر متأخِّر جدا الآن، لقد رحلا، وكان عليها أن تفكِّر في الأمر من قبل، ولا يمكن تغيير البرنامج بسبب نزوة، إلخ.

ثم أوقف هذا التعنيف التربوي الكاذب دفعة واحدة حين عاين تَوَعُّك ابنتِه. إنه لأمرٌ واضح، وقد حاولت أن تفعل حسنا، وأن تُطمئن والديها بقبولها هذا الاقتراح، ولكنها بالغت في تقدير قُواها. كان العالَم الخارجي يؤلمها، ويُحرِقها.

وكانت تصارع للاحتفاظ بدموعها لئلا تحوِّل هذا الوضع غير المريح إلى بلبلة. ولم يصرَّ (تيرِّي)، وأخذها إلى المحطة الأقرب. وأتت أمها تبحث عنها في محطة (ليون-بِرّاش) Lyon-Perrache، وعادتا إلى البيت بصمت. وهذه العودة الشبحية كانت تتناقض تناقضا قاسيا مع الفرحة المفتعلة للانطلاق. وقد تحطَّمت بادرة (تيرِّي)، مثل كل ما كان قد حاوله من قبل، بإخفاقٍ مؤسِف.

وبعد بضعة أيام من هذه الجولة المخفِقة، غادرت (كاميل) سريرها في آخر الصباح. وأخذت حقيبة لتضع فيها بعض الأغراض. وقد نفَّذت هذه الأمور بلا أي تردُّد، كما لو أن هذه اللحظة لم تكن

سوى تنفيذٍ لفعل مخطَّطٍ له سلفا في رأسِها.

ولما عادت (إيزابيل) من المشفى، وجدت البيت فارغا، فشعرت بالذعر مباشرة. فوجهت إلى (كاميل) رسائل عديدة، صوتية وكتابية، من غير أن تحصل على جواب. وبعد بضعة اتصالاتٍ غير مجدية بزملائها، ذهبت إلى مركز الشرطة. وبعد ساعة لا نهاية لها، استقبلتها امرأة كانت بنفس عمرها تقريبا، وقالت لها:

- منذ متى لاحظتِ غياب ابنتِك؟

- هذا المساء، حين عدت إلى البيت.

- وأتيتِ إلينا الآن؟

- إنها لم تُجِبني.

- هل لديك أسبابٌ خاصة لقلقِك؟

- نعم. إنها.. تعاني نوعا من الاكتئاب. ولم يكن من عاداتها ألا تخبرني. وقد أخذت حقيبة مع أغراضها..

- إذن، أنت تعتقدين أنها حالة هروب؟

- لا أحد يعلم إلى أين يمكن أن تذهب.

- إنها ستعود بالتأكيد. عودي إلى بيتك، وسنرى غدا.

- أقول لك لم يكن من عاداتها ألا تخبرني.. وهي ليست في حالتها العادية في مثل هذا الوقت. أرجوك.. ساعديني.

تلفظت بهذه الكلمات الأخيرة وهي تنتحب. وبما أنها كانت معتادة على هذا النوع من الحالات، ومتدرِّبة على أن لا تترك نفسَها تنساق لها، فإن هذه الموظفة التي أخذت أقوالها تأثَّرت باضطراب (إيزابيل). والحق يُقال، إنها تذكرتها. فقبل بضعة شهور، كانت قد ذهبت إلى المشفى مع ابنها الذي كان قد جُرِح أثناء شوط كرة قدم. وقد وجدت هذه الممرِّضة لطيفة. وكان هنالك شيء ما غيرُ لائقٍ بحقها وهي تراها في هذه الحالة من الهشاشة الكلية، وحتى من

اليأس، بينما كانت الأدوار متعاكسة أثناء لقائهما الأول؛ فالأم كانت قلقة على ابنها في ذلك اليوم، وكانت تلك الأم هي نفسَها. فحاولت أن تطمئنها، بأن تقول لها إن ذلك يحصل طوال الوقت، وهو هروب عابر. فالمراهقون كانوا دوما يعودون إلى البيت، أو ينتهي بهم الأمر إلى إرسال أخبارهم. لم تكن (إيزابيل) تصغي إلى ذلك، فالكلمات لا تفيد في شيء. فيجب مساعدتها بالأفعال الملموسة.

سألت الشرطية:

- هل لديك فكرة عما كانت (كاميل) ترتديه هذا الصباح؟

- لا.

- سوف نشير إلى غيابها. هل لديك صورة لها؟

فتحت (إيزابيل) حقيبتها، وتناولت محفظتَها. فهي تحمل دوما صورة لابنتها في الداخل. صحيح أنها تعود إلى سنة، ولكنها لا تزال تشبهها بما يكفي. وناولتها إياها، وهي تنتحب. هذه الصورة كانت صورة من زمن لم يعد موجودا، من زمن قبل سوء التفاهم والمخاوف. فقد كانت تجد فيها تعبيرا عن ابنتها المحبوبة، ابنتها التي لم تكن أبدا تستطيع أن تخرج من البيت من غير أن تزوِّدها بالأخبار.

لقد كانت الشرطيةُ تريد أن تدعمها بأفضل طريقة تستطيعها، مقترحة حتَّى ما لا يُفعل أبدا في هذه المرحلة، قائلة لها:

- سيتم كل شيء.. لا تقلقي.. لسوف ننشر الصورة على كل دورياتنا الليلية. ولسوف أسهر شخصيا على كل ما ستحصل عليه من بينات بشأن غياب (كاميل).

- شكرا.

- الأفضل لك الآن أن تعودي إلى البيت، وأن ترتاحي.

أجابت (إيزابيل)، وهي تعلم جيدا أن ذلك سيكون مستحيلا:

- لسوف أحاول..

هنالك شعور بالألم لا يفتُر. وكانت تشعر بحُرقةٍ شديدة تزيد أكثر فأكثر في داخل جسدِها. منذ أشهر ووجع ابنتها يرافقها، وكانت تقلِّل منه بالتأكيد لتجنُّب مواجهة الأسوأ، ولكن في هذه المرة كانت تعاني من شعور مسبَّق بشيء مأساوي. كانت الحالة خطيرة. فقد أضافت الشرطية قولها: (لسوف نتَّصِل بك عندما يكون لدينا جديد..). وهي جملة رهيبة كان المرء يسمعها في الأفلام، مرتبطة غالبا بسياقٍ قذِرٍ. وهي فيه الآن. ليس هنالك أدنى شك.

اختصر (تيرِّي) جولته، وانضم إلى زوجته في عز الليل. ودائما لا خبر عن (كاميل). وقد فتشا غرفتها بحثا عن أي دليل، وربما حتى عن يومية حميمية، ولكن عبثا. وانتهى بهما الأمر إلى أن فتحا صندوق الخيزران حيث تتكدَّس مئات التخطيطات (الكروكيهات). وأخذا في تصفحها راجيَيْنِ أن يجدا فيها علامة، أو تفسيرا. ولكن لم يكن فيها شيء يمكن فك رموزه في هذه الرسوم. وبعد ساعة، غادرا. لم تكن (كاميل) من الأشخاص الذين يتركون وراءهم أدلة على اضطرابهم أو انحرافهم.

(20)

كانت (كاميل) قد قضت الليل في فندق قرب محطة الـ(بار-ديو) la Part- Dieu. ومع الفجر، وفي لحظة صفاء، فكَّرت في قلق والديها عليها. وعندما فتحت هاتفها الجوّالَ، وأمام كثرة الرسائل، قدَّرت قلقهم. فاعتذرت إليهما كاتبة في رسالة: (أنا في حاجة إلى الرحيل بضعة أيام. فالعفوَ عما سببتُ لكما من آلام، ولكنني لم أتمكن من فعل شيء آخر). وبعد ساعة اشترت تذكرة للسفر إلى (نيس) Nice. وكان ذلك في أول قطار ينطلِق. وقالت في نفسِها: (لسوف أسبح في البحر)، ناسية أن البحر يكون شديد البرودة في شهر فبراير الحالي.

وما بين الفندق والقطار تبدَّد المال القليل الذي كانت تملكه من

قبل على نطاق واسع. وعندما وصلت إلى (نيس)، وضعت حقيبتها في أمانات المحطة، ثم تنزَّهت في قسم كبير من النهار. وقد شعرت (كاميل) براحة حقيقية لعدم كونها في مدينتها، وكان حَدْسُ الهروب عندها جيدا. وكانت لا تزال قادرة على الذهاب نحو ما يمكن أن يريحها. بتغيير الهواء كما يقولون. إنها تتنفَّس هنا كما لو كانت تتنفَّس حياة أخرى. وبعد تسكُّع على طول متنزَّه الإنجليز، قرَّرت أن تتمدَّد على حصا الشاطئ. وبعد مدة، خلعت ثيابها وتقدَّمت نحو البحر وهي ترتدي ببساطة مايو (تي-شيرت) tee-shirt. ودخلت في الماء، بلا أي تردُّد، وكأنها لم تتبيَّن أن الماء كان شديد البرودة. ومنذ مدةٍ من قبل، لم تكن قادرة على أن تميِّز بدقة العالَم الواقعي. ولم يبدُ لها أمرا غريبا، أيضا، أن تكون الوحيدة التي تسبح. ولكن تصرفها سرعان ما جذب إليها الأنظار. وابتعدت عن الشاطئ من غير أن تُدرِك أنها لم تكن تملك أي قوة على السباحة، وهي لم تتناول طعاما منذ أربع وعشرين ساعة. وكانت تشعر أخيرا أنها سعيدة، ومع ذلك كانت تظهر بمظهر مجنونةٍ أو صورةٍ مُنتحِرة.

صاح بها شرطيان من شرطة البلدية لتعود نحو الشاطئ، ولكنها لم تكن تسمعهما، وكل ما كانت تميزه بالضبط من بعيد شكلان آدميان وبغير وضوح. انتهى الأمر بأحدهما إلى النزول في الماء للحاق بها، وفي اللحظة التي كان قد اقترب فيها منها، أخذت (كاميل) تقوم بحركات كبيرة وفوضوية، محاولة التخلص، وهي مقتنعة أنه كان يهاجمها. حاول الرجل أن يهدِّئها، موضِّحا أنه لا يريد بها أي شرٍّ، وإنما يريد ببساطة أن يساعدها، لأنها وضعت نفسَها في خطر. لم يبق لديها مزيد من الطاقة حتَّى لا تصدِّقَه، فتركته يذهب بها، وفقدت الوعي قبل بلوغ الشاطئ.

استيقظت، وهي ممدَّدة على سرير في مشفى. وبقيت مدّة طويلة

وعيناها مسمَّرتان على بياض السقف. قبل أن تأتي نحوها ممرِّضة، لتسألها:

- كيف تشعرين؟

- أين أنا؟

- أنت في قسم الطوارئ. لقد أُصِبتِ بوعكةٍ وأنت تسبحين.

- وأنا أسبح؟ أين كان ذلك؟

- في البحر.

- أي بحر؟

- في (نيس). أنت في (نيس).

لم يكن لدى (كاميل) أي ذكرى لما كان قد حصل. استأنفت الممرِّضة كلامها قائلة: (قد وصل والداك)، ثم أضافت قولها بهدوء تام، أو همسا في أذنها تقريبا: (سيعود كل شيء إلى نظامه!). هذه صيغة كانت تُقال عشرات المرات في اليوم لكل المرضى في المشفى. وقد سألت (كاميل) نفسها فورا: ما معنى ذلك؟ هل هو تِرياق للفوضى؟ في هذه الحالة، ستكون سعيدة لو تحققت نبوءة الممرِّضة. فهي لم تكن تنتظر النظام، وإنما كانت تنتظر أن تتوقَّف الفوضى.

لقد وجدت الشرطة في بنطال (كاميل) مفتاحَ الأمانات. وباسترداد أغراضها، اكتشفوا بطاقتها الشخصية. وحينئذ نقلوا المعلومة إلى زملائهم في (ليون)، نظرا لأن غياب الفتاة الشابة كان قد سُجِّل فيها. أغمي على (إيزابيل) وهي تسمع الخبر: (لقد تم العثور على ابنتِك في مشفى نيس). ففي لحظةٍ، كانت مقتنعة أنهم يكلِّمونها بشأن جُثَّة. وفي لحظة، كانت تشعر بالفَقْدِ الأخير. ولكن ابنتها كانت حية. ولسوف تتمكَّن من ضمها بين ذراعيها. ومع (تيريِّي)، اتبعت ممرا طويلا ليصلا إلى غرفة (كاميل). وكان بإمكانهما أن يرياها من خلال الزجاج ومن غير أن تراهما. والغريب في الأمر أنها كانت تبدو هادئة. وبينما كانت الحالة

مأساوية، غير أن هنالك وقتا تقريبا للفرح عندما يلتم شمل الأسرة.

أخذوا السيارة وساروا ببطء للعودة إلى (ليون). كانت (إيزابيل) تجلس في الخلف، بجانب ابنتها، وقد ضمتها بين ذراعيها. وطوال خمس دقائق وهي تسألها إن كانت بخير، وإن كانت تريد أن ترتاح، ولا يهم مَنْ يمكن أن يدخل إليها السرور. وكانت (كاميل) تقول إن كل شيء على ما يُرام. وكان ذلك حقيقيا. لقد كانت في حاجة إلى أن تتوه، وأن تنظر الموت أمامها، ربما لتتمكَّن من العيش مرة جديدة.

(21)

عادت (كاميل) إلى المدرسة، وأصبحت مجتهدة. وكأنها معجزة كما كانت ترى (إيزابيل). وغرقت بجنون في المراجعات من أجل الاختبارات النهائية. ولم يكن عندها شيء يهمها سوى ذلك. وتسلَّحت بمعرفة متينة. وكان من الصعب أن يتم فهمها، ولكن هل بالإمكان أن تُلام طالبةُ ثانويةٍ على أنها تعمل كثيرا؟ كان أبوها يرغب في أن يأخذها إلى صيد السمك يوم الأحد، وكانت ترفض، وانتهى بها الأمر إلى أن قَبِلت كي تسعده، بشرط أن يتمكَّن من أن يحمل إليها كتابا.

لا أحد كان بإمكانه أن يتخيَّل مثل هذه الخاتمة في منتصف السنة، فقد نالت (كاميل) شهادة التخرج بتقدير جيد جدا. لقد كانت موهوبة جدا. كانت أمها تريد أن تنظِّم حفلة كبيرة، فيجب أن تتم المشاركة في هذه السعادة، وربما تستمر دائما إن أظهرتها هكذا للناس. ولكن الفتاة الشابة شعرت بالقلق عندما سمعت اسم (سابين) بين المدعوّين، وقالت لأمها: (لا، لا، لا أريد حفلة، ولا شيء يجعلني أكثر سرورا من أن أتناول العشاء معك ومع بابا)، وهذا ما فعلوه في أحد أفضل المطاعم في (ليون)، لدى (دانييل ودُنيز) Daniel et Denise، حيث تمكنوا من الاحتفال معا بالنهاية السعيدة le happy end لهذه السنة الدراسية.

في نهاية العَشاء، أعلنت (كاميل) أنها سوف تشرع في الرسم. لو كان ذلك في أوقات أخرى، لكان بإمكان والديها أن يقلقا من الأمر. فطريق الفن ليس دائما الأكثر ضمانا لبناء مستقبل ملموس. ولكن الأمر مختلف هنا. والشيء البسيط الذي أحسَّت به ابنتُهما رغبة كانت تملؤهما بالفرح. ولأول مرة منذ زمن طويل، كانت (كاميل) تشعر بأنها قوية، ولا يمكن تحطيمها، وكان ذلك أمرا مفرِطا، ولكنها لم تكن تعرف الحل الوسط، لا في القوة ولا في الضعف، لقد كانت متطرِّفة. ولقد كان قرارها يتيح لها أن تتفوَّق أخيرا على جلّادها. لقد حطَّم باغتصابها جسدَها، ولكنه لن يسرق منها حياتها. وكانت (كاميل) على وشك العثور على القوة بأن لا تربط الرسم بالاغتصاب الذي كانت قد عانت منه. وكانت ترغب في دخول (الفنون الجميلة) عند بدء الدراسة. فقيل لها إن الوقت قد تأخر كثيرا، فقد كان عليها أن تقدم أوراقها منذ الربيع. ومرة أخرى قامت السيدة (برتييه)، مديرة المدرسة، بمساعدة (كاميل) في مساعيها، فتم قبولها. فأمضت الصيف كله في المكتبة، تتصفَّح كتب الفن، مكتشِفة بذلك عالَمَ كثيرٍ من الفنانين، من (أُوتُّو ديكس) Otto Dix[68] إلى (شارلوت سالومون) Charlotte Salomon[69].

وقد طلبت من والديها قضاء بضعة أيام في (باريس) بدلا من الذهاب مباشرة إلى (بروتاني). ولم يكن بإمكانهما أن يرفضا لها شيئا، فقد كانت رغباتها أوامر. وكانت تريد أن تزور ثانية المتاحف في

(68) أوتّو ديكس: مصور ونحات انطباعي ألماني (1891-1969)، وقد عُرِف برسم البورتريهات البشعة وبرؤيته الشريرة للحرب، كان عضوا في حركة الموضوعية الجديدة، وكان متأثرا بزمن خدمته في خنادق الجحيم في الحرب العالمية الأولى. (المترجم).

(69) شارلوت سالومون: رسامة مصورة ألمانية من برلين (1917-1943)، أعدمت بأفران الغاز النازية في معتقل (أوشفيتز) Auschwitz في بولونيا، وقد كتب المؤلِّف (فوينكينوس) رواية خاصة بها بعنوان (شارلوت)، نشرها سنة 2015 في (منشورات غاليمار) éd. Gallimard الشهيرة. (المترجم).

العاصمة، ولاسيما متحف (أورسيه). وكانت نشوة هذه الرحلة الثانية أعظم أيضا من تلك في المرة الأولى، وكانت تريد عدم مغادرة الأمكنة، وأن تقضي فيها الصيفَ كلَّه. فقد أدركت قدرة الجمال على لَأْمِ الجراح. فأمامَ لوحةٍ ما، لا نكون محكومين، لأن المبادلة نقية، حيث يبدو العمل كأنَّه يفهم ألمنا ويُفرِّج عنا بصمت، ويبقى إلى الأبد ثابتا ومطمئنا، وغايته الوحيدة هي أن يَغمُرك بأمواج الجمال. فتُنْسَى الأحزان مع (بوتِّيتشِلِّي) Botticelli[70]، وتخِفّ المخاوف مع (رامبرانت) Rembrandt[71]، وتتقلَّص الهموم مع (شاغال) Chagall[72].

وفي (كروزون) بـ(بروتاني)، فكَّرت (كاميل) ثانية في كل الصور المجمَّعة، فأحدث شيء ما في نفسِها لجلجة في صوتِها. فمن المؤكَّد أنها كانت قد رسمت كثيرا قبل المأساة، ولم يكن هنالك شكٌّ في تفرُّدِها، وقد عادت بقدرة نامية ورؤية أكثر دقة. وهنالك دوما الوقت الذي بإمكان فنان أن يقول فيه لنفسِه: حان الوقت الآن. وهذا ما عاشته (كاميل) هذا الصيف هنا. لقد عادت إلى الحياة بفضل الفن، وهذا يعطيها أيضا مزيدا من القوة والوضوح. ولن يشبهَها أحد، إن التفرُّد يجري في عروقها.

(22)

كانت العودة إلى (الفنون الجميلة) تجري مثل حُلُم. وكانت (كاميل) سعيدة لوجودها في بيئة جديدة خالية من الذكريات. يمكن أن يشفى المرء أحيانا بتحوُّلٍ جغرافي بسيط. فإذا كانت قد تعافت، فإن الماضي كان يتراءى لها غالبا بشكل مُبهَم. ولم تكن تستطيع أن تعيش هكذا. وكان عليها أن تعيد بناء نفسِها لا برأب الصُّدُوع وإنما

(70) بوتِّيتشِلِّي: رسام مصور إيطالي من عصر النهضة من فلورنسا (1445-1510). (المترجم).

(71) رامبرانت: رسام مصور ونحات هولندي (1606-1669)، له لوحات دينية وبورتريهات فردية وجماعية، ومشاهد واقعية. (المترجم).

(72) شاغال: (مارك - Marc) رسام مصور فرنسي من أصل روسي (1887-1985)، أعماله مستوحاة من الفولكلور اليهودي في أوروبا الشرقية، ومن المواضيع التوراتية. (المترجم).

ببناء أُسُسٍ جديدة. وقد بحثت في الـ(إنترنت) عن طبيب نفسي يمكنه أن يساعدها. فوقعت على (صوفي ناموزيان) Sophie Namouzian. ولاسيما بسبب اسمها الذي وجدته جديرا بالثقة تماما.

وكانت (كاميل) تتخيَّلها قصيرة شقراء وسمينة، ونوعا من أمهات الأسر المنفتحة، ولكنها وجدت نفسَها أمام امرأة طويلة نحيفة جدا ذات شعر رمادي، وقد شَعَرَتْ كأنها في بيت (جاكوميتِّي) Giacometti[73]. وكانت تبدو متجهِّمة للوهلة الأولى، ولم تكن تسعى إلى الاستمالة بجعلك تعتقد أنها سوف تسوِّي مشكلاتك في ثلاث جلسات. وكان وجهها يمثِّل تضاريس طريق طويل ينبغي سلوكه لمحاولة العثور على الراحة.

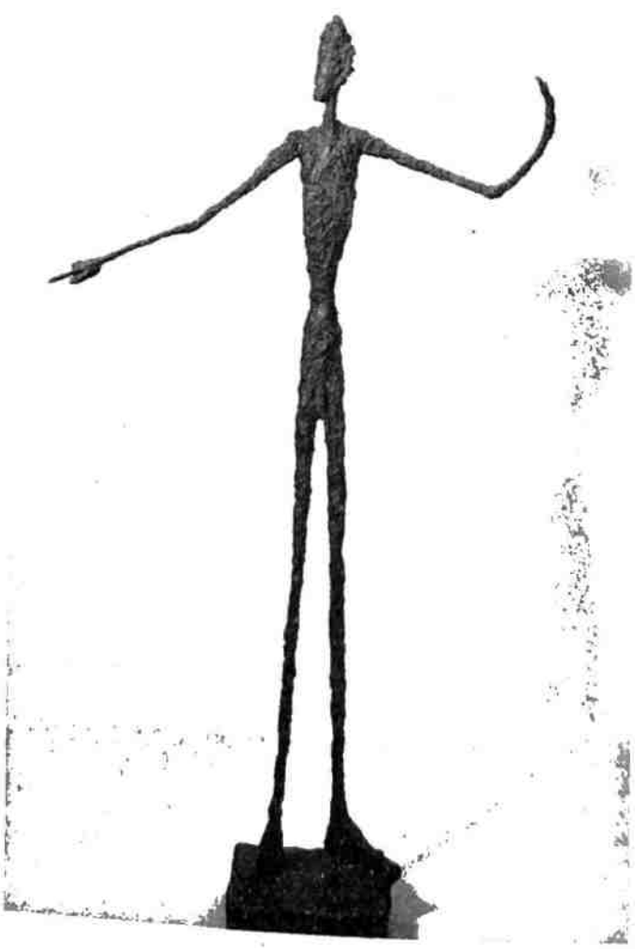

تمثال الرجل ذي الإصبع لـ(جاكوميتِّي)

(73) جاكوميتي: (ألبيرتو - Alberto) رسام مصور ونحات وطبّاع سويسري (-1901 1966)، كان يميل في منحوتاته البشرية إلى جعلها طويلة ونحيفة جدا، ومن أشهر منحوتاته البشرية (الرجل ذو الإصبع). (المترجم)

وفي أول موعد، تكلمت (كاميل) قليلا، ولم تُلِحَّ عليها (صوفي ناموزيان). وقد تم تعارفهما بصمت. وكانتا في حاجة إلى عدة أسابيع حتى يصبح حديثهما أكثر سلاسة. كانت الطبيبة النفسانية قد أحاطت بالحدس بلمحة عن حياة مريضتها الجديدة. إنها ذات طفولة سعيدة، في بيئة مستقرة، وهي فتاة متوازنةٌ ومفعمة بالحيوية، أصيبت فجأة بصدمة نفسية، نتيجة اغتصابٍ مبكِّر، لا من قِبَل فرد في الأسرة، ولكن من قِبَل رجلٍ من المحيط، قام بذلك بطريقة فظَّةٍ وغير متوقَّعةٍ، وأصيبت بذهول مرتبط بهذا التدبير المباغِت، ثم ربما قام الرجل بتهديدها، ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أنها لم تتحدَّث عن ذلك إلى أحد، وأن ذلك على وجه الخصوص ما كان يُثقِل على نفسِها، إنه الحقيقة التي لا تُطاق للفاجعة والصمت الذي كان يحيط بها.

كان بُعدُ نظر (صوفي ناموزيان) مؤثِّرا. فهنالك أشخاص يمكن قراءتهم بسهولة، إلا أن حالة (كاميل) لم تكن كذلك. فقد كانت تحاول أن تغلِّف قلبَها حياء. والحق يُقال، لم يكن ذلك حياء تماما؛ فقد حصل لها في أغلب الأحيان أن كانت تريد أن تصرخ، وأن تمزِّق الحجاب الذي يحبِسُ كلماتِها، إذن لا، لم يكن ذلك بسبب الحياء وإنما بسبب الخجل. وقد كانت الكلماتُ وحدَها القادرة على تحريرها من هذا الخجل الذي كان يُضنيها. وانتظرت (ناموزيان) هذه الكلمات بفارغ الصبر. ولسوف تأتي، وستكون حاسمة.

(23)

كان والدا (كاميل) قد قرَّرا أن يكسِرا وديعتهما السكنية (PEL)[74] ليدفعا إيجار (استديو) قرب المدرسة. وهذا يجنبها الذهاب والإياب اليومي، ولربما يحسِّن هذا الاستقلال الجديد حالها. وعلى أي حال،

(74) هذه الحروف اختصار للكلمات (Plan d'Epargne Logement)، بمعنى: خطة الادخار السكني، أو باختصار (وديعة) لأجل السكن. (المترجم).

كانت هي قد عبَّرت عن هذه الرغبة. لقد كانت تعيش في شقة صغيرة مفروشة مجرَّدة من الجمال، ولم يكن لها أي أهمية. فكانت تقضي أوقاتها في (الفنون الجميلة)، حيث المساحات الواسعة التي تسمَّى (ورشات)، وقد كانت تسمح للطلاب بالعمل ضمن الشروط التي كانت تبدو لها مثالية. وعلى الرغم من حضورها الدائم، لم تكوِّن لنفسِها أصدقاء. فمنذ أن يصبح الحديث شخصيا جدا، كانت تهرب، وتتذرَّع بأن عليها أن تعود إلى البيت، وبأنها مشغولة عندما تكون هنالك أنشطة مسائية. لقد كانت تريد، بالتأكيد، أن تتبادل الأحاديث مع الفنانين الشباب الآخرين، وأن تقارن الأعمال، وتتقاسم الشكوك، ولكن ذلك كان لا يزال فوق طاقتها. ولقد كانت تشعر بالخوف من فكرة عقد علاقات. ولكي تطمئن، كانت تفكِّر في جميع الفنانين الذين كانت معجبة بهم، والذين كانت حيواتهم روائع من العزلة. وكان يحدث لها أن تتحدَّث أحيانا في الهاتف مع (إيريس)، ولكنها لم تكن تراها. كانت (كاميل) على وشك الانقطاع عن الناس، ولم يكن ذلك يحزنُها.

وكانت تحب أن تنسَى نفسَها بين الجمهور، ولاسيما طوال محاضرات (دوريس). فكانت تجلس في وسط المدرَّج، مستعملة الطلاب الآخرين دروعا لها. وكانت تحب على وجه الخصوص هذا الأستاذ الذي يبدو أنه يمتلك شخصيتين: شخصية في المدرَّج، على الرغم من هوى واضحٍ له، فقد كان لديه دوما شيء ما ذو آلية قليلة، فلم يكن المرء يشعر بأنه مستعدٌ ليدع نفسَه تمضي إلى الارتجال أو الاستطراد، فكان طريقا للمعرفة. وفي الدروس العملية TDحيث كانت الأمور مختلفة، فقد كان يبدو أكثر حرية، ومستمعا جيدا للطلاب، وكان بإمكانه أن يحوِّل مسار محاضراته ليكون أكثر قربا من إحساس كلٍّ منهم. وكانت (كاميل) تسأل نفسَها أحيانا أين تكمن حقيقة هذا

الرجل؟ حَدْسِيًا، كانت تراه رفيقا للحزن، ويبدو أن الآخرين لم يكونوا يلمحون ذلك، وكانت تتوقَّع لديه ما يشبه الاضطراب. فقد كان هذا هو زمن انفصاله عن (لويز)، وتحت مظهره غير المبالي لم يكن أحد يرى اليأس، وكان بإمكان روح مجروحة فقط أن تقرأه.

كان الجوهري، بالنسبة إلى (كاميل)، هو الرسم بالتأكيد، وأن تتقدَّم على الصعيد التقني. وكان يجب أيضا أن تتزوَّد من الآخرين، من أجل أن تحدِّد بالتالي لنفسِها طريقَها. وستكون محاضرات (دوريس)، في هذا الاتجاه، لا غِنَى عنها في تطوُّرها. عندما كان يتحدَّث عن طفولة (روبِنس) Rubens[75] أو عن شيخوخة (دالي) Dali[76]، فإن فن الرسم كان يعيش رواية متواصلة. وكان عمل المصوِّر يصبح حينئذ مشاركة في هذه الرواية. كانت (كاميل) تحب أن تشعر بثِقَل هذا التاريخ عندما كانت ترسم، إن عبقريات الماضي لم تكن ترهبها. وبالعكس، كانت معرفة الجمال تزيد قوتها. إن حياة الآخرين كانت تُثرِي حياتَها بلا انقطاعٍ.

لاحظ (دوريس) هذه الطالبة الجديدة باهتمام كبير. ولم يستغرق زمنا طويلا حتى يجدها، ولم يكن ذلك إلا بسبب قوة رغبتها في المعرفة. كان بعض الطلاب قد أسموها (الصامتة). وحتما لم يثِر ذلك استياء (كاميل) حين علمت به، فقد وجدت بلا شك أن هذه كانت إشارة جيدة بالنسبة لفنان. فإن كانت تتكلَّم قليلا، فقد حكم (أنطوان) على واجباتِها المكتوبة بأنها أصيلة ومُلهَمَة. وقد ميَّز لدى هذه الطالبة شخصية قوية لسوف تتم ترجمتها، بالتأكيد، بصوتٍ فنِّيٍّ مُتَفرِّدٍ.

---

(75) روبِنس: (بيير بول - Pierre Paul)، مصور فلامندي (-1527 1640)، كان فنه يعبر عن نفسِه بالدينامية وقوة التراكيب في المخططات أكثر منه في الأعمال المنجزة. (المترجم).

(76) دالي: (سَلفادور - Salvador)، مصور إسباني (1904-1989)، أشهر المصورين السوريالِيين في القرن العشرين. (المترجم).

(24)

عندما كانت (كاميل) في (الفنون الجميلة) كانت محميَّة[77]. ومع ذلك فقد اجتازت من جديد مناطق عاصِفَة، ألن ينتهي ذلك إذن أبدا؟ أحيانا، كانت تشعر بأنها موعودة بالسأم الدائم من نفسِها. إن بضع الدقائق التي كانت قد انتزعت منها إنسانيتها كانت قد أخذت شكل إدانة إلى الأبد. إن العمل الذي أُنجِز لدى الطبيبة النفسانية، بتقويتها على مجابهة انفعالاتِها، جعلها هشَّة. لم تكن قد وصلت دوما إلى الكلام، غير أن الكلمات وصلت الآن إلى حافة الكلام. لقد تسلط عليها خطاب المستقبل.

ومن ثَم، وفي لحظات، كان يبدو لها أنها لن تصل إليه أبدا. وسيظل مستحيلا أن تروي ذاك الذي كانت قد عاشته، كما لو كانت الجُمَل التي تُصاغ هي نفسُها ستقرف مما كانت ستجسِّده. إن التحرُّر بالكلمات، الضروري لراحتِها، كان أملا مُحبَطا بلا انقطاع.

وقد اقترحت (صوفي ناموزيان)، التي كانت قد لمحت هذا الجمود، في أثناء إحدى الجلسات قائلة: (عليك أن تكتبي. وأن تضعي كلماتِك على الورق. ويمكنك أن تقرئيها لي بدلا من الكلام، وإذا ما كنتِ تفضِّلين الاحتفاظ بها لنفسِك، فسيكون لها الفضل في الوجود. يجب على المرء أن يتمكن من إيداع أموره الحميمية في مكان ما.

أحيانا، قد يشك المرء، وهو داخلَ الألم، في حقيقة ما كان يعيشه. وبهذه الشهادة المكتوبة تمنحين نفسَك قوة الواقع. إن حقيقتك هي حقيقةُ ضحيةٍ بالتأكيد، ولكنها أيضا حقيقةُ مُقاتلةٍ. وهنا نقطة انطلاق جميع الوعود..).

(77) إن اسم المدرسة نفسه، الجامع بين الجمال والفن، كان بالنسبة لها مداعبة.

كانت تنطِق هذه الكلمات بهدوء وبُطءٍ، وكأنها حِكمةٌ مُنوَّمة قليلا. وبينما كانت هذه المرأة تبدو جافَّة الطبع أحيانا، أو ضعيفة عاطفيا، فقد تكشَّفت عن إنسانية فائقة. وقد غادرت الفتاة الشابة العيادة وهي تشكر طبيبتها النفسانية. وقد اجتاح هذه الأخيرة، في مرة وحيدة، شعورٌ غريب. هو شيء ما يمكن أن يشبه إحساسا سيئا بقرب حدوثِ شيءٍ ما.

(25)

بعد أسبوع، استيقظت (كاميل) في عِزّ الليل لتكتُب. ولم تكن تعرف من أين تبدأ. وكانت تعيد التعبير عن الأحداث مراتٍ كثيرة، متفحِّصة بعض التفاصيل التي أصبحت مجنونة بها. ولكنها لم تكن تستطيع أن تتراجع. لقد حان الوقت.

تملَّكها إحساسٌ بأنها تحاول أن تنير هُوَّة سَحيقة بعود ثِقابٍ هشٍّ صغير. سيأخذ هذا الأمر حتما وقتا. لقد كانت كل كلمة، وحتَّى كلُّ حرفٍ، ثِقَلا يجب التخلُّص منه. فكتبت جملتين، ثم خلدت للراحة. توجَّهت نحوَ النافذة لمراقبة مدينتِها التي كانت تغطّ في النوم. كان الـ(استديو) الذي تقيم فيه، والمكوَّن من غرفتين قديمتين للخادمات، يقع في الدور الأخير من عمارة بسيطة. رأت من بعيد عاشقين مقيمين فوق سطح كانا يدخنان سيجارة. إنهما تجسيدٌ للسعادة. فكانت تحلم بأن تكون مثلَهما. وأن تتبادل الحب وهي تنظر إلى السماء، في قلب الليل، وهي تدخِّن سيجارة، وأن تتبادل الحب بمساعدة تلافيف الدخان. كان ذلك يبدو لها بسيطَ التحقيق، ومع ذلك، كان لدى (كاميل) انطباعٌ أنها أمام شيء صعبِ المنال. وهذه الرؤية أصبحت، بعد أن أثارت إعجابها، مؤلمة لها إيلاما رهيبا.

توقَّفت عن الكتابة، وحاولت أن تنام. ومع الفجر، نهضت وأعادت فورا قراءة الجملتين اللتين كانت قد كتبتهما. ووعدت نفسَها بأن

تستمر في المساء نفسِه. وجهَّزت نفسَها سريعا حتى لا تتأخَّر. وقد بدأت في الساعة الثامنة بالـ(تي.دي) TD عند (أنطوان دوريس). وكانت تجد أن تدريس أي شيء كان، في وقت مبكر من الصباح، أمرٌ غير معقول، وبخاصة فن الرسم. فالفنُّ جديرٌ بالليل. ومن جهة أخرى، كان الأستاذ نفسه يبدو قليل النضارة بما يكفي، ولا يزال لسانه ثقيلا في بداية المحاضرة. ويمكن أن يستنبط المرء أنه كان يعيش وحيدا. وقبل أن يقول (صباح الخير) للطلاب، لم يكن أيضا قد نطق بأي كلمة، لا مع امرأتِه التي كانت قد رحلت عنه، ولا مع الأطفال الذين لم يرزق بهم. ولكنه كان يملك طاقة فطرية للشغوفين به. وببضع جُمَل حول مصوِّرٍ أو بشأن عمل فني، يشعر المرء بأنه قد استيقظ تماما.

وفي هذا الصباح، واصل حلقة كان قد بدأها منذ شهر بشأن (البورتريه) الذاتي. وكان يتوسَّع في الحاضر في نظرية حول ما كان يعُدّه الخصوصية الواقعية في فن الرسم، ويقول:

- لقد قرَّر جميع الرسامين، عمليا، في زمن ما أو آخَر، أن يكونوا موضوع أعمالهم. وكأن ذلك ممرٌّ إجباري. ويبدو لي أنه الفن الوحيد الخاضع لهذه الضرورة المعبِّرة عن السيرة الذاتية. فمثلا، في الأدب، هنالك عدد من الكتّاب الكبار أنجزوا أعمالهم من غير أن يكتبوا قطُّ عن حيواتهم، ومن غير أن يصوروا أنفسَهم قطُّ، إن جرؤت على القول. فما رأيُكم؟.

- ...

كان الوقتُ مبكِّرا ليكون لدى الطلاب رأي بشأن هذه النظرية. رفعت (كاميل) يدها في مفاجأة عامّة. وبدأت تقول حتَّى قبل أن يعطيها أستاذها الكلمة: (لا أعتقد أن ذلك صحيح. فإن كل فنان يمثِّل نفسَه. في الأدب، يكون الأديب في كل مكان بالتأكيد. وربما كان ذلك

أكثر وضوحا من أن يرسم أحدهم وجهه، ولكن هذا لا يصنع من فن الرسم فنا على حِدَةٍ في التعبير عن ذاتِه. ولا أعتقد أنه يستطيع أن يُبدِع من غير التعبير عما هو عليه. إن نظريتَك تقف على سطح الأشياء، كما يبدو لي).

ورأت (كاميل) من الحكمة أن تتوقَّف هنا. كل الطلاب كانوا مشدوهين من أن (الصامتة) قد اندفعت هكذا في التعبير المطوَّل عن وجهة نظرها. وسرعان ما تبِعها طلابٌ آخرون عبَّروا كذلك عن عدم موافقتهم. لم يكن الأستاذ يتوقَّع مثل هذا التشكيك بشأن رأيه، ولكن كي يظهَر بوجه حسَنٍ، انتهى به الأمر إلى القول إنه سعيد بأن محاضرته كانت أرضا لتبادل الآراء، وإن كل واحد قد عبَّر عن نفسِه بأقصى ما يمكن من الحرية. ومن جهة أخرى، تلقَّى تعليقَ (كاميل) بلطفٍ. وقد كانت هذه المداخلة العامة، بالنسبة لشخصية رزينة، علامة مشجِّعة.

وفي آخر المحاضرة، أرادت (كاميل) الذهاب لرؤية أستاذها والاعتذار منه. فهي لم تكن تشعر بالراحة من فكرة تداخلها هكذا. وقد وضعت جرأتَها على عاتِق الجملتين المكتوبتين ليلة أمس. نعم، فقد كان هنالك رابطٌ حتما. فبوضعها كلماتٍ على الماضي، كانت تحرِّر الحاضر. تقريبا بطريقة فوضوية، مثل دخولها المفاجئ الذي لا يمكن ضبطه بوجهة نظرها في هذا الصباح نفسِه. وبينما كانت قد كتبت قليلا جدا، فقد تلقَّت التأثيرات السعيدة لهذا الارتياح. لقد حرَّرت فجأة فترة طويلة جدا من الصمت! وأخيرا توجَّهت نحو أستاذها قائلة:

- هل يمكنني أن أتكلَّم معك لحظة؟

- نعم، بالتأكيد، يا (كاميل).

- كنتُ أريد أن أقول لك.. إنني آسفة بالنسبة لهذا الصباح. فلم أكن أريد أن أنقض كلامك هكذا.

- لا تتأسَّفي. لقد صنعتِ خيرا بتعبيرك عن رأيك. فربما أخطأتُ في الاعتقاد أن فن الرسم وحدَه يصنع الـ(بورتريه) الذاتي بوصفه طريقا إجباريا.

- أوه لا، أنت لم تخطئ.

- ...

- أنا أجد محاضراتِك رائعة. وأما شَغَفُك فمُعْدٍ. وأنت مُلهِمٌ حقيقي لي.

- شكرا.

- أنا..

- ماذا؟

- لا أريد أن آخذ من وقتك، ولكن..

- قولي لي.

- كنت أحب كثيرا أن آخذ رأيك بشأن عملي.

- هل تودِّين أن أمر لأراك في الورشات؟

- نعم، سيكون هذا أمرا مهما لي.

- اسمعي.. أنا لا أفعل ذلك عادة لئلا أتعدَّى على عمل زملائي. وبما أنك قد طلبتِ ذلك مني، فلِمَ لا.

- شكرا. شكرا جزيلا. سأكون في الورشة غدا طول النهار.

- جيد جدا، سأحاول أن أمرَّ إذن.

غادرت (كاميل) الصفَّ في حالة من الذهول. لقد جرُؤَت على أن تطلب منه ذلك، وهي لا تزال مندهشة. والحق يُقال، لقد كانت تفكر في الأمر منذ عدة أيام. كان أمرا جيدا جدا أن اهتدت إلى (الفنون الجميلة)، ولكنها كانت تود أن تخضع لرأي أستاذها في تاريخ الفن. فرأيه يهمّ أكثر من آراء الآخرين. لقد كانت تشعر بتوافق فكري وعاطفي تامٍّ معه. وكان (أنطوان) قد لاحظ الأهمية التي يحظى بها

في نظر طالبته، حتّى إنه لا يستطيع أن يقول لها لا. وقد كان موقفها هذا الصباح مختلفا جدا عن الأيام الأخرى، وكان يعتقد أن هنالك نسخة جديدة من (كاميل). ولم تكن هي تكُفُّ عن مفاجأتِه، وقد أعطاه ذلك مزيدا من الرغبة في اكتشاف ما كانت تصوِّره.

(26)

في آخر النهار، كان لدى (كاميل) موعد عند (صوفي ناموزيان)[78].

وما إن جلست حتى غمرها شكل من الخجل العكسي وقالت:

- لا أدري ما الذي جرى لي اليوم. فقد قمت بمداخلة في عِزِّ المحاضرة، أمام كل الناس. وبعدها ذهبت لأرى أستاذي. فحَسِب أنني هوجاء. وقد حدَّثتُه بحرية تامة. فلم أعرف نفسي. لم أكن الشخص ذاته.

فأجابت الطبيبة النفسانية بجفاء تقريبا:

- بلى (كاميل)، هذه أنت! وأنا متأكِّدة أنك كنت كذلك منذ بضع سنوات، أن تعبري بصوتٍ عالٍ عما كان يعتقد كل الناس أنه صوتٌ منخفض.

لم تتمكن (كاميل) من الجواب وشرعت في البكاء. وقد مضى وقت طويل جدا لم تصدر لها دموع من عينيها. كان ذلك تحرُّرا من العيون. لقد بكت لأن هذه المرأة على حقّ. وقد جدَّدت للتو الروابط مع تلك التي كانت هي إياها كالاستيقاظ بعد تخدير طويل. نعم، لقد كانت هي التي تتصرَّف هكذا، حرَّة وغيرَ خاضعة لحكم الآخرين. إن هذه الدموع ليست من الحزن، بل بالعكس، وللمرة الأولى، كان كلُّ شيء ممكنا من جديد. وضعت (كاميل) بضع كلماتٍ هنا أو هناك بشأن مزاجها وروت بضع ذكريات. إن روايتها ذلك أدَّت إلى استئناف

(78) عندما كانت تفكّر في طبيبتها النفسانية، كانت تتصِل بها دوما، وكأنها كانت في حاجة إلى أن تبوح لها كذلك باسمٍ ما.

حياتِها.

ومنذ عودتها إلى الـ(استديو)، زودتها حياتُها المستعادة برغبة لا تُقاوم في الرسم. فتناولت دفترا كبيرا كانت قد اشترته في الأسبوع السابق. وتمدَّدت في سريرها، وخطت بضعة (كروكيهات) مستحضرة مشاهد من الطفولة: عيد (نويل) Noël مع أمها التي تروي لها عن الملائكة، زيارة إلى المقبرة عند ضريح خالتها التي ماتت مبكرا، وهذا ما مرَّ برأسِها، من غير لُحمَةٍ محدَّدة، ولا خطٍّ موجِّهٍ. لقد عاد إليها الزمن الماضي، مضافا إلى الزمن الحالي. فالصدع الزمني تم رأبُه. لقد كانت بعض الأشياء قد جرت حقا هذا الصباح. إن الاسترخاء المفاجئ أثناء محاضرة (دوريس) أشار إلى هذا الدخول الذي طالما تم انتظاره. إن (كاميل) القديمة استولت على ملكية بعض الأماكن.

وبتواصل الأفكار، شرعت في رسم أستاذها. وقد استعادت أقواله بشأن هذا المصور أو ذاك، وفوجئت بأنها تتذكَّر عمليا كلَّ ما قاله كلمة كلمة. لقد جعلته يعيش تحت ناظرَيها. وأصبح شخصية. وعلى بعض الـ(كروكيهات)، كان بإمكان المرء أن يرى انعكاس تأسفها على وجهه. لقد رسمت (كاميل) رجلا له هيئة من هو متأخِّرٌ عن نفسه. وهذا هو ما شعرت به فيما يخصُّه. دائما هذا الحزن الدفين. ولكن على رسوم أخرى، وضعت في المقدمة رقته ولطفه. وكانت ترى جيدا أنه كان يُنصِت لها تماما على وجه الخصوص. وكانت تقترب من الحقيقة مع هذه الفرضية. لقد أصبح (أنطوان) طاقتَها، ويريد أن يساعدها بكل قواه.

(27)

وكما هو مُتَّفَق عليه، أمضى آخرَ ما بعدَ ظهر اليوم التالي في فسحة الوُرَش. وقد تسكَّع (أنطوان) قليلا بين أعمال الطلاب، الذين حَيَّوه جميعا باحترام. فسأل نفسَه لماذا لم يكن يأتي قطُّ من قبل. فهل كان

منزعجا ربما من تعديه على أرضٍ كان يقدِّر أنها ليست أرضه؟ هذا غير معقول. فقد قيل له مرارا، وقالت له (كاميل) مؤخرا، إن عُرُوضه يمكن أن تكون ذات تأثير كبير في تطوُّر المسار الفني. فشعر بتأثُّرٍ من قدرته على منح جزء من المسؤولية لهذا الغليان الإبداعي.

وعندما وصل عند (كاميل)، وجدها جالسة على كرسي. إن إخراج هذه اللحظة يتيح المجال للاعتقاد بأنها كانت تملك الحدس بوصول أستاذها، وأنها كانت تنتظره. وكانت بجانب لوحة قد فرغت من تصويرها: وهي (بورتريه) لها. وهكذا، كان (أنطوان) يواجه في تلك الرؤية الغريبة، وكأنه كان على موعد مع (كاميلين). وبدلا من أن يتوجَّه إلى طالبتِه، فضَّل أن يراقب تفاصيل اللوحة. كان الوجه يُظهِر تعبيرا محايدا، ولكن النظرة كانت تبدو متوجِّهة بوضوح نحو ذاك أو تلك ممَّن ينظر إلى اللوحة. كان (أنطوان) قد انبهر للحظة، نظرا لأن هذه النظرة كانت مستمرَّة ومرعبة. ولكن لطَّف من قوة التعبير محيطٌ بنفسَجِيٌّ شاحب لطيفٌ تماما.

وظلَّ لحظة أيضا واقفا أمام العمل، لأنه وجده متفرِّدا مباشرة. وانتهى الأمر بـ(كاميل) إلى القول:

- مساء الخير.

- مساء الخير، عذرا. لقد اختطفتني لوحتك حقا.

- لقد رسمتها من أجلك. بسبب نظريتك، فقد قلت لنفسي يجب أن أقوم بصنع (بورتريه) ذاتي.

- آ.. شكرا.

- والحق يُقال، غالبا ما كنتُ أصنع مثلها من قبل. وما هو غريب أنها رسومي الأقل شخصية. لقد مثَّلتُ نفسي لأكون مختلفة. ولئلا أكون أنا نفسي.

- أفهمك.. ولماذا اخترتِ اللون البنفسجي الشاحب؟

فأجابت الفتاة الشابة وهي ترسم ابتسامة:

- إنه لون الاكتئاب المرح.

يبدو أنها كانت سعيدة جدا لمجيئه، وفرحة جدا لأنها جعلته ينسَى المجازفة بحضوره.

كان (أنطوان) يبدو مرتبكا. فقد كانت (كاميل) تملك شخصية قوية جدا، وهذا يتطلَّب منه دوما وقتا ليجد مكانه قربَها. فقد فضَّل، في البداية، أن يراقب بصمتٍ أكثر من أن ينخرط أولا فأول في انطباعاتها. وذلك بالاستغراق في الأعمال التي كانت الطالبة تعرضها عليه، فلم يلمح، للوهلة الأولى، تماسُكا حقيقيا. وكان يشعر بفنانة خاضعة لنزوات، ومتغيِّرة حسب حالاتها النفسية، واستلهاماتِها متعددة الأقطاب. وهي تحتاج إلى وقت من أجل أن تكتشِف بالتدريج هوية مشتركة، كرابط يوحِّد بعض لوحاتها مع بعض[79]. ويمكن القول إن الإلهام العام كان نباتيا، فالطبيعة، بحضور متفاوت الأهمية، توطِّد فوضى العالَم. وقد كان هنالك أملٌ مختبِئٌ في كل عمل من الأعمال، بما فيها الأكثر قتامة. وغالبا ما كان هذا الضوء يتجسَّد في وجود شجرة أو زهرة. ولقد انتهى الأمر بـ(أنطوان) إلى القول:

- هذا رائع حقا.

- صحيح؟ أحببتَها؟

- نعم، حقيقة.

- هل تقول ذلك لتدخل السرور في نفسي؟

- لا، أنا أؤكِّد لك أن لديك طريقا فريدا. فمن أستاذك في التقنية؟

- إنه الأستاذ (بوي) Bouix.

- أفترض أن عليه أن يقول لك ذلك.

(79) يُقال أحيانا عن رواية إنه يجب معرفة كيفية قراءة ما بين السطور، وكان (أنطوان) يقدِّر فعل ذلك فيما يتعلَّق بعمل (كاميليا)، فقد كان عليه أن يلاحظها بين الألوان.

- أنا في الحقيقة لا أحب المجاملة، ولكن عندما أرى إلى أي درجة هو قادر على تدمير عمل الطلاب الآخرين، أقول لنفسي إنه على الأقل يُقدِّر ما صنعتُ.

- نعم، إنه معروفٌ بذلك. فصمته يكون عندئذٍ أعظم استحسان.

- شكرا على أي حال. أنا خائفة للغاية أن أكون قد عطَّلتُك.

- بالعكس. أنا مسرور بتبادل الحديث معك.

ثم اقترح (أنطوان) ببساطة:

- لنذهب ونتناول القهوة، وسنكون أفضل للحديث عن عملك..

لقد كان من النادر جدا أن يتصرَّف هكذا، غير أن الاستقبال العام للطلاب أثناء وصوله إلى الوُرَش، والرغبة الحقيقية لـ(كاميل) في سماع رأيه دفعاه نحو هذه الرغبة. وكان يريد أن يكون متآلِفا أكثر مع طلابه. وكان هذا يعطيه أيضا سببا للوجود.

(28)

وبعد بضع دقائق، كانا قد جلسا في مقهى يقع غيرَ بعيد من (الفنون الجميلة). كان (أنطوان) فضوليا ليعرف أكثر بشأن إلهامات (كاميل). فقد كان يحبّ المبدعين والأسرار. لقد كان الإعجاب الذي كان يُكِنُّه لها حقيقيا. وقد كان يَبْهرُه أن يقترب من عقل يصوِّر هكذا. كان (أنطوان) أستاذا، ولكن بإمكانه أيضا أن يُدير صالة عرضٍ (غاليري)، ويقوم بالمشاركة في خفقات القلب، ويُبرِز الآخرين. وكان يشعر تماما بمكانه في هذا الدور، وليس له هو نفسه أي ضعف في إرادته الفنية.

وفي هذه اللحظة، لاذت (كاميل) بالصمت قليلا. لا لأنها لم تقدِّر تلك اللحظة، بل بالعكس، لقد وجدت أمرا صعبا جدا أن يتم الحديث عنها. لقد كانت سعيدة بسماع تعليقات (أنطوان)، فقد كانت تراها سديدة وإطرائية، ولكنها شعرت بضيق منذ أن تناول عناصر تكوُّن هذا العمل أو ذاك. فهي لم تكن تتحمَّل تشريح عملها. وكانت أسئلته

تتكشَّف عن فائدة لطيفة، وكانت (كاميل) تعلم ذلك علما جيدا جدا، ولكنها كانت تفضِّل أن تدع الإبداع في منطقة اللا شعور، وكانت تحبّ غموضَ مولد الأفكار. وبصورة عامة، تتضايق حين يحاول امرؤٌ الوصول إلى منطقتها الحميمة. ومع ذلك، كانت هي التي تستثير ذلك. ولكن نظرتها كانت تكفيه. والواقعة البسيطة وهي أنه جاء، واطَّلع على عملها، وكان يحس به، كان ذلك يساوي كل الكلمات. وقد لاحظ (أنطوان) ذلك، فلم يُلِحَّ، وسلك اتجاها أخفَّ، بسؤالها:

- هل لك علاقة بصالة عرض (بِرُّوتان)؟ وهل (إيمانويل) Emmanuel من أسرتك؟

- لا، مطلقا. فأسرتي لا تعرف شيئا في فن الرسم.

- إذن، من أين جاءت موهبتُك؟

- من زيارةٍ لمتحف.. ولكن بعد فوات الأوان لستُ متأكِّدة أنها قد بدأت حقيقة في ذلك اليوم. فقد كانت من قبلُ فيَّ، كما أعتقد. عذرا، لا أدري إن كنت واضحة.

- أنا أفهمك فهما جيدا جدا.

- وأنت؟

- ماذا؟ كيف جئتُ لتدريس تاريخ الفن؟

- نعم.

- بالمصادفة أيضا. فأنا لا أدري كيف جاءني حب فن الرسم. كانت متعتي البسيطة تكمن في أن أتجوَّل في المتاحف، تقريبا مثلك، أعتقد ذلك جيدا. وهروب مُراهَقَة معقَّدة.. تلك كانت الأماكن التي تريحني أكثر.

فقالت (كاميل) بجِدِّيّة مفاجئة:

- نعم، الجمالُ يُريح.

وقد توقَّفا عند هذه الجملة لحظة، وكأن الصمت كان يتيح لفكرة

أن تتجسَّد.

***

وقد واصلا الحديث وقتا طويلا عن مصوِّريهما المفضَّلين، وعن الفن المعاصِر، وأفضل صالات العرض في (ليون). وانتهى الأمر بـ(كاميل) إلى أن تسأل:

- هل (رومان دوريس) من عائلتك؟

- لا، أبدا.

فردت بابتسامة وهي تقول:

- هذا يشكل لنا نقطة مشتركة إذن.

***

غادرا المقهى، وصارا في الشارع. وكانت لحظة مزعجة. فلم يكونا يتصوران القيام بالتقبيل. وأخيرا وضع (أنطوان) يده على كتف (كاميل). وكان هذا هو تماسَّهما الوحيد. ولسوف يعيد التفكير في هذا التصرُّف. وسيعيد التفكير فيه غالبا. لقد كان هذا تصرُّفا أخويا، يمكنه أن يولِّد صداقة بالتأكيد.

(29)

عاد (أنطوان) إلى بيته، وواصل التفكيرَ في (كاميل). يا لَها من امرأةٍ شابة لا تُصَدَّق. لقد نسيَ كلَّ شيء طوال الساعة التي قضاها معها. إن بعض الأشخاص لديهم القدرة على تثبيتك تثبيتا كليا وشاملا في خشوع الحاضر.

وقد كان مستعجلا ليرى ما ستصبح في المستقبل. فقد قال لها في لحظة من حديثِهما: (إنني مؤمنٌ بك). فبدت مرتبكة على وجه الخصوص من هذه الجملة. فردَّدت: (إنه مؤمن بي)، وسيعطيها ذلك قوَّة للذهاب أبعد أيضا.

تقدَّم الليل، وكان لدى (أنطوان) واجباتٌ للتصحيح. وكان يقوم،

بانتظامٍ، بجعل طلابه يعلِّقون على لوحة. وقد كان ينتظر منهم شكلا من سداد الرأي بشأن الموضوع، وبشأن سيطرة العناصر التاريخية التناصِّيَّة[80] في العمل أيضا. وقد وجد نفسَه مع نحو عشرين نُسخة، وكانت بالضبط من صف (كاميل). وبالتأكيد بدأ بها. ومن الغريب أن يملك الآن شعورا بأنه يعرفها أكثر بقليل. فهو لم يكن قد حصل له قطُّ أنه تناول كأسا مع طالبٍ سيصحِّح له نسختَه في المساء نفسِه. فقد بدأ قراءته بنظرة عطف أكثر. ولهذا السبب بالضبط سيكون بالتأكيد أكثر قسوة بقليل في تسجيل ملحوظته. فأُلفتُهما الواضحة لا ينبغي لها أن تفسِد في شيء حيادِيتَه. وفي نهاية الأمر، من المفضَّل بلا شك عدم الاختلاط كثيرا بالطلاب، لتجنُّب الوقوع في مثل هذه الحالة.

ومن غير مفاجأة حقيقية، كان متأثِّرا بنوعية التحليل عند (كاميل). فقد كانت تكتب جيدا، وأسلوبها سلِس ودقيق. كان الأمر يتعلَّق بذكر لوحة لـ(إدفارد مونك) التي تحمل عنوان: (رأس رجل داخل شعر امرأة).

فقد تحدَّثت عن الرسام النرويجي؛ عن جنونه وأحوالِه العُصابِيَّة، ويمكن الاعتقاد بأنها ذكرت ابن عم بعيدا له. ولكنها ذكرت، في القسم الأخير من عَرضِها، شيئا آخر تماما، مع خروج طويل عن الموضوع حول (سلفادور دالي). إنه موضوع مهم، ولكن من غير ارتباط حقيقي بالتحليل المنتظَر. وانتهى الأمر بـ(أنطوان) إلى أن يسجِّل في الهامش التعليق التالي: (موضوع متألِّق ولكنه خارج الموضوع). وبصورة عفوية، ومن غير أن يكون فيه قصدٌ أيا كان، وكان في العادة يذكر التعبير (خارج الموضوع).

(80) التناص: مصطلح يطلق في الأدب والنقد على وجود أدلة على تأثُّر نص متأخِّر بنص متقدِّم، ويطلق في الفن التشكيلي على وجود عناصر تكوينية في اللوحة المتأخرة متأثرةٍ بعناصر تكوينية في لوحة أقدم. (المترجم).

لوحة (رأس رجل داخل شعر امرأة) لـ (إدفارد مونك)

لقد كان من الصعب دوما في العقل الفني أن يدع نفسه ينحبس في عرض موضوع، ونقيض الموضوع، وموضوع توليف. وقد كان يُدرك تماما لماذا ذهبت إلى فضاءات أخرى، فالأعمال الفنية مترابط بعضها مع بعض، كما لو أن تاريخ فن الرسم ليس تواليا لعصور متمايزة. و(كاميل) لم تخلق ببساطة شديدة لكي تدع نفسَها محصورة في طاقة وحيدة، وتلك كانت طاقةَ العبقري النرويجي.

(30)

من جانب (كاميل)، فقد أمضت الأمسية في الرسم. وأنجزت ذلك الـ(كروكي) الذي يستطيع المرء أن يرى فيه ذراعين مرفوعتين نحو

السماء. ثم كتبت العنوان في وسط الرسمة تماما: (نهاية الشعور بالذَّنْب).

وتوقَّفت طويلا عند هاتين الكلمتين. لقد كانت دوما تَعُدّ نفسَها مذنبة بهذا الاغتصاب الذي كانت تعاني منه، إنه شعور غير معقول وغير صائب، ولكنها تحرَّرت فجأة من عبء إضافي. ولأول مرة تتقبَّل أنْ ليس عليها أي مسؤولية عن المأساة التي كانت قد أصابتها. فهل كان عليها أن تتصرَّف بشكلٍ آخر؟ ولماذا كانت تلبَس بهذه الطريقة؟ لقد انتهى الأمر الآن. فهي تعلم أنها كانت ضحية، وضحية فقط. وقد جعلها ذلك مقاتِلة. وهي تقول لنفسِها إنها كانت تستطيع أن تقدِّم شكوى، مهما كانت نتائج هذا العمل. والحق يُقال، لقد كانت تضع موضع شك أكثر فأكثر صلابةَ تهديدات جلّادِها. لقد كان يمارس عليها ضغطا نفسيا لكي تصمت، ولكن خطأ أمها الذي كان قد تحدَّث عنه كان يبدو لها الآن مستبعدا. وشرعت تفكِّر تفكيرا واقعيا فيما سيحدث لو أنها تذهب الآن إلى الشرطة. إن عليها أن تشرح كل شيء، وبذا يُبعَث تماما. وستكون هنالك مواجهة. ولسوف تجد نفسها مضطرَّة لأن تَمثُل أمامه بالتأكيد. ولسوف يُنكِر. ويتهمها بالكذب. وربما صدَّقه بعضهم. فهل تستطيع هي أن تتحمَّل ذلك؟ لقد كانت على وشك أن تعيد بناء نفسِها، بعيدا عن هذا الكابوس. وكانت تكافح كل يوم لأجل ذلك، فلماذا تعود إذن إلى ذلك الأمر؟ قبل بضع دقائق، كانت تشعر بمثل تلك القوة، وها هي الهشاشة تعود ثانية، الهشاشة والاشمئزاز.

قد لا ينتهي إذن أبدا.

إن الألم يستجِرّ الألم بصورة صدى لا ينقطع من السواد. لقد قام (إيفان) بظهور جديد في حياتها. قام باصطحاب تلاميذ صفه لزيارة (الفنون الجميلة). فقد كان فيها معرض يزعم تقديمه الأعمال الأولى

لبعض الفنانين. كيف يبدأ المرء بالرسم؟ وهل يعرف على الفور ما ستكون عليه نَغَمِيّةُ الصوت الفنيّ؟ وكان (إيفان) يرى أن مواجهة طلاب الثانوية، لكل هذه المواهب الوليدة، أمرٌ طيِّب. وإطلاع هؤلاء على أن كل العالَم يبتدئون، سوف يسمح بطريقة ما لكلٍّ منهم أن يعتقد بذلك في نفسِه. وقد تجوَّلوا في الصالة الكبيرة، ثم إنهم ذهبوا للتعمُّق في الموضوع إلى المكتبة. وكان يفكِّر في أن هذه الرحلة ربما تُفَتِّح بعض المواهب.

وفي آخر النهار تماما صادفت (كاميل) هذه المجموعة. ولم تلمح (إيفان) على الفور، ولكن اجتذبها هذا الجمهور اليافع جدا. وقد لمحت فيه بصورة عفوية عدم الاكتراث، وفكَّرت في رحلاتها أيام الثانوية، فتذكَّرت اللحظة التي وجدت نفسَها فيها أمام لوحة (جيريكو). وفي هذه اللحظة بالتحديد رأته، منتفِخا ومتعرِّقا، متمتعا بسلطة راشد صغيرة وهو يأمر طالبا ما بأن يفعل هذا أو ذاك. نعم، إنه هو. فهي تستطيع أن تعرفه في وسط ملعب مزدحم، هذا الذي كان يلاحق رؤاها وروحَها، كان هنالك. وقد عرفها هو أيضا مباشرة ولم يبدُ عليه أنه قد فوجِئ. فقد كان يعلَم أنها كانت تَدْرُس هنا، والحق يُقال إنه كان يأمُل في سرِّه أن يصادفها، وقد لعبت المصادفة لصالحه. وحين أصبح قربها قال لها ببساطة: (مساء الخير يا كاميل). إنه تأدُّبٌ كان يأخذ شكل صَفعَةٍ. فبقيت مذهولة. وتابع هو طريقَه، مُتقدِّما نحو المخرَج، ومحاطا بالطلاب، ولاسيما البنات الشابات. كانت هي ترغب في الصُّراخ، ولكن موجة من الصمت كانت قد هوت عليها.

حاولت أن تُهدِّئ نفسَها، لئلا تُحِس بالهيجان من هذه الإشارة السيِّئة من الحظ. وربما يتعيَّن عليها أن ترى فيها رمزا إيجابيا، وطريقة لإغلاق باب الخوف. وكانت طبيبتها النفسانية قد قالت

لها ذلك، بالتأكيد. ولكن لا، لا، ليس الأمر كذلك. إنه الغدر الذي لا ينقطع للحياة التي تَجتهِد ضدَّها، وبالتحديد في اللحظة التي كانت تُخرِج فيها رأسَها من الماء. فهنالك قوة لا تزال تواصل السخرية منها ومن معاناتِها. وهي لا ترى سوى هذا الاحتمال. لماذا تَفرِض عليها هذا؟ ولماذا تضعها أمام ذلك الذي كان قد قتلها؟ نعم، كان قد قتلها. ولم تَمُتْ، غير أنها لا تحيا. وإنما عادت إلى الحياة. ما سبب قذارة هذه المصادفة؟ وهو كان يظهر غير مبالٍ تماما. ولم يكن باديا عليه أنه مُستَحٍ مما كان قد فعله، ولا أدنى مسحة من الحياء على وجهه. ولم تظهر عليه الخشية من أن تفضحه. فهل نسِيَ؟ وهل كانت تمسيته بالخير لطيفة جدا؟ وهل من الممكن أن ينسى مثل تلك الجريمة؟ ويبدو أن هذه الدقائق، التي لا تُنسَى لديها، قد انمحت لديه. إن الظُّلمَ يواصل صفته الظالمة.

عادت (كاميل) إلى مقرِّها، مضطربة. ووضعت حقيبتها على الطاولة. وبحثت فيها عن مضادات القلق (anxiolytiques) التي وصفتها لها (ناموزيان)، ولكنها لم تجدها. فأخرجت حينئذٍ من حقيبتها النسخة المستردَّة من الأستاذ (دوريس). وكان يبدو منزعجا جدا من خلال إشارته إليها بأنها كانت قد مرَّت بجانب موضوعها. ولكن هذه هي الحقيقة. الحقيقة الدقيقة. وقد هدَّأها تفكيرها فيه قليلا. وحتَّى إنها شرعت في إعادة قراءة عملها لتشغل دماغَها، وتتلهَّى به عن الأسوأ. هي لم تكن تعلم لماذا ذهبت بعيدا جدا عن موضوعها الرئيسي. فهي عندما أنجزت نصف عملها، نسيت (مونك) تماما. وهذا ما يُدعَى بلا شك عقلية السُّلَّم. وكان ذلك يتوافق مع طبيعتِها جدا؛ فقد كانت تسعى إلى الهروب بلا انقطاع. وكان فكرها شاردا. وهو الفكر الذي يتيح لنا بالضبط أن نُفلِت من أفكارنا.

(31)

عندما دخل (أنطوان) إلى صفِّه في اليوم التالي، لاحظ مباشرة أن (كاميل) لم تكن حاضرة. فجلس خلف مكتبِه. وعادة ما كان يبدأ محاضرته فورا، ولكنه الآن، كان يرغب في أن ينتظرها. مثل ممثِّل لا يريد أن يقوم بدوره ما دامت مُشاهِدتُه المفضَّلةُ لم تكن في الصالة. وكان من الآن متضايقا لأنها لم تحضر. ربما كانت ترسم طوال الليل؟ نعم، هذا يمكن أن يكون. وكانت قد قالت له إن محاضراته تبدأ مبكرة جدا. وهذا هو السبب بالتأكيد. غير أنها كانت قد قالت إنها لا تريد أن تفوتها أبدا. وربما كان هنالك أمر آخر. كان (أنطوان) على وشك أن يتحدَّث عن راقِصات (دوغا) Degas[81]، وبينما كانت بديهته رشيقة وتذهب في كل اتجاه، إذا به يشعر بثِقَل يتركز تدريجيا في قلبِه. ودقيقة بعد دقيقة، انتابه القلق. لأول مرة في عمله، عاش اللحظات الأخيرة في محاضرته مثل هذا العذاب.

منذ أن قُرِع الجرس، خرج الأستاذ من الصالة بسرعة. وبدلا من أن يذهب نحو المدرَّج، توجَّه نحو أمانة السر في المؤسسة. فصادف (سابين)، وقد فوجئ تقريبا بوجودها وكان عقله في مكان آخر. وقد استحوذ عليه توعُّك في الحدس. فسأل موظَّفة في الإدارة عن عنوان (كاميل). ونطق باسمها، غير أن المرأة سمعته خطأ، مردِّدة (بِرُّوشون) Perruchon. فقال: لا (بِرُّوتان). وانتهى الأمر بالعثور على بطاقتها، فسجَّل رقمها. ولم يكن يرغب في الاتِّصال بها هنا أمام جميع الناس. فغادر الاستقبال، وبحث عن مكان هادئ، وانتهى بالوقوف تحت سُلَّم، حيث لا يمرّ أحد. فطلب الرقم. وكانت (كاميل) حولت جوّالها إلى الرسائل فقط. فحاول الاتصال بها ثانية، فسمع صوتها مرة أخرى مقترحا ترك رسالة. فتردَّد، وتردَّد بضع ثوانٍ، وانتهى بإغلاق الجوّال من غير أن يتكلَّم.

(81) دوغا: (إدغار - Edgar)، رسام ومصور ونحات فرنسي (1834-1917)، له مجموعة من اللوحات التي تناول فيها موضوع الراقصات. (المترجم).

القسم الرابع
(1)

استولى الانفعال على (أنطوان). وتردَّدت (ماتيلد) في الاقتراب، وفي الجلوس أمامه تماما، ولكنها قرَّرت أخيرا أن تدعه وحيدا في خلوتِه. لم يكن هنالك أحدٌ في المقبرة في هذه الساعة. كلُّ شيء كان يسعى إلى طبع كل ثانية باكتئابٍ كلي. وقد تمتم ببضع كلمات لا يمكن تمييزها، ثم انحنى ليضع على حجر الضريح ورودا ذاوية كانت الريح قد كنستْها. وكان المرء يرى بعض الكلمات هنا أو هناك. وكان هنالك لوحة تذكارية تحمل هذه الجملة البسيطة: (نُحِبُّك إلى الأبد). لم تكن موقَّعة، ولكنها كانت آتية بالتأكيد من والديها.

وبعد مدَّة، كان (أنطوان) قد شعر بصورة من الارتياح. فهو منذ أسابيع كان يعيش بقلب مخنوق. إنه مستعِدٌّ الآن لمواجهة ما كان يعاني منه. وعلى الرغم من الحزن الذي كان يجتاحه، فقد وجد في هذه اللحظة بوادر قوَّةٍ لن تضعُف أبدا. وقد كان غموضٌ عاطفيٌّ واسع يُهيمن دوما على عقله، ولكن كان قد وُلِد هنا شيءٌ ما من الجميل. فوعد (كاميل) بأن يعود في أغلب الأحيان، وبأنها لن تفتقر أبدا إلى الأزهار. وضع يده على شفتيه، وأرفق هذه القبلة بلمس الضريح بأطراف أصابعِه.

وانتهى الأمر بـ(أنطوان) بأن لحِق بـ(ماتيلد). ولم يكن يدري ما يقول. لم يكن لذلك أي أهمية، ولم تكن هي تنتظر شرحا. فقد تبِعته

إلى آخرِ مملكةِ عدم الإدراك. وكانت ترغب في دعمه، وأن تكون بكل بساطة معه. والحق يُقال، وفي هذه اللحظة، كان (أنطوان) في حاجة إلى الكلام. لقد كان يشعر بضرورة أن يسلِّم أخيرا كلَّ ما كان يحتفظ به. لقد سار بمحاذاة الأضرحة وهو يقرأ هنا وهناك أسماء الموتى. إن ظِلال الماضي تجعل الكلام يولَد، إن هذا المكان كان يمثِّل تمثيلا ممتازا إيعازا بالحياة. وقد غادرا المقبرة متوجِّهَينِ إلى السيارة. وبعد مدة سألت (ماتيلد):

- إلى أين نذهب؟ هل تود أن نذهب إلى مقهى؟

- لا، لنبقَ في السيارة.

(2)

وشرع يروي أنه لم يكُفَّ، طوال الصباح، عن الاتِّصال برقم (كاميل) عبثا. ولم يقاسم الآخرين قلقه، مدركا أنه كان يبدو مغاليا، غير أنه كان يشعر أن شيئا ما خطيرا كان يحصل.

وفي ساعة الغداء، قرَّر أن يذهب إلى مقرِّها. فطلب سيارة أجرة أنزلته في أسفل العمارة. فبحث عن اسمها على صناديق الرسائل، ولكن لم يكن على أيٍّ منها. لقد كانت بلا شك تستأجر غرفة خادمة حيث كانت تعيش بالمشاركة، كعدد من طلاب (الفنون الجميلة). ولا يوجد حارس للبناء. فما العمل؟ بقي لحظة بلا حَرَاك في البهو. فمرّ بعضهم، فاستعلم منه، فلم يعرفها. والأفضل كان أن يصعد وأن يدقّ على كل الأبواب. إذا كانت (كاميل) بخير، فلربما عدَّت هذا الحضور المفاجئ إلى مقرِّها أمرا سيّئا، فقد رأى جيدا، أثناء حديثهما، بأنها لم تكن تحبّ كثيرا أن يتعدَّى أحد على خصوصيتها الحميمة. فكان الأفضل عنده أن يرحل.

ولكن (أنطوان) ظلَّ مذهولا في بهو العمارة. وفي رقصة الفالس التي لا تنقطع لتردّدِه عادت إلى ذاكرتِه جميع الإشارات إلى هشاشة

طالبته. إنها هشاشةٌ تم التشويش عليها في الأيام الأخيرة التي ظهرت فيها واثقة من نفسِها ومفعمة بالحياة. ولكن (كاميل) الأخرى، وهي تلك التي لاحظها طوال أسابيع، لم تكن شبيهة لها مطلقا. فقد شاهد في كثير من المرات أن هذه الفتاة الشابة كان الحزن أو شرود الذهن يتغلغل فيها. فهي دائما وحيدة، وانطوائية، وكانت في الغالب ظلا في الحياة، وكانت من نوع الفتيات التي ينبغي القلق عليها لو تغيَّبت بضعة أيام. وبناء على ذلك كان لشعوره أساسٌ. ولكنها لم تكن متغيِّبة سوى صبيحة واحدة. أوَليس مبكِّرا القلقُ عليها؟ لقد كان (أنطوان) تائها بين حدسِه والحقيقة. وإن نزلتِ الآن (وهذا ما كان يرجوه)، فلسوف تسخر من قلقِه المفرط عليها. والأسوأ أن تجده أمرا غريبا. ستعتبره مريضا نفسيا يأتي إليها لمجرد عدم ردها على مكالمته. وكان هذا بعيدا جدا عنه. حتَّى إن (لويز) قد هجرته بسبب ذلك، وهذه الطريقة التي كانت عنده بعدم توظيفها قط تماما في حياة الآخَر، وبالبقاء على السطح، والعيش في الأوهام، إذن لماذا هو هنا، ومتضايق من الخوف والإحساس بقرب حدوث شيء؟

ستظهر الحقيقة الآن.

يجب الانتظار قليلا أيضا.

فقط بضع خطوات.

نحو عشر خطوات لا أكثر.

واحدةٌ، اثنتان، ثلاثٌ.

امرأة كانت تتَّجِه نحو العمارة.

أربعٌ، خمسٌ، ستٌّ.

جارة كانت تعرف الحقيقة.

سبعٌ، ثمانٍ، تسعٌ.

فتحت الباب، لتواجه (أنطوان) ثابتا.

عشرٌ.

سألته:

- هل أستطيع مساعدتَك؟

- أنا أبحث عن فتاة شابة تسكن هنا. ولكن اسمها ليس على صندوق الرسائل.

قالت المرأة المجهولة فجأة بهيئة خطيرة:

- هل تبحث عن (كاميل)؟

- نعم، هي تلك.

- هل أنت من الأسرة؟

- لا، أنا أستاذها في (الفنون الجميلة).

- أنا آسفة يا سيِّدي..

- ماذا؟

- لقد.. لقد ألقت بنفسِها أمسِ مساء من الدور الأخير.

(3)

لم يكن (أنطوان) قادرا على إلقاء محاضراته بعد الظهر. فقد عاد إلى البيت مذعورا. لم تبدُ له شقتُه مكونة من جدران قائمة ومتماثلة. ورؤيته المتردِّدة أصبحت غير ثابتة تماما. ولئلا يسقط، انتهى به الأمر إلى أن يتمدَّد على سريره. كان يدقِّق الخبر بلا انقطاع، إنه غير ممكن، ليست (كاميل)، لا. ولم يكن يفكر بغير فظاعة جسدِها المهشَّم على الأرض، ودمِها الذي كان يسيل على الرصيف. من كان أول من سمع صوت الارتطام؟ وهل صرَخ أحدٌ؟ كان يتوجس من كل شيء. في الأمس كانت هنا جالسة في صفها. وبعد بضع ساعات كانت ميتة. لا يمكنها أن تموت هكذا. وليس لها الحق في ذلك، هذا ما كان قد قاله لنفسِه خلال التوالي المنهك لأفكاره. لقد كانت هنالك حتما صدمة للرحيل هكذا في قسوة صارخة جدا. كان (أنطوان) يتصوَّر وجود دفْعٍ، أو شيءٍ

ما لا يمكن مراقبتُه، ويجب القفز، والانتهاء، فورا، ولم يكن هنالك خِيار.

قبل بضعة أيام، كانت هنالك معه، تريه أعمالها بفخر، كانت هنالك مُفعَمة بالحياة ومتفائلة بالمستقبل. وكان قد لمس كتفَها، والآن انتهى كلُّ شيء. لم يعُد هنالك كتِف يلمسُه أبدا. هذا غير ممكن. لم يكن قد رأى شيئا، ولا أحس بشيء. وأخيرا، لا، لم تكن هذه هي الحقيقة. لقد اكتشف هشاشة (كاميل). وكل الناس كانوا يَعُون ذلك. لقد كانت تنقل دَوّامة وتحاول أن تخفيَها من غير أن تحقِّق ذلك، نعم، كان المرء يراها بخير. ولكن الأمور تغيَّرت في الأيام الأخيرة هذه. لم يكن مجنونا. كان ذلك قد تغيَّر. وكانت تُجرِي مداخلة في الصف. وكانت ترغب في أن تريه لوحاتِها. وكانت تحدِّثه عن مشاريعِها. لقد كانت مفعمة بالحياة ومتفائلة بالمستقبل. لم يكن مجنونا. وكانت تبدو راغبة في أن ترسم وترسم، أيضا، وكان المرء يلمح لديها تدفُّقا في الإبداع، إذن لا، لم يكن الأمر منطقيا، ولم يكن ممكنا أن تكون قد قرَّرت أن تموت هكذا، بقسوة بالغة، هي التي كانت مفعمة بالحياة ومتفائلة بالمستقبل. لا، لم يكن هذا ممكنا. ولا بُدَّ حتما من أن يكون شيءٌ ما قد حصل.

كانت تلك هي الجملة التي لم يكفَّ (أنطوان) عن ترديدها. لابُدَّ حتما من أن يكون شيءٌ ما قد حصل. وفي وسط هذه اللازمة المشؤومة جاءته خاطِرة. وهي أن عنصرا ظهر له وكأنه الفعل الأخير الذي كان قد عجَّل في سقوط الطالبة. وكان غلطة منه. لقد كان هو المسؤول. فقد أعاد إليها نسخة الواجب، وكان قد كتب عليها قوله: (خارج المطلوب). ولا يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك. وكيف يمكن تفسير ربط الأحداث بخلاف ذلك؟ فقد كان أعاد الواجب مكتوبا

عليه (خارج المطلوب) وبعد ثلاث ساعات ألقت بنفسِها من النافذة. بعد ثلاث ساعات، أصبحتْ هي خارج المطلوب.

تعِب في التنفُّس. فنهض، وأخذ يدور في صالونه كمجنون. لقد كان هو المسؤول. ولا يمكن أن يكون أحدٌ غيره. كيف استطاع أن يكون متهوِّرا جدا؟ لقد كان يعلم هشاشة هذه الفتاة. وكان يعلم أن رأيه كان يهمها للغاية، وها هو بعد أن تملَّقها فجأة، وبعد أن قال لها: (إنني مؤمن بك)، استخفَّ بها بشكل صريح بملحوظته (خارج المطلوب). وبالتأكيد، كانت قد تلقَّت هذه الملحوظة بوصفها خيانة. لقد كانا كلاهما قد تفاهما تفاهما جيِّدا جدا. ولم يكن قط قد تناول قهوة مع أيٍّ من طلابه، وكانت هي بالمِثل، لقد كانت معجبة به، نعم، وذكرت له ذلك بوضوح، قائلة: (أنت ملهِمٌ حقيقيٌّ لي)، فكسر نفسَها بضربة. لقد أحدث كارثة. لقد كان مؤكَّدا أنها قد شعرت بمثل ذلك، ولا يمكن أن يكون الأمر خلافه. وقد أعاد بلا انقطاع شريط الأحداث، ولم يرَ إلا الحقيقة الواضحة في ثلاثة فصول: كانت قد عادت فرحة، ثم قال لها إن واجبها (خارج المطلوب)، ثم قتلت نفسَها. كيف لا يُرَى الرابط بينها؟ هل هنالك تعبير أكثر شدة من هذا التعبير؟ (خارج المطلوب)، هذا يعني أن المرء مستبعد من نفسِه. فنحن موضوع، وفجأة لا يريد أحد شيئا منك. إن (خارج المطلوب) هو الموت.

سواء أكان الحكم صحيحا أم خاطئا، له أساس أم لا، فإن (أنطوان)، منذ اللحظة التي اقتنع فيها بالربط بين ملحوظته وانتحار الطالبة، لم يتمكَّن من القيام بخطوة إلى الوراء نحو فرضية أخرى، وحقيقة أخرى. إن هذا لم يكن تحقيقا في نظره، بل كان يقينا مُطلَقا. وعلى كل الأحوال، إن انتحار قريب لا يمكنه إلا أن يبعث على الشعور بالذنب. فلماذا لا يرى المرء ما كان قد حِيك في موقع الرعب؟ وهل كان يجب

التصرُّف بطريقة مختلفة؟ والتلفظ ببضع كلمات معزِّية تنقذ روحا ربما كانت غير مدانة بعدُ؟ هذا الشعور بالمسؤولية بسبب ملحوظة (خارج المطلوب) كان يرافق، بشكل أوسع بكثير، أحياء ذاهلين ومذعورين في مواجهة الغرق الذي لم يروه يأتي. وهكذا دخل (أنطوان) جسدا وروحا في هاجس الشعور بالذنب. ولسوف تكشف معاناته القوية جدا أنه قد ترك المكان تدريجيا لرجل ميِّت في داخله.

وبعد بضعة أيام، لم يكن يمتلك القوة للذهاب إلى الدفن. وبدا ذلك الأمر غريبا جدا، بعد نصف النهار الأول للغياب، فلقد كان يلقي محاضراته طوال أسبوعين تقريبا، من غير أن يتبيَّن أحدٌ حالتَه. فكان يمضي الساعات بطريقة آلية، روبوتية، بلا إنسانية. وفي الصف، كان يلقي نظراتٍ نحو المكان المعتاد لـ(كاميل). ولم يكن أحدٌ يتخيَّل ما كان يمر به. لقد كان يرى المدرسة تحيا من جديد، ولم تكد تشعر برعب انتحار واحدة من طالباتها. كان هنالك بلا شك مظاهر حزينة على الوجوه في الأيام الأولى، ولكنه لم يستمر سوى وقت قليلٍ جدا. فالمرء سُرعان ما يحلّق فوق المآسي.

عندما قرَّر (أنطوان) الهروب، لم يربط أحدٌ ذلك بانتحار (كاميل). وقد حاول (باتينو)، الذي تفاجأ بذلك، أن يعرف قليلا عن أسباب رحيله. وكان الأستاذ قد ذكر حينذاك أنه بصدد مشروع كتابة رواية لا يمكنها أن تنتظر. غير أن الحقيقة كانت شيئا آخر تماما. كان جسدُه يحترق من الداخل. وكان الجمال وحده هو الذي يمكن أن يُنقِذه.

(4)

أخذت (ماتيلد) بيد (أنطوان). وكان قد روي ذلك بلا توقُّفٍ، داخل السيارة الواقفة قرب المقبرة. وتحدَّث قليلا أيضا عن (كاميل)، وعن موهبتها، وعن القهوة التي كانا قد تناولاها معا. وأعلن بكثير من الانفعال في الصوت قوله:

- كان لـديَّ يقـينٌ بـأن مسـتقبلها سـيكون متألِّقـا. ولكنـه يبـدو غـير معقـول الآن.

- لا، الحق معك. من الواضح أن هذه الفتاة كانت موهوبة جدا.

- ...

- (أنطـوان)، إننـي لا أؤمـن بقصتـك عـن التعليـق الـذي جعلهـا تتألَّـم. إن مـا رويتَـه لي عنهـا يبـيِّن تمامـا أن شـياطين مخيفـين كانـوا يسـكنونها. وأنـت لا تسـتطيع فعـل شيء. حتَّـى إننـي أعتقـد بالعكـس أن موقفـك، وعطفـك، كانـا آخـر سـعادة غامـرة لهـا. وأنـا متأكِّـدة مـن ذلـك.

لم يُجِـب (أنطـوان) بـشيء. فقـد اختنـق حلقـه أمـام كلـمات التعزيـة هـذه. فاسـتأنفت (ماتيلـد) تقـول:

- لا يمكنك أن تظلّ هكذا.

- أعلم.

- ماذا ستفعل؟

- أعتقـد أننـي أرغـب بالذهـاب لزيـارة والديهـا. فربمـا عهِـدا إليَّ ببعـض الرسـوم. ويمكـن أن نقيـم لهـا حفـل تكريـم في المدرسـة.

فتحمَّست (ماتيلد) وقالت:

- هذه فكرة جيدة جدا.

كان (أنطـوان) سـعيدا بـردة فعلهـا. فقـد كان يشـك في كل شيء، وكان في حاجـة إلى تصديـقٍ عـلى أفـكاره. وقـد غـيَّر حضـور هـذه المـرأة كلَّ شيء. ولم يكـن ليسـلك هـذا الطريـق مـن غيرهـا قـطُّ. وعـلى الرغـم مـن ضيقـه، لم يكـن يكـفّ عـن اتخـاذ القـرارات الصائبـة، مـن (أورسـيه) إلى (ماتيلـد)، وصـولا إلى المـكان الـذي ينبغـي لـه أن يكـون فيـه؛ أمـام منـزل (كاميـل).

وجـدت (ماتيلـد) بسـهولة العنـوان عـلى (الإنترنـت). وكان يكفـي السـيرُ أقـلَّ مـن عـشر دقائـق. وقـد لاحـظ (أنطـوان) البيـت، متخيِّـلا عـدد المـرات التـي دخلـت فيهـا (كاميـل) في هـذا البـاب وخرجـت منـه. وكان

يتخيَّل مساراتها، فقد كانت تترك آثارا من حضورها في كل مكان، آثارا ملموسة في أعمالها، وكذلك آثارا غير مادية. كالهواء الذي استنشقته وزفرته مثلا.

سألته (ماتيلد):

- هل أنتظرك في السيارة؟

- لا، اذهبي. يمكنك الرحيل.

- هل أنت متأكِّد؟

- نعم، أعلم أن عليك العودة إلى أطفالك؟ وسأتدبر الأمر بنفسي.

- حقا.

- نعم.

- هل ستتصل بي هذا المساء لتروي لي ما جرى؟

- نعم، هذا وعد. انتبهي إلى الطريق..

وحينئذٍ اقترب (أنطوان) من (ماتيلد) وودعها. وعلى الرغم من الظرف الأليم، كان وداعا ذا جَمال عظيم. وتمتم بقوله: (شكرا، وشكرا أيضا على كل شيء)، وغادر السيارة. وقبل أن تُقلِع، راقبت للحظة قامة هذا الرجل الذي كان يعجبها.

(5)

تردَّد (أنطوان) قبل قرع جرس باب البيت، وآثر أخيرا أن يطرقه بيده طرقا هادئا. هادئا للغاية حتى إن بإمكان المرء الاعتقاد، بأنه لم يطرقه. وكان عليه أن يستأنف الطَّرْق ثلاث مرات ليحصل على صوتٍ يمكن سَماعه. نهضت (إيزابيل) من أريكتها. وكانت قد بقيت أياما كاملة هكذا خائرةَ القوى. كان أصدقاؤها يأتون لزيارتها، والأسرة أيضا، لأنها لم تكن تردّ على الهاتف. وكانوا يحاولون جعلها تتكلَّم، ويسألونها ما يمكن أن يفعلوا لها، غير أنها كانت ترغب في أن تكون وحدَها. ولم يكن بإمكان شيء أن يسلِّيها، ولا شيء يمكن أن يهدِّئها. وكان زوجُها

يتمنَّى أن يعود للسفر بأقصى سرعة، (كي يَفرُغ رأسُه من الأفكار)[82] كما كان يقول. وكانت (إيزابيل) ترى أن هذه العبارة حمقاء. فكيف يمكن المرء أن يُفرِغ رأسه منها عندما يكون هذا الرأس مثقلا بانتحار ابنةٍ طفلةٍ له؟ وباستثناء تناولها الحبوب المهدئة، لم يكن لديها أيُّ ثانية يمكنها أن تهرب فيها من الواقع الرهيب. وكانت تتردَّد أحيانا في العودة إلى المشفى، وتشعر بالدوار من ألم الآخرين للتخفيف قليلا من ألمها. ولكن ذلك كان عبثا. ولم يكن هنالك حل. ولم يكن هنالك خلاصٌ.

اكتشفت (إيزابيل) على عتبة الباب رجلا طويلا ورشيقا كان يبدو مختفيا تقريبا على خلفية السماء الرمادية. لم تسأله عما كان يريد، وكانت تنتظر ليقدِّم نفسَه، ويمكن القول إن الصمت بين هذين الإنسانين كان يمكن أن يظل بلا حد. وانتهى الأمر بـ(أنطوان) إلى أن قال:

- أنا آسِفٌ حقا على إزعاجك. أنا (أنطوان دوريس)، أستاذ تاريخ الفن لـ..

وقطع جملته بسبب العجز عن نطق اسم (كاميل).

وبعد لحظات، كانا يشربان القهوة في الصالون. وبينما لم تكن (إيزابيل) تطيق الزيارات، فإن زيارة (أنطوان) يبدو أنها جعلتها بخير. فقد قالت:

- كانت (كاميل) غالبا ما تحدِّثني عنك. لقد كانت تقدِّرك للغاية.

- كان ذلك.. متبادلا.

أصبح (أنطوان) شاحبا في هذه اللحظة. وأراد أن يتحدَّث عن ملحوظته (خارج المطلوب)، وأن يقرَّ بشعوره بالذنب، ولكن لم يكن

(82) وهذه كناية فرنسية تقابل تقريبا الكناية العامية في لغتنا (حتى يريِّح راسه). (المترجم).

لديه الوقت ليتكلَّم. فقد أخذت (إيزابيل) تروي ما كان قد حصل، بالقول:

- لقد كانت يائسَة، ولم نعرف قطُّ كيف نساعدها. وقد فعلتُ كل شيء لتتكلَّم، غير أن ذلك لم يُفلِح قطُّ. ولم أعرف كيف أدرك سَعة المأساة.

- ...

- كانت (كاميل) قد اغتُصِبَت في سن السادسة عشرة. فقد وجدنا في سكنها رسالة طويلة كانت تروي فيها كلَّ شيء.

توقفت (إيزابيل) لحظة، قبل أن تستأنف حكاية المأساة. لم تكن (كاميل) قد تركت رسالة حقيقية وصية لتفسِّر تصرُّفَها، ولكن تركت سردا مطوَّلا لمحنتِها. وتركت النصَّ الذي أوحت إليها بكتابته الدكتورة (ناموزيان)، وهو (كانت هذه المرأة خارقة)، كما ذكرت (إيزابيل). وكانت من جهة ثانية قد ذهبت لزيارتها عدة مرات لاستشارتها. وقد كان ذلك أيضا طريقة للتقرُّب من ابنتِها. ومن ثم، وبدرجات متفاوتة، كانت تشاركها الألم نفسَه. وكانت المحلِّلة النفسانية قد صُدِمت جدا بموت (كاميل). وهي أيضا لم تتمكَّن من الامتناع عن التفكير أنه كان عليها أن تجد الكلمات أو التصرفات لإنقاذها.

كلُّ شيء كان مكتوبا في رسالة (كاميل): اسم المجرِم، والطريقة التي تصرَّف بها، والضغط الذي كان قد مارسَه عليها من بعدُ. وقد وُصف الرعب بهدوء، من غير أي تجَنٍّ، ولا حتى أي انفعال، وإنما فقط الوقائع، الوقائع التي ذُكِرت ببرود تام. أصيبت (إيزابيل) بالغثيان وهي تقرأ الرسالة، ثم أخذت تتقيَّأ. لقد عاد كل شيء إلى ذاكرتِها. الأربعاء المشؤوم، وكيف كان كل شيء قد انقلب منذ ذلك الوقت. وكيف لم تتمكن من إدراك الأمر؟ ومن ثم بالتأكيد الشعور الرهيب بالذنب: لقد كان كلُّ شيء خطأ منها. لقد أوقعتْها في براثن الشيطان.

فهي التي رتَّبتِ اللقاء مع قاتل ابنتها. وهذا أثقلُ بكثير من أن تتحمَّله أمٌّ.

وكان (تيرِّي)، من جانبه، قد دخل في حالة غضبٍ شديدٍ رهيب. وكان يريد أن يذهب فورا للانتقام. إن هذا القَذِرَ سيدفع الثمن، وسوف يعاني. ولم يكن والد (كاميل) لِيُبالي بالعواقب، ويمكنه أن يقضي بقية حياته في السِّجن لراحة روح ابنته الجريحة. وقد توصَّلت (إيزابيل)، وهي منهكة القوى، إلى صَرفِه عن ذلك. فهي لن تستطيع أن تتحمَّل العيش وحدها. فيجب تقديم شكوى. وستكون هذه الرسالة كافية. وأمام ضيق امرأته، تراجع (تيرِّي) عن عزمه.

وفي وسط إجراءات الجنازة، ذهبت (إيزابيل) مع (تيرِّي) إلى مفوضية الشرطة. واستُدعِي (إيفان) في اليوم نفسِه عند انصرافه من مدرسته. حتَّى إنه لم يسأل عن سبب توقيفه. لقد كان يعلم بانتحار (كاميل). وبعد بضع دقائق، وبينما كان بإمكانه أن ينكِر التهم الموجَّهة إليه، إذا به يعترف بكل شيء. وقد بيَّن أنه قد صادف (كاميل) آخر مرة قبل ساعات من انتحارها. بالمصادفة، نعم، إنها المصادفة، وكرَّر ذلك عدة مرات وهو محموم، وقال: (لقد اغتصبتُ أيضا «ماتيلد لودو» Mathilde Ledoux)، وكانت طالبةَ ثانويةٍ، وهي أيضا لم تتقدَّم بشكوى ضده. وقد ذهبت الشرطة لاستجوابها في المساء نفسِه، فانخرطت في النحيب أمام والدَيها المصعوقين. وكان الأخيران، منذ بعض الوقت، قلقَينِ لرؤيتِهما أن ابنتَهما لم تكن هي ذاتها. وقد عُثِر كذلك على شكوى أولى ضد المغتصِب. في (باريس) قبل عشرين سنة، وكانت قد اضطرته إلى مغادرة العاصمة. فأودِع في السجن فورا.

أرادت (سابين) زيارته، ولكن (إيفان) رفض الزيارة. لم يكن يملك القوة لمواجهة نظرة امرأتِه. وسيبقى سنوات عديدة في السِّجن. وسُرعان ما اعترف أن ذلك قد ترك أيضا مزيدا من الأسف لدى

والـدَيْ (كاميـل). فلقـد اختلـق جـلّاد ابنتهـما قصـة عـن الخطـأ الطبـي، ولـو أن (كاميـل) اسـتطاعت فقـط أن تتكلَّـم، وتقـول لهـما كل شيء، وتقـول للشرطـة كل شيء، فقـط لـو فعلـت ذلـك، لـكان اعـترف كـما فعـل أخـيرا. ولكانـت عنـده قضيـة. ولكانـت الفتـاة الشـابة، التـي كانـت في القانـون ضحيـة، قـد تمكَّنـت بـلا شـك مـن إعـادة بنـاء نفسِـها. فقـط لـو فعلـت. وكانـت هـذه الـ(سـيناريوهات)، التـي لم تقـع، تجـول بـلا انقطـاع في رأس (إيزابيـل).

كان (أنطـوان) يصغـي إلى كلامهـا بذهـول. فقـد كان في مواجهـة ألم امـرأة سـوف تعيـش مـع شـعور بالذنـب الـذي تنسـبه لنفسِـها. فيجـب مسـاعدتها، فقـد كان يعلـم إلى أي درجـة كان هـذا الثِّقَـلُ، المرتكـز في القلـب، يمنـع مـن التقـدُّم. فتمتـم بأنـه يتعـيَّن عليـه أن يحيـا مـن أجـل (كاميـل). لم تسـمع (إيزابيـل) ذلـك. فكـرَّر قولـه: (يجـب أن أعيـش مـن أجـل كاميـل). نعـم، كان ذلـك سـهل القـول. ولكـن مـا الفائـدة؟ عـما قليـل سـيشرح (أنطـوان) لـ(إيزابيـل) مـا كان يرتئـي أن يفعلـه. ولذلـك يجـب أن تعـود (كاميـل) إلى الحيـاة بطريقـة مـا.

اعترفـت (إيزابيـل) أن الحديـث مـع (أنطـوان) قـد حسَّـن حالهـا. وكان ذلـك مماثـلا لمـا شـعر بـه هـو أيضـا مـن تحسُّـن. وأضافـت قولهـا: (أنـت تعلـم.. إن امـرأة المغتصِـب هـي صديقتـي المفضَّلـة. وقـد انهـارت. وكل النـاس ينظـرون إليهـا وكأنهـا مصابـة بالطاعـون. فالنـاس يتكلمـون مـع ذلـك. وإني لأُشـفِق عليهـا..). كلُّ شيء كان معقَّـدا جـدا؛ أن يختـار المـرء مكانـه بـين الأخطـاء والرعـب، وأن يختـار المـوت أو البقـاء عـلى قيـد الحيـاة. وهنـا أيضـا كان (أنطـوان) يـتردَّد. وكان يشـعر أمـام ارتبـاك هـذه المـرأة بأنـه عاجـز. وانتهـى بـه الأمـر إلى أن نهـض واقـترب منهـا. ولمـس كتفهـا كـما قـد لمـس كتـف ابنتهـا مـن قبـلُ، وبهـذا التـصرُّف المشـابه يمكن أن تسـتمرّ الحيـاة بـلا شـك.

الخاتمة

في اليوم الذي كان (أنطوان) قد التقى فيه (إيزابيل)، أرتْه غرفة طالبتِه. وقد حاول أن يتخيَّل جميع تحوُّلات (كاميل) هنا: طفلة، وبنتا صغيرة، ومراهقة، إنها حياةٌ كاملة أُعيد تكوينها في هذا الديكور الثابت. اقترب من حاملة اللوحات. لم تكن الألوان في أقلام الألوان قد جَفَّتْ بعدُ. فجعل هذا صدرَه ينقبِض. فقد كانت تحب، في عطلة نهاية الأسبوع، أن تذهب إلى بيت والديها وترسم. وقد وجد نفسه أمام لوحة لم تنجز، ولم يكن أحد يستطيع أن يعرِف أبدا في أي اتِّجاه سيذهب هذا العمل. كان الموت قد أوقف أيضا كل الإلهامات.

تقدَّم نحو صندوق كبير من الخيزُران مركونٍ على الأرض. فتحه وأخرج منه عشرات من اللوحات بصبغ كثيف كان يراها رائعة. وقضى نحو ساعتين في فصلها، قوطع خلالها فقط لحظة من قِبَل (إيزابيل) التي سألته إن كان جائعا. لا، لم يكن يريد أن يأكل. لا، لم يكن يريد شيئا. كان يريد فقط أن يبقى مع رسومات (كاميل). لقد كان يشعر دوما بخصوصيَّتِها وما كان يراه في مشغلِها كان يثير إعجابه من قبلُ. ولكنه الآن ربما كان أكثر إعجابا وقد علم بفَقْدِها. لقد كان مبهورا. وقد أصابته المفاجأة، والصدمة، من استعادة وعيه. لقد كانت رسمتْه، فاضطرب لذلك. فعلاقتهما كانت عابرة أكثر مما هي قوية، وكانت موسومة بتلك الحِدَّة النادرة للقاءات الكبرى.

في اليوم التالي، اتَّصَل بمدير (الفنون الجميلة) ليبلغه بأنه قد عاد، وأنه سوف يستأنف محاضراته قريبا إن أَذِن له. تلقَّى (باتينو) هذا الخبَر بحماسةٍ. اتَّصل (أنطوان) به أولا بغية تنظيم نقل الأعمال التي تركتها (كاميل) في المشغَل. فوالداها لم يكونا يملكان الشجاعة للاهتمام بها. وقد وعَد رئيس المؤسَّسة بلباقةٍ أن يأخُذ النقل على عاتقِه. لم تَدرِ (إيزابيل) كيف تشكر (أنطوان). وقد أمضيا معا عدَّة أيام في ترتيب الرسومات، وهما يبحثان لها عن تلاحم روائي. وكان أمرا مؤثِّرا أن يرى كلَّ ما كانت (كاميل) قد أنتجته في أقلَّ من شهر. لم تكن أمُّها تصدِّق: (لقد كنتُ أسمعها في الليل أحيانا، غير أنني لم أكن أتخيَّل..). لم تكن (إيزابيل) تدخل إلى غرفة ابنتها قطُّ، لأنها أرضُها عندما كانت على قيد الحياة، ومنذ وفاتِها أصبح المكانُ وكأنه مُحَرَّمٌ. وهي تكتشِف الآن أرضا شِبهَ مجهولة، أخذت في نظرها مظهر بلاد سِحرِيَّة.

عاد (تيرِّي) لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، فكان انطباعُه الأول سلبيا تقريبا. فقد كان يتساءل فيما إذا كانت هذه الطريقة من العمل، بغية استعادة ذكرى (كاميل)، سوف تنتهي بإحداثِ ألمٍ أكبر لزوجته بإثارة الماضي، وجعلِها تتعلَّل بوهمٍ هو أن ابنتهما لا تزال بعدُ معهما.. أليس من الأفضل محاولة النسيان؟ وذلك بطرح كل شيء، وتغيير المنزل، والهروب من أدنَى تفصيل قابِلٍ للتذكير بـ(كاميل). ومع ذلك كانت (إيزابيل) تبدو كأنها تستعيد أنفاسَها، وانتهى هو بدورِه بوصف (أنطوان) بأنه حضُورٌ لطيفٌ. فقد كان هذا البروفِسُّور يريد أن يُقيم تكريما لابنتِهما في أمسيةٍ كبيرة. وكان يريد حتَّى أن يُخصِّص قاعة مُحاضراتٍ باسمها، كي تعلَم الأجيال القادمة أن (كاميل بِرُّوتان) كانت هنا يوما ما. وكان اكتشافُ أعمالِها قد زاد أيضا طُمُوحَه إلى ذلك. وهو يريد الآن إقامة معرِضٍ كبير في صالة بـ(ليون).

كان (أنطوان) يعرف كل الوسط الفني في مدينتِه؛ وقد تردَّد بين

جملة أماكن حيث يمكنه أن يُقيم معرِضا لـ(كاميل)، قبل أن يميل إلى صالة (كليموشكا) Clemouchka، الواقعة في حي (لا كروا-روس) la Croix-Rousse، وقد كان يحتفظ بعلاقاتٍ طيِّبةٍ جدا مع (كارين) Karine مديرتها. ولما كان على معرفة بحساسيَّتِها، فقد اعتقد أن بإمكانِها الاهتمام بالأمر، فاتَّصل بها لِيشرَح لها مشروعَه، وبالفعلِ أبدَتْ رغبتَها في أن تعرِف عنه المزيد. وأحسَّتْ في صوت (أنطوان) مقدِّمة لشيء ما ذي أهميَّة. ولم تتمكَّن من الامتناع من التفكير أيضا في أن إقامة معرِضٍ لفتاةٍ شابّة انتحرت قريبا يمكن أن تكون له فائدة إعلامية، لأن من الجيد دوما أن يكون هنالك تاريخ وراء أي عمل.

نسيت (كارين) كلَّ ذلك، والحقُّ يُقال، عندما اكتشفت أعمال (كاميل)، فقد انتقلت هي ومساعِدتُها (لِيا) Léa إلى منزل والديها، فاستولتْ عليها مباشرة حِدَّةٌ تنبعث من رسوماتِها. فقد وجدتها (كارين) بسرعة فائقة أعمالا متماسكة، ولما كانت تطرح بعض الأفكار بشأن المعرِض، سألتها (إيزابيل) في النهاية وهي متلعثِمةٌ: (هل تعنين أنك موافقةٌ على عرض أعمال.. ابنتي؟). كانت مديرة صالة (كليموشكا) قد نسيت توضيح هذا التفصيل، لأن ذلك كان، بالنسبة لها، واضحا. وحينئذٍ جلسَت (إيزابيل) على سرير ابنتها وقد استولى عليها التأثُّر.

وابتداء من هذه اللحظة مضَتِ الأمورُ بسرعة كبيرة، فقد قرَّرَت (كارين) أن تُعلِن عن المعرِض القادم لإتاحة المجال لأعمال (كاميل)، وقبِل (أنطوان) بأن يهتمّ بالمشروع بصِفَة مديرٍ فنِّيّ. وتمت كِتابة نبذة عن حياة (كاميل)، وطُبِع لها منشور، ووُزِّعتِ الدعوات. كان افتتاح المعرِض، بالنسبة للأستاذ، يشير إلى نهاية فترة أليمة جدا، وأكثر أيضا بالتأكيد. ويشير أيضا إلى بداية حقبة جديدة. ورمزيا، كان يتمنَّى دعوة الأشخاص الذين يهمونه. كان المرء يلمَح بين جمهور المدعُوِّين

والـدَيْ (كاميـل)، و(إيلوينـور) أخـت (أنطـوان)، وهـو لـن ينـسَى أبـدا إلحاحَهـا الـذي لا يُصـدَّق، والدعـمَ الدائـم، اللذيـن كانـت قـد برهنـت عليهـما إزاءه. ومـن ثـم كان قـد دعـا (لويـز). ولقـد كان مهـما أن تكـون هنـا. وقـد سـألته ببسـاطة: (هـل بإمـكاني المجـيءُ معـك؟)، وقـد قبِـل (أنطـوان) بالتأكيـد، واكتشَـف في هـذا المسـاء نفسِـه أن (لويـز) كانـت حامـلا. وكانـت قلقـة مـن ردة فعلـه، قائلـة:

- لا أدري ماذا أقول لك.. تهانيَّ.. شكرا.

ردّ (أنطوان) قائلا:

- أنا مسرور لرؤيتِك.

- إن كل مـا فعلتَـه لأجـل هـذه الفتـاة رائـع. فقـد كان لديهـا موهبـةٌ عظيمـة.

- أنا لم أفعل شيئا. إنها هيَ التي فعَلت كلَّ شيء.

- أجل.

- هل تحملين ولدا أم بنتا؟

- بنتا.

ثـم تبسَّـم لهـا (أنطـوان). اقـترب زوج (لويـز) منهـا ومـرَّر يـدَه حـول خَصْرِهـا. وتلفَّـظ ببعـض الإطـراءات لـ(كاميـل)، ثـم انطلقـا معـا نحـو لوحـاتٍ أخـرى. ولـن يراهـا (أنطـوان) قبـل مـضي مـدة طويلـة.

تراجـع حينئـذٍ قليـلا ليراقِـب المدعُوِّيـن. كان والـدا (كاميـل) يبـدوان سـعيدين. ولم يكُـفَّ المدعُـوُّون عـن تهنئتهـما، وكأنهـما الفنانـةُ نفسُـها. وقـد تماسـكا بأيديهـما ليتلقيـا معـا تعبـير الجمهـور عـن تأثـره الحـماسي. وكانـت (صـوفي ناموزيـان) عـلى وشـك أن تقـول لهـما إنهـا قـد وجـدت إحساسـات (كاميـل) كلهـا في أعمالهـا. وكان الحـقُّ معهـا. فالجميـع هنـا كانـوا في صـورة الفتـاة الشـابة. بمـا في ذلـك الإيقـاع. وقـد تسرَّبـت الأمسـية بسرعـةٍ لا نظـير لهـا، وأوشـكت الآن عـلى الانتهـاء. وأعلـن عـدة أشـخاص

أنهم سوف يعودون عندما يقلّ الناس لِيُفيدوا من هذه الأعمال فائدة أفضل. حيَّت (كارين) ومجموعتُها الزائرينَ الأخيرينَ، ثم تقدَّمت نحو (أنطوان) لتترك عنده مفاتيح المعرِض، وقالت له بابتسامةٍ ألفة: (سأدعُك تُغلِق المعرِض). وكانت قد فهمت أن (أنطوان) يرغب، بعد هذه الأمسية، في البقاء بعض الوقت وحدَه مع أعمال (كاميل). وكانت (ماتيلد) قد أدركت ذلك أيضا. وقد كانت أثناء الأمسية كلها تقف على انفراد قليلا كي لا تُزعِج (أنطوان). وكانا قد تقابلا مرتين منذ اليوم الذي غادرت فيه منزل والِدَيْ (كاميل)، وكانا قليلي الكلام جدا. وكان افتتاح هذا المعرِض يبدو لهما أيضا افتتاحا لقصتهما. فقد كانت تحب هذا الرجل، كانت تحبه منذ البداية. وقد أشارت إليه بيدها إشارة كانت تعني: (أنتظِرُك في السيارة..). وعندما رآها تغادِر كان يستعيد التفكير في الأسابيع الأخيرة. ولما كان على حافَّة اليأس فقد غادر على الفور. والحدسُ وحدَه، الذي كان قد حتَّم عليه أن يذهب للعمل في مُتحَف (أورسيه)، هو الذي أتاح له أن يقاوم. وكان قد استعلَم وسجَّل اسمَ المسؤولة عن الموارد البشرية (ماتيلد ماتِّل)، وهو يتذكَّر تماما تلك اللحظة التي كتب فيها هذا الاسم (ماتيلد ماتِّل). والآن، يُدرِك أن هذا الاسم كان مثل نُبُوءةٍ تُعلِن إمكان البقاء على قيد الحياة.

بقي (أنطوان دُوريس) الآن وحيدا في وسَط الصالة. كانت النشوة هي تماما الشعور الذي كان يملؤه في هذه اللحظة. اقترب من رسمة كان يحبّها على وجه الخصوص. وهي صورة ذاتية لـ(كاميل). فنظر إليها نظرة مباشرة في العينين، وهمس إليها ببعض الكلمات، تماما كما كان يتكلم أحيانا مع (جان هيبوتِرن). شعر حينئذٍ بلفحة ريحٍ تمر قرب وجهه كأنها تداعبه.

المترجم في سطور

د. محمود فارس المقداد

- ولد في مدينة بصرى (محافظة درعا - سورية) سنة 1951.
- حاصل على دبلوم الدراسات الأدبية العليا سنة 1975 في قسم اللغة العربية من جامعة دمشق.
- نال درجة الماجستير سنة 1982.
- حاصل على شهادة الدكتوراه سنة 1986.
- أعير إلى جامعة عمر المختار بليبيا سنتي 1992/1991 و1993/1992، وإلى كلية التربية الأساسية في الكويت من سنة 1994/1993 إلى سنة 2007/2006.
- ويعمل الآن أستاذا مساعدا في كلية الآداب الثالثة (بدرعا) - جامعة دمشق.
- له نحو 60 بحثا ودراسة ومقالة، و15 كتابا مؤلفا ومترجما من أبرزها:

1 - ثلاثة كتب عن «تاريخ الترسل النثري عند العرب» في الجاهلية، وصدر الإسلام، والعصر الأموي.

2 - تاريخ الدراسات العربية في فرنسا (ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت).

3 - ديوان محمود المقداد، بيروت، دار العودة.

4 - مسرحيتان لفرانسوا دو كوريل: «الرقص أمام المرآة» و«المدعوة» (ترجمة عن الفرنسية) (ضمن سلسلة من المسرح العالمي في الكويت).

المراجع في سطور

د. منتجب صقر

- يعمل حاليا في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق.
- ويعمل أيضا في جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة الفرنسية.
- عام 2009 دكتوراه في المسرح الفرنسي من جامعة باريس الثامنة.
- عام 2007 ماجستير عن المسرح العربي من جامعة باريس الثالثة/ السوربون الجديدة.
- في 2008 حاضر في جامعة باريس الثامنة، معهد المسرح، فريق العمل «دراماتورجيا المسرح المعاصر».
- شارك في عدة مهرجانات دولية بالإضافة إلى إعداده لورش عمل فنية على عدة مسارح في باريس.
- بين عامي 2008/2006، شارك في عدة مؤتمرات دولية حول المسرح في فرنسا، بريطانيا، المغرب، الجزائر.
- له عدد كبير من الأبحاث والمنشورات والمقالات باللغة الفرنسية منها: «مؤلفان عن المسرح باللغة الفرنسية «مسرح فيليب مينيانا»، و«الشكل الدرامي القصير في المسرح المعاصر»، دار المنشورات الأوروبية، المانيا، 2010.
- في عام 2005 قام بترجمة 3 مسرحيات قصيرة من العربية إلى الفرنسية للكاتب المسرحي السوري سعد الله ونوس: «مأساة بائع الدبس الفقير»، «جثة على الرصيف»، «لعبة الدبابيس».
- في عام 2006، أصدر رواية بالعربية «أقدامنا تختار الطريق»، دار الينابيع، دمشق، سورية.
- صدر له مسرحية مترجمة من الفرنسية للعربية بعنوان «منتصف الليل يا دكتور شويتزر» للكاتب الفرنسي جيلبير سيسبرون، سلسلة المسرح العالمي، الكويت، سبتمبر، 2013.
- يتقن اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب
	الأدغال والسهول العشبية تحكي	

ما صدر من هذه السلسلة

349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1 - محنة الأخ جيرو 2 - تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فريل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـــــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندچي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد

ما صدر من هذه السلسلة

372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو ميناديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرُّقّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس

ما صدر من هذه السلسلة

405 على قيد الحياة (رواية) تأليف: يو هوا

406 الأب (رواية) تأليف: يورج أكلين

407 إِنِّيْ أَتَعَافَى (رواية) تأليف: دافيد فوينْكِينوس

408 الوردة الزرقاء (رواية) تأليف: بينلوبي فيتزجرالد

409 إبداعات نسائية (مجموعة قصصية) تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات

410 الإيـــاب (ديوان شعر) تأليف: هاينْرِيش هايْنِهْ

411 سبع حكايا تعود من بعيد تأليف: جان كريستوف روفان

412 المخادع الحقيقي (رواية) تأليف: توف جانسون

413 اليـوم السابع (رواية صينية طويلة) تأليف: يـــو هـــوا

414 الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية) تأليف: جِلْبير سِيْنُويه

415 رَاوِي مَرَّاكِش (رواية) تأليف: جويديب روي ـــــ باتاجاريا

416 فَتَاةٌ فِي حَالَةِ حَرْب (رواية) تأليف: سارة نوفيتش

417 آكلو اللوتس الجزء الأول (رواية) تأليف: تاتيانا سولي

418 آكلو اللوتس الجزء الثاني (رواية) تأليف: تاتيانا سولي

419 بستنة في المنطقة الاستوائية (ديوان شعر) تأليف: أوليف سنيور

420 مختارات من القصة القصيرة الهندية الحديثة تأليف: مجموعة من كتّاب شبه القارة الهندية

421 جمعية غيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطا (رواية) تأليف: ماري آن شيفر وآني باروز

422 كي يواجهوا الشمس المشرقة (رواية) تأليف: جون ماكغرين

423 صوت مُنْفَرِد (رواية) تأليف: سوزانا تامارو

424 ●السيدة أرنول - ●الجبل (روايتان) تأليف: جان نويل بانكرازي

425 الأشياء تنادينا (قصص) تأليف: خوان خوسيه ميّاس

426 ميخائيل زوشينكو (قصص مختارة) تأليف: ميخائيل زوشينكو

427 مون تايجر (رواية) تأليف: بينيلوبي لايفلي

428 غطاء دروبادي (رواية) تأليف: آناندا ديڤي

429 موسم الظل (رواية) تأليف: لينورا ميانو

430 قَبْلَ أَنْ نَزُورَ الإلهة (رواية) تأليف: شيترا بانرجي ديڤاكاروني

431 الغزو (مجموعة قصصية) تأليف: ريكاردو بيجليا

432 السكينة (رواية) تأليف: أتيلا بارتيش

433 سيدة أورتوبي.. وقصص أخرى.. تأليف: بيّو باروخا

434 المسافرون الإنجليز الجزء الأول (رواية) تأليف: ماثيو نيل

435 المسافرون الإنجليز الجزء الثاني (رواية) تأليف: ماثيو نيل

436 قبل شروق الشمس تأليف: ميخائيل زوشينكو

437 السر المكنون تأليف: سبستيان باري

438 درب الملح تأليف: رينور وين

يمكنكم الاشتراك والحصول على نسختكم الورقية من إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب من خلال الدخول إلى موقعنا الإلكتروني:

https://www.nccal.gov.kw/#CouncilPublications

البيان	عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسة داخل الكويت	25		12		12		20		20	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		10	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24		24	
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12		12	
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		100
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		50
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		50
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		25

قسيمة اشتراك في إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
المدينة:	الرمز البريدي:
البلد:	
رقم الهاتف:	
البريد الإلكتروني:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة النشر والتوزيع - مراقبة التوزيع

ص.ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

أسماء وأرقام وكلاء التوزيع
أولاً: التوزيع المحلي - دولة الكويت

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	الإيميل
1	الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	00965 24826820 /1/2	00965 /24826823	im_grp50@yahoo.com
		ثانياً: التوزيع الخارجي			
2	السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	00966 /14419933 - 14418972	00966 /12121766 - 1212774	bander.shareef@saudidistribution.com babiker.khalil@saudidistribution.com
3	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	00973 /17617733 - 36616168	00973 /17617744	cir@alayam.com rudainaa.ahmed@alayam.com
4	الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	00971 43916501 /2/3	00971 /43918354 - 43918019	eppdc@emirates.net.ae info@eppdco.com essam.ali@eppdco.com
5	سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	00968 /24492936 - 24496748 - 24491399	00968 /24493200	alattadist@yahoo.com
6	قطر	شركة دار الثقافة	00974 /44621942 - 44622182	00974 /44621800	thaqafadist@qatar.net.qa
7	مصر	مؤسسة أخبار اليوم	00202 25782700/1/2/3/4/5 00202 25806400	00202 /25782540	ahmed_isaac2008@hotmail.com
8	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 1666314 /15	00961 /1653259 00961 /1653260	topspeed1@hotmail.com
9	تونس	الشركة التونسية	00216 /71322499	00216 /71323004	sotupress@sotup.com.nt
10	المغرب	الشركة الشريفية للتوزيع	00212 /522589912	00212 /522589912	المغرب - الدار البيضاء - سيدي معروف - ش أبوبكر القادري
11	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	00962 /6535885 - 797204095	00962 /65337733	alshafiei.ankousha@aramex.com basem.abuhameds@aramex.com
12	فلسطين	شركة رام الله للتوزيع والنشر	00970 /22980800	00970 /22964133	wael.kassess@rdp.ps
13	اليمن	القائد للنشر والتوزيع	00967 /1240883	00967 /1240883	alkaidpd@yahoo.com
14	السودان	شركة دار المصري للتوزيع	002491 /23078223		السودان - الخرطوم - شارع البلدية - جنوب برج التضامن